









# سُورَةُ الْمُلْكِ

## الْمُقَدِّمَةُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### حقيقة القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ \* وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (١).

القرآن الكريم هو الفيصل بين الحق والباطل ، أمّا غيره ففيه اختلاف كبير وتصادم بين ، ما عدا الأقوال الصادرة عن النبي ﷺ والأنمة من أهل البيت عليهم السلام التي تفسر القرآن وتشرحه ، وهي بيان له وليست بمتضادة معه ، أمّا الأقوال الأخرى فإنّ التضاد والتصادم واضح فيها ، بل أنّ بعضها ينقض بعضها الآخر. روي عن الإمام الرضا عليه السلام ، عن أبيه موسى بن جعفر عليه السلام : « إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﷺ : مَا بَالُ الْقُرْآنِ لَا يَزْدَادُ عِنْدَ النَّشْرِ وَالدِّرَاسَةِ إِلَّا غَضَاضَةً ؟ (٢) »

فَقَالَ : لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنَزِّلْهُ لِرِمَازٍ دُونَ زَمَانٍ ، وَلَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ ، فَهُوَ فِي كُلِّ

(١) الطارق ٨٦ : ١٣ و ١٤ .

(٢) الغضاضة : النضارة والطراءة . هامش بحار الأنوار : ١٧ : ٢١٣ . لسان العرب : ٧ : ١٩٧ .

زَمَانَ جَدِيدٌ ، وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ ، غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

ولهذا يجد الناس ضالّتهم في القرآن ، وكلّ أهل زمان من الأزمنة يجدون المبتغى فيه ، والقرآن الكريم هو أحد الثقلين ، من أخذ به وبعدله -الذي أكّد عليه النبيّ الأكرم ﷺ في حديث الثقلين - نجا ، «إني تارك فيكم الثقلين ، ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي ، وإنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»<sup>(٢)</sup> ، لا يتأتّى فهمه المستقيم إلا بالرجوع إلى الروايات الواردة عن النبيّ ﷺ وأهل البيت عليهم السلام ، فهما الطريق لحفظ الإنسان من الضلال .

إنّ كلّ سورة من القرآن الكريم فيها مطالب وحيثيات توصل الإنسان إلى الرقيّ والتكامل ، وسورة المدّثر من السور المكيّة المشتملة على معانٍ متعدّدة ، ودروس ثرة بالعطاء ، ولها مغازٍ في مجالات مختلفة من حياة الإنسان .  
خاطب الله تعالى المصطفى ﷺ بعدة خطابات في القرآن الكريم ، ولهذه الخطابات ظاهر وباطن عميق ، غير أنّ بعض الناس يقصر فهمه على الظاهر دون أن يسترعي انتباهه المعنى العميق من الخطاب .

## يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾

### معنى المدّثر

قيل إنّ هذه السورة المباركة من أوائل السور التي أنزلت عليه ﷺ ، وتخطبه بالمدّثر ، كما في غيرها من السور التي حُوّط فيها كـ:  
( طه ) ﴿ طه ﴾ \* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٣﴾ .

(١) عيون أخبار الرضا: ١ : ٨٧ .

(٢) المعجم الصغير: ١ : ١٣٥ .

(٣) طه ٢٠ : ١ و ٢ .

و: (المزمل) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ (١).

وتبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

وفي اللغة: تدثر بالثوب أي اشتمل به داخلاً فيه، والدثار هو ما يتدثر به، والمدثر هو المتدثر بثيابه إذا نام (٢).

والتدثر أخذ الرداء أو الثوب للتغطية أو الارتداء، وكان النبي ﷺ متدثراً ومتغطياً برداء فحُوطب من قبل الله تعالى بالآية المباركة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ \* قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، ومعنى الخطاب طلب القيام بإبلاغ الدعوة ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾.

### الآراء في معنى المدثر

اختلف المفسرون على أقوال وآراء (٣) في معنى المدثر.

### الأول: التدثر المادي

وهو الرأي المشهور الذي فهمه أكثر الناس، ويُعنى به المتغطى بثوب أو رداء، أي أن النبي ﷺ اتخذ غطاءً، فطلب الله تعالى منه أن يلقي الرداء ويتحمل العناء وتقل المسؤولية الملقاة عليه.

### الثاني: التدثر بالرسالة

وهو أعمق من المعنى الأول، ويُفهم من خلال التعبيرات التي نعبر بها عن الإنسان إذا اتخذ مهنة وبرع فيها حتى أصبحت له دثاراً، فيقال: فلان الصفار،

(١) المزمل ٧٣: ١.

(٢) لسان العرب: ٤: ٢٧٦.

(٣) ذكر صاحب تفسير الأمل مضموناً لبعض هذه المعاني والآراء التي أوردناها نقلاً عن التفسير الكبير للفخر الرازي.

وفلان الحدّاد، وفلان العالم، وفلان النجّار، تكون المهنة غطاءً، والغطاء دثاراً في عالم المعنى، فيغطّي الاسم صاحبه، ويصبح الغطاء اسماً لمن اتّصف به، كما تصبح الحرفة والمهنة اسماً له، وتعكس ذلك المغطّي وتصبح كالمرآة من خلالها ينظر للمتغطّي، وبهذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ليس المتدثّر بالغطاء المادّي، بل المتدثّر بالرسالة، والرسالة باعتبارها عقيدة ونظام، لها ثقل ومثانة بأحكامها ومفاهيمها التي أوحاها الله للنبي ﷺ، فتدثّر ﷺ بها وأصبحت الرسالة تغطّي كلّ وجوده المبارك، فاندكّ النبي ﷺ في رسالته، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾<sup>(١)</sup>، وأصبح النبي ﷺ يُعرف برسالته.

### الثالث: التدثّر بالغيبة

أي أنه ﷺ كان متغطّياً ومتدثّراً، لكن ليس بقطعة من قماش، بل مختفٍ بغيبته في غار حراء للعبادة، وغيبته غطّته، وأصبحت دثاراً له، والمعنى حينئذٍ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي الغائب لعبادة ربّه، ويراد بالخطاب أنّ الرسالة ليست لنجاتك وحدك يا رسول الله، بل لنجاة العالمين والبشريّة جمعاء، لذا أمر بالإنذار ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾.

### الرابع: التدثّر بأخذ الراحة

قد يتوانى الإنسان عندما يضع هدفاً في الوصول إليه، خصوصاً إذا كان الهدف الذي وضعه نصب عينيه من الأهداف الكبيرة، فيحاول في المراحل الأولى أن يأخذ قسطاً من الراحة كاستراحة المحارب، والنبي ﷺ بعد أن استشعر ثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه في إبلاغ الرسالة للناس كافة أراد أن يستريح، فجاءه الخطاب من الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، ومعنى المدثّر هو المستريح،

(١) آل عمران ٣: ١٤٤.



ومعنى الخطاب أنّ الراحة لا ينبغي أن تكون لمثلك .

فالمقاتل لا يمكن أن يستريح في ساحة الحرب ، رغم أنّه في قمة التعب من محاربة عدوّه ، وكذلك النبيّ ﷺ حُوطب من قبل الله تعالى باعتباره أراد أن يأخذ استراحة محارب ، فجاءه النداء من ربّ العالمين يا رسول الله ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ ، أي لا وقت للفراغ والراحة ، وذلك لثقل المسؤولية الملقاة عليك .

### الخامس : التدرّث بالقرآن الكريم

وهو في الحقيقة تعبير آخر عن الرسالة ، غير أنّ القرآن هو الكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، عبّر عنه الله تعالى بالذثار ، الذي غطّى الوجود الحقيقيّ لنبينا ﷺ .

بعد عرض هذه الآراء المتعدّدة في المدثر نجد أنّ المعنى الثاني للمدثر -وهو التدرّث بالرسالة- أولى ، ويتناسب مع السورة .

### وقفة مع التدرّث المادّيّ

هناك تصوّر خاطئ في المعنى الأوّل -التدرّث المادّيّ- لا بدّ من الوقوف عنده ، حيث يفهم بعض الناس أنّ الرسول ﷺ بعد أن نزل عليه جبريل عليه السلام أخذ رداء وكان خائفاً مرتعداً ، كما جاء في بعض الروايات ، حيث روى صحيح البخاري أنّ النبيّ ﷺ عندما نزل عليه الوحي في غار حراء « فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروح ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحقّ ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى -ابن عمّ خديجة- وكان امرأً قد تنصّر في الجاهليّة ،

وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى...»<sup>(١)</sup>، فكانت السيدة خديجة عليها السلام تهون عليه الخطب، ثم تذهب إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل، وتحكي له ما جرى على النبي ﷺ، وكان يُطمئن السيدة خديجة عليها السلام، وهي تُطمئن النبي ﷺ، إلا أن هذا كلام لا يتناسب مع مبنانا العقدي، ولا مع الروايات الصحيحة الواردة لدينا ولا مع مقام النبوة، فعندما سأل جابر النبي ﷺ: «أَوَّلُ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى، مَا هُوَ؟» فَقَالَ: نُورٌ نَبِيٌّ يَا جَابِرُ» روي ذلك في مصادر الفريقين<sup>(٢)</sup>.

وقال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه للنبي ﷺ: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ مِنَ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ»<sup>(٣)</sup>.

إذن ليست المسألة كما تصوّرها بعض بأن لا راعي للنبي ﷺ، بل كان أعظم ملائكة الله تعالى مقترناً بشخصيته، وهو ملك عظيم يحمي عن النبي ﷺ ويدافع عنه بإذن الله تعالى، وإذا كان الله يدافع عن المؤمنين ﷺ «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا»<sup>(٤)</sup>، فكيف بنبيه ﷺ الذي كان إيمان الناس - ولا زال - وكمالهم المعنوي، ووصولهم إلى الخير جميعاً حتى آدم عليه السلام منذ أن كان، إلى أن وصل إلى المراتب العالية التي وصل إليها، كان ببركاته ﷺ.

إذن التصوّر الأنف هو أشبه بالخيال، ولا يمكن تقبل أن النبي ﷺ أصيب برعب،

(١) صحيح البخاري: ١: ٣.

(٢) بحار الأنوار: ١٥: ٢٤. وذكره القندوزي في ينابيع المودة: ١: ٥٦.

(٣) نهج البلاغة: ٢: ١٥٧ (من خطبة له عليه السلام).

(٤) الحجّ: ٢٢: ٣٨.

وكان بحاجة إلى طمأنة زوجه السيدة خديجة ، فذلك تصوّر عارٍ عن الصحة ، ومقامه ﷺ أرفع من ذلك ، وهناك كثير من الشواهد التاريخية تدلّ بوضوح تامّ على شجاعة النبي ﷺ ورباطة جأشه . روي عن إمامنا أمير المؤمنين عليّ - الذي ترتعد الفرسان خوفاً منه في ساحة الوغى ، القائل : « مَا بَرَزْتُ لِأَحَدٍ إِلَّا أَعَانَنِي عَلَى نَفْسِهِ »<sup>(١)</sup> - في شجاعة رسول الله ﷺ قوله : « كُنَّا إِذَا اشْتَدَّ الْبَأْسُ وَحَمِيَ الْوَطِيسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلُذْنَا بِهِ »<sup>(٢)</sup> ، وكلامه عليّ يثبت أنّ النبي ﷺ بمكان مكين من اتّصاله بالله وتوكّله عليه وارتباطه به ، حيث لا تهزّه الأحداث ، ولا تؤثر فيه التقلّبات ، فكيف يمكن أن نقبل أنه خاف ووجل إلى وصوله إلى حالة يرثى لها ، حتّى استعان بطمأنة خديجة عليّ باعتمادها على أحد النصارى وهو ورقة بن نوفل ! إنّه قول يتنافى مع بديهيات ومسلّمات في شخصيّة النبي ﷺ وصفاته .

### قُمْ فَأَنْذِرْ

#### حقيقة القيام مع الإنذار

يشير الأمر بالقيام في الآية إلى أنّ النبي ﷺ أنيطت به رسالة ذات مقومات عامّة في انتشار الإنسانيّة جمعاء ، ورفع مستواها على الأصعدة كافّة ، لذا أمره الله تعالى بالقيام والإنذار ، والقيام هو تعبير متداول في مصاديق متعدّدة ، فمن يقوم بعمل ما يقال له : قائم به ، وهناك قيام في مقابل القعود ، وللقيام إطلاق معنويّ شائع ، هو التصدّي لأمر ما ، وأخذ العهدة بإنجازه ، وأمر الله تعالى هنا جاء على هذا النحو ﴿ قُمْ ﴾ ، أي لا يراد به القيام في مقابل القعود ، بل يراد به حمل أعباء النبوّة وثقل المسؤولية ، وأنّ عليه القيام بهذا العبء والتصدّي للمسؤوليّة الملقاة على عاتقه ﷺ .

(١) شرح نهج البلاغة : ١٩ : ٢٢٦ .

(٢) المصدر المتقدم : ١٣ : ٢٧٩ . الغدير : الجزء السابع .

## دور الإنذار في توجيهات الأنبياء

الإنذار هو التخويف من العذاب ، الطريقة التربويّة العامّة التي سلكها الأنبياء والحكماء والمصلحون عبر الأحقاب المختلفة والأزمنة الطويلة في التاريخ ، هي التحفيز على المسؤوليّة عبر منحيين :

**الأول : الإنذار والتخويف ، وهيئته هي :** إن لم تفعل كذا ستكون العقاب الوخيمة كذا .

**الثاني : التبشير ، وهيئته هي :** إن فعلت كذا فلك الجزاء الكذائيّ .

وإذا أمر النبي ﷺ الناس بإقامة الصلاة قال لهم : من لم يؤدّ صلواته سيدخل النار ، وسيحاسب حساباً عسيراً ، وهذا نحو من التخويف ، ويقول أيضاً ﷺ : من قام بأداء الصلاة فله كذا من الثواب ، وله كذا من النعيم ، وهذا تبشير ، وفي العادة هناك تلازم بين الأسلوبين ، أي أنّه في أيّ إبلاغ لأمر دعويّ هناك إنذار يستلزم التبشير ، أو تبشير يستلزم الإنذار ، هذه معادلة عامّة للوصول إلى إنجاز أي عمل من الأعمال ، سواءً كان العمل في العبادات أو المعاملات أو في الأمور العرفيّة التي يقوم بها الإنسان .

## الترغيب والترهيب أسلوب تربويّ

إنّ من أهمّ الأمور الداعية للتقيّد بالإنجاز التخويف والتبشير ، التخويف من عدم الإتيان بذلك العمل وذكر العواقب المترتبة على عدم القيام به ، وكذلك التبشير بذكر النتائج الإيجابية والثمرات المترتبة على القيام بذلك العمل ، وهو أسلوب تربويّ ناجح ، مارسه الأنبياء والمصلحون ، ولا زالت المبادئ التربويّة الحديثة تعتمد على ، فإنّ من يريد أن يربّي أبناءه لو مارس أحد الأسلوبين دون الآخر لكانت النتائج سيئة ، أي أنّه لو أفاض على ابنه النعم دون التخويف ، أو خوّفه بالجزاء

والعقاب دون تبشير لفشل في إيصاله إلى ما يبتغيه؛ لأنّ عدم قرن أحد الأسلوبين بالآخر غير ناجح حسب التجارب الثابتة، وقد حاولت إحدى الدول المتقدمة أن ترفع العقاب في التعليم، فقامت بإلغاء جميع أنماط العقاب عن التلاميذ في المدارس، لكنّ النتائج كانت سيئة جداً، وازدادت نسبة الفشل، وتراجعت نسبة التلقّي.

إذن من الضروريّ اقتران كلا الأسلوبين ببعضهما، ذلك هو الأسلوب الناجح على مستوى إيصال الغير إلى الأهداف المرسومة، سواءً كان في المجال التربويّ للفرد أو للأمم، وسواء على صعيد المعاش أو المعاد، بمعنى أنّه في الأمور الماديّة أو المعنويّة لا بدّ أن يقترن الإنذار بالتبشير والتبشير بالإنذار.

### القيام بالإنذار والتبشير

عند الرجوع للآية الشريفة - ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ \* قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ - لا نلاحظ فيها التبشير، فلم يُقرن الإنذار بالتبشير، لكن ينبغي أن نلتفت إلى أنّه يمكن القول إنّ الآية قدّمت الإنذار وافتتحت به السورة، ثمّ ألحق به التبشير في آية أخرى من نفس السورة، بمعنى قم فأندِرْ بَأَنَّ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ \* إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ \* فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١).

بالإضافة إلى أنّ السورة من أوائل السور المنزلة، لذا كان الإنذار في بداية السورة كطريق للتخويف من العواقب الوخيمة المترتبة على عدم الانصياع إلى أوامر الرسالة، وبعد ذلك يأتي التبشير، وهذا شبيه بما لو هجم عدوّ على مدينة من المدن فليس من المناسب أن نخاطب أهل المدينة ونقول لهم: إنّ من يدافع يعطى كذا، بل لا بدّ أن نبين لهم الآثار الوخيمة المترتبة على عدم الدفاع حتّى نضعهم

(١) المدثر: ٧٤: ٣٨ - ٤٠.

نصب المسؤولية، ثم يأتي بعد ذلك التبشير، وهذا هو أسلوب بعض السور والآيات القرآنية التي قرنت التبشير بالإنذار، أو ركزت على الإنذار ولم تقتصر عليه وحده.

### شمولية الإنذار

يشير قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ إلى أن الإنذار في بداية الدعوة كان لعشيرة النبي الأقرين ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾<sup>(١)</sup>، ويستفاد من كون السورة من أوائل السور أن المُنذر خاص، وهناك من يرى أن الخطاب عام؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال أيضاً: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾<sup>(٣)</sup>. إذن رسالة النبي ﷺ رسالة عامة للإنسانية جمعاء.

ولابد من التأكيد على أن المُنذر - بالفتح - محذوف في الآية ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، ولا توجد قرينة على تحديده، فتصبح الآية عامة، وبحسب أصالة العموم اللفظية يكون المراد هو عموم الإنسان المكلف المخاطب من قبل الله تعالى، ولذا نجد الخطاب عاماً للناس في آيات متعددة من القرآن الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٤)</sup>، الخطاب في الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ عام، وكذلك الخطاب للإنسان، وقد يقال إن الخطابات القرآنية وإن جاءت للمؤمن أو للمؤمنين خاصة من باب التشريف، إلا أنها عامة، وهذا ما أكدته العلماء بأن غير المؤمن بالله تعالى

(١) الشعراء ٢٦: ٢١٤.

(٢) سبأ ٣٤: ٢٨.

(٣) البقرة ٢: ١١٩.

(٤) الحجرات ٤٩: ١٣.

مكلّف ، قال صاحب الجواهر: « لا إشكال عندنا في تكليف الكافر بالفروع »<sup>(١)</sup> .  
 نعم ، الإيمان شرط في قبول الأعمال لا في التكليف ، بمعنى أنّ العمل المقبول  
 مشروط بالإيمان ، ومن أراد أن يكون عمله مقبولاً عليه أن يكون مؤمناً ، وإذا لم يكن  
 مؤمناً فلا يعني أنّ التكليف سقط عنه ؛ لأنّ التكليف عامّة تشمل الجميع من  
 آمن بالله تعالى ومن لم يؤمن به .

### مسؤولية النبي ﷺ تجاه الرسالة

هناك مسؤولية من قبل النبي ﷺ تجاه الرسالة يمكن أن نوجزها في أمور ثلاثة :

#### الأول : الإنذار

من الواضح أنّ رسالة النبي ﷺ إنذار لجميع المكلّفين ، وهو ما ذكرناه آنفاً ،  
 ودلّت عليه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ \* قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ، والقيام في حقيقته أداء المسؤولية  
 والتعهد بإبلاغ الرسالة إلى الناس ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا  
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>

#### الثاني : هداية الناس

من وظائف النبي ﷺ إنقاذ الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان بالله تعالى  
 وتوحيده ، والأخذ بالتكاليف الموصلة إلى خير الدنيا والآخرة .

#### الثالث : تجسيد الأحكام في الواقع

النبي ﷺ بادئ ذي بدء منذر ومذكّر بأهميّة أداء الشرائع الإلهية التي أنزلت عليه

(١) جواهر الكلام : ٤ : ٦٣ .

(٢) سبأ : ٣٤ : ٢٨ .

والتكاليف العامة، ويحضُّ ﷺ الإنسانية جمعاء على الالتزام بها إذا أرادت السعادة والوصول إلى الخير، لكن ذلك لا يتحقق بمجرد إنذاره للناس فحسب، بل هناك مرتبة أعلى عبّرت عنها الآية ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾<sup>(١)</sup>، هذه المرتبة هي الذود عن حمى الشريعة، وتجسيد الأحكام في عالم الواقع والتطبيق، ومسؤوليته الملقاة على عاتقه ﷺ ليست الإبلاغ المجرد وإنما التطبيق العملي للرسالة على قدر المكنة.

### التجسيد العملي للرسالة

قد يفهم من بعض الآيات ما يخالف ما ذكرناه من قيام النبي ﷺ بالتطبيق العملي والتجسيد للأحكام، كقوله تعالى: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾<sup>(٢)</sup>، لكن الآية تريد التركيز على أنّ النبي ﷺ لا يكره أحداً على الدخول في الدين، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾<sup>(٣)</sup>، لهذا أمر أن يجسد الرسالة وأن يجعلها تأخذ منحى عملياً في المسار الإنساني، ولا يكون ذلك بالإبلاغ المجرد؛ لأنّ الناس لن يرعَوْوا ويسيروا في المسار الصحيح والسديد دون جهاد وتحمل للمسؤولية وتطبيق عملي، وذود عن حمى الشريعة؛ إذ أنّ هناك من سيحارب الإبلاغ والإنذار الصادر منه ﷺ، فلا بدّ من الجهاد والدفاع والذود، وعندما قيل له: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، أي تحمّل المسؤولية بما تشتمل عليه من عناء وتعب ونصب، وما تحتاج إليه من كدح وجد، فمن له رسالة في الحياة، سواء كانت على المستوى الشخصي أو الاجتماعي أو غيرهما، في أي مجال من المجالات يدرك مسؤوليته، ويعلم بأنّ نجاحه في تحمّل المسؤولية يحتاج إلى قيام من جهة، وإزالة للعبثات عن

(١) الفرقان ٢٥: ٥٢.

(٢) الغاشية ٨٨: ٢٢.

(٣) البقرة ٢: ٢٥٦.



طريقه من جهة أخرى كي يتسنى له إيصال رسالته إلى النجاح ، وذلك معنى الأمر بالإنذار .

### حقيقة الموت لدى المعصوم

يُتَّصَفُ الأنبياء والرسل ﷺ بالصمود والتحدّي والمجابهة القويّة للجبابرة والطغاة ، ولا يخافون أحداً ، وقد أبان الحقّ تعالى ذلك ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (١) .

فإبراهيم عليه السلام رغم أنّه وحده وقد ألقى به في النار ، إلا أنّه لم يُصبه خوف ولا وجل ؛ لأنّه يعتقد أنّ الله تعالى أكبر من النمرود .

وكذا موسى عليه السلام في مقابل فرعون ، أمّا ما ورد في شأنه عليه السلام : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ (٢) ، فهو خوف على الدعوة ؛ إذ أنّ الإنسان إذا خطط وقام بأعمال من أجل إنقاذ غيره قد يحصل له خوف على أعماله التي قام بها وخطط لها ، وأرسي لها الدعائم ، أن تتأثر بسبب عدم خبرة ذلك الغير ، وليس الخوف من الشهادة والتضحية وتقديم النفس قرباناً في سبيل الله تعالى ، فإنّ ذلك أمر يلتذّ به الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام ، لذا ورد على لسان الإمام علي عليه السلام : « فَوَ اللَّهِ لَأَبْنُ أَبِي طَالِبٍ آتَسُّ بِالْمَوْتِ مِنَ الطُّفْلِ إِلَى مَحَالِبِ أُمِّهِ » (٣) ، أي كما أنّ الطفل يأنس بالتقاطه لثدي أمّه ويهدأ ويرتاح باله ، كذلك المعصوم عليه السلام في ملاقاته للموت في سبيل الله تعالى ، والخوف الذي نخافه من الموت ناتج عن جهل وعدم عرفان حقيقيّ بالموت ولقاء الله تعالى .

(١) الأحزاب ٣٣ : ٣٩ .

(٢) طه ٢٠ : ٦٧ .

(٣) الاحتجاج : ١ : ١٢٨ .

## وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾

### مضامين معرفية في الآية

بيّنت الآية معانٍ عالية ، سوف نستعرض ثلاثة أبحاث فيها :

#### الأول : العقديّ

تبيّن الآية المباركة أنّ الله تعالى أكبر من أن يوصف ، وإذا استند الإنسان إليه ، فذلك يعني أنه اتكأ على ركن وثيق وحصن منيع وملجئ ضامن ، لا يمكن أن يتأثر بأيّ قوة أخرى ؛ لأنّ جميع تلك القوى هي أضعف .

#### الثاني : الأخلاقيّ

ويترتب على الجانب العقديّ ، فإنّ من يرى الله تعالى أكبر من غيره فلن يُصاب بالغرور في نفسه ؛ لأنّه يستصغر ما دون الله تعالى ، قال عليّ عليه السلام : « عَظَمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ » (١) .

#### الثالث : التربويّ

عندما يبدأ الإنسان في مسار الكمال يجابه عقبات تقف أمام تطوّره ، وكلّ ما اجتاز عقبة قويت ملكته ، وعلم بأنّ الله تعالى أكبر ، حتّى يصبح ذلك معتقداً تربوياً أخلاقياً عقدياً مفيداً له في جميع شؤون حياته .

#### الالتجاء في الآية

إذن قد يكون معنى ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ يا رسول الله ، اعتقد في حال إنذارك

(١) نهج البلاغة : ٣٠٣ (صباحي الصالح) .

وإبلاغك لرسالات ربك أن ربك أكبر من أن يوصف، وأكبر من أن يُضادَّ أو يُقهر أو يُهزم؛ لأنه تعالى هو العظيم الأعظم الأجلُّ الأقدر، وإذا التجأ الإنسان إلى الله الأعظم الأقدر، وفهم ذلك فهماً صحيحاً فقد التجأ إلى القدرة اللامتناهية، وعندئذٍ لن يصاب بوجل أو خوف.

إذ السبب في عدم شجاعة الإنسان في مواقف الخوف والوجل والرهبة هو عدم التجائه إلى ركن وثيق، وعندما يصل إلى المأمن يشعر بالاطمئنان.

لهذا فإن الآية احتوت على مفهوم عميق، مضمونه قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾<sup>(١)</sup>، أي إذا كان الله تعالى أعظم من كل شيء فهو يكفي من كل شيء.

### حقيقة التكبير

التكبير هو معنى أعم من التنزيه، ويراد به أن كل ما يُسبغ من صفات على الذات المقدسة والحق تعالى هو أعظم وأجل من أن يحيط به وصف، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾<sup>(٢)</sup>، فهو يساوق كون الذات المقدسة لا يمكن أن يحيط بها أحد من الخلق علماً؛ لأن الله تعالى أكبر من أن يوصف. روي: أن رجلاً قال عند الإمام الصادق عليه السلام: الله أكبر، فقال عليه السلام: الله أكبر من أي شيء؟

فَقَالَ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: حَدِّدْهُ.

فَقَالَ الرَّجُلُ: كَيْفَ أَقُولُ؟

قَالَ: قُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ<sup>(٣)</sup>.

(١) الزمر ٣٩: ٣٦.

(٢) طه ٢٠: ١١٠.

(٣) الكافي: ١: ١١٧.

## وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾

### معاني طهارة الثياب

تحوي الآية معانٍ متعددة ذكرها المفسرون :

#### الأول: نظافة الثياب .

أي أن المعنى الحقيقي لتطهير الثياب هو تنظيفها ، بمعنى أن الحق تعالى يأمر النبي ﷺ أن يرتدي ثياباً نظيفة ؛ لأن النظافة في الإسلام لها أهمية كبيرة ، وهي مظهر من المظاهر الحضارية الراقية ، ورد عن النبي ﷺ قوله : « تَخَلَّلُوا فَإِنَّهُ مِنَ النَّظَافَةِ ، وَالنَّظَافَةُ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالْإِيمَانُ مَعَ صَاحِبِهِ فِي الْجَنَّةِ »<sup>(١)</sup> ، والله تعالى أمر المصطفى ﷺ بتطهير الثياب لتبيان أهمية النظافة ، وديده ﷺ ذلك ، فقد روى الإمام الصادق ، عن أبيه عليه السلام ، قال : « وَقَفَ رَجُلٌ عَلَى بَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ . قَالَ : فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَجَدَ فِي حُجْرَتِهِ رَكْوَةً فِيهَا مَاءٌ ، فَوَقَفَ يُسْوِي لِحْيَتَهُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا رَجَعَ دَاخِلًا قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْتَ سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ ، وَرَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَقَفْتَ عَلَى الرِّكْوَةِ تُسْوِي لِحْيَتَكَ وَرَأْسَكَ ؟ قَالَ : يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا خَرَجَ عَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ إِلَى أَخِيهِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُ ، وَأَنْ يَتَجَمَّلَ »<sup>(٢)</sup> .

### أهمية النظافة في الشرائع السماوية

للمظهر والهندام أهمية كبيرة في الشرائع السماوية جمعاء ، خصوصاً في الإسلام ، من ناحيتين :

(١) بحار الأنوار : ٥٩ : ٢٩١ .

(٢) مكارم الأخلاق : ٩٦ و ٩٧ .

الأولى : النظافة ، والثانية : الجمال ، أي أن الملبس النظيف الجميل يبرز صاحبه ويحببه إلى الناس ، ويفرق الناس بين شخص وآخر من ناحية المظهر والهندام ، فالراقي له عناية بمظهره وملابسه ، لا يلبس ملابساً رثاً أو غير مرتّب ، والنبوي ﷺ لكونه يمثّل السماء فهو يراعي الآداب العامّة ، ويراعي أدقّ وأرقى الآداب المتعلقة بثيابه وهندامه ، غير أن المراد من الآية ﴿وَيْتَابَكَ فَطَهَّرْ﴾ ليس هو تطهير الثياب بالنظافة والجمال ، بل أن هناك معنى أعمق من ذلك .

### الثاني : كناية عن إصلاح العمل .

والتعبير كناية في الآية ، حيث تُعبّر بمعنى وتُريد معنى لازماً له ، كقولنا : «رجل كثير الرماد» للتعبير عن كرمه؛ إذ أن الطعام يحتاج إلى طهي وخطب ، وكلما ازدادت الحاجة إلى استهلاك الطعام كانت الحاجة أكثر إلى المزيد من الخطب ، ومع احتراقه يتحوّل إلى رماد ، وزيادة الرماد كناية عن احتراق الكثير من الخطب لأجل طهي الطعام لكثرة الضيوف ، فأخذ المعنى اللازم ، وهذا معنى لا يفهمه الناس اليوم؛ لأنها كناية قديمة ، لا بدّ من إيجاد بديل عنها يتناسب مع الكرم في العصر الراهن . وعلى هذا فالمراد من الآية هو كناية عن إصلاح وإجادة العمل ، لكون العمل هو الإطار الخارجي للإنسان ، وقد روي عن النبي ﷺ : أنه كان إذا نظر إلى الرجل فأعجبه قال : هل له حِرْفَةٌ؟ فإن قالوا : لا ، قال : سَقَطَ مِنْ عَيْنِي . قيل : وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال : لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حِرْفَةٌ يَعِيشُ بِدِينِهِ»<sup>(١)</sup> .

### حثّ الرسول على العمل

كان النبي ﷺ عندما يأتيه الشباب يحرص على سؤالهم عن مهنتهم وعملهم ، وإذا أجاب الشاب بأنّ لديه عملاً جيّداً يُؤليه عناية خاصّة ؛ لأنّ العمل من المظاهر

(١) بحار الأنوار : ١٠٠ : ٩ .

الراقية للإنسان ، ومن لا يهتمّ بعمله فهو لا رُقِيّ له ولا ثقافة ولا فهم واقعيّ صحيح ؛ إذ أنّ طبيعة الإنسان السعي نحو الكمال ، ومن جملة الأمور التي تُعين عليه المهنة أو الوظيفة ، أمّا البطال الذي لا عمل له فإنه ﷺ لا يوليه عناية ، بل يقوم بنصيحته وحثّه على العمل .

### علاقة الآية بالعمل

إذن تشير الآية ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرْ﴾ إلى إجادة العمل واتقانه ، لكونه بمنزلة الثياب للنفس ، ويدلّ على ذلك ورود التعبير اللغويّ بما يكتنى عن صلاح العمل بطهارة الثياب ، عندما يُقال : فلان طاهر الذيل أو طاهر الثياب ، أي له عمل حسن ، ويجيد ويتقن عمله ، وهو تعبير يكثر في اللغة العربيّة<sup>(١)</sup> .

### المسؤوليّة تجاه العمل في الآية

إذن قوله تعالى : ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرْ﴾ كناية عن إصلاح وإجادة العمل وهو من المظاهر التي ينبغي للمسلم أن يهتمّ بها ، حيث إنّه إذا كان في مهنة لا بدّ أن يجيدها ، فيقرأ ويفهم أسرار عمله ليبدع ، فإن كان معلماً قرأ الكتب التي يجيد بها أساليب التدريس وإيصال المعلومة لتلامذته ، وكذلك الحال للمهندس والطبيب والمهنيّ ، لا بدّ من العناية بالتطوير المستمرّ في مجالهم الوظيفيّ ، لبدّلوا على الرقيّ الحضاريّ ، والله تعالى يريد من نبيّه ﷺ بقوله : ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرْ﴾ أن يجعل عمله التبليغيّ بأرقى مستوى لإيصال الرسالة السماويّة إلى الناس ، وهذا معنى أوضحه النبيّ ﷺ عند حديثه عن نفسه بقوله ﷺ : «أُعْطِيَتْ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»<sup>(٢)</sup> ،

(١) التفسير الكبير : ٨ : ٦٧ .

(٢) روي عن محمد بن عليّ بن الحسين ع ، قال : « قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ قَبْلِي : جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّ لِي الْمَغْنَمُ ، »

أي أن كلامه أرقى الأساليب التي تؤثر على المستمع إيجاباً ، ولا تخدش مشاعره ، والآية أدب إنهي أشار إليه النبي ﷺ بقوله : « أَذَبَّنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي » (١) ، بمعنى أن ما يصدر منه لا بد أن يكون بأجمل صورة وأبهى هيئة .

### الثالث : تزكية النفس من المعاصي .

هناك من يرى أن الآية ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ تشير إلى تزكية النفس من الذنوب والمعاصي ؛ لأن الثياب ستر للبدن وجمال له ، وأعمال الإنسان كذلك تظهره بمظهر جميل ورائق يستهوي الناس ، فيصبح المعنى أن النفس لا بد أن تكون طاهرة من الذنوب والمعاصي لتظهر بمظهر جميل لدى الناس ؛ إذ أن الناس يتأثرون بالكلام الموجّه من نقي السريرة ، طاهر الذليل ، البعيد عن المعاصي ، فقد يكون الشخص ألف عشرات المجلدات ، وتحديث عشرات الساعات دون أن تكون له مصداقية فيما يقوله تؤثر على نفسه وسلوكه وأخلاقه ، عندئذٍ فلن يكون له تأثير على الآخرين ، والباري تعالى يأمر المصطفى ﷺ بتزكية النفس كي يكون تبليغه للرسالة مؤثراً غاية التأثير .

### الرابع : طول الثياب لجرّها .

كانت الطبقة سائدة عند العرب بشكل كبير ، وكان أصحاب الطبقة العالية والأثرياء لهم ذيول في ثيابهم تشبه ما نراه في الوقت الحاضر لدى بعض النساء في عباءتهن ، وهو مظهر غير جيّد ؛ لأن الله يحب الاعتدال في اللباس ، وكان ذلك المظهر سائداً في الثقافة العربية قبل الإسلام لدى ذوي الثروة والجاه ، يلبسون ثياباً طويلة ، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن تكون ثيابه بالمقدار المقبول الذي يسوده

« وَأُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ » . وسائل الشيعة ٥ : ١١٧ ، الباب ١ من أبواب

مكان المصلي ، الحديث ٢ .

(١) بحار الأنوار : ١٦ : ٢١٠ .

الاعتدال<sup>(١)</sup>، وكونه ﷺ صاحب رسالة لا يعطيه تميزاً على الآخرين، فيصبح كأصحاب الطبقة المتعالية، كما يتوهم ذلك العرب في ثقافتهم في تطويل الثياب، لذا كان ﷺ مأموراً بتقصير ثيابه بالنحو المعتدل.

### حقيقة تقصير الثياب

وردت روايات في كتب الحديث لدى المسلمين باستحباب تقصير الثياب، كي لا تجرّ على الأرض، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه رأى رجلاً يجرّ ثوبه، فقال: يَا هَذَا، فَصَّرْ مِنْهُ، فَإِنَّهُ أَنْقَى وَأَبْقَى وَأَنْقَى<sup>(٢)</sup>، غير أنه من المؤسف أن بعض المسلمين فهموا الروايات فهماً خاطئاً، فقَصَّروا ثيابهم إلى نصف الساق، وليس ذلك مراداً من الأحاديث المروية عن النبي ﷺ، بل المراد هو الاعتدال بحيث لا تترك الثياب تجرّ على الأرض كائناً للأوساخ، بالمظهر الذي كان سائداً عند العرب قديماً، وله معنى يشير إلى التميز، وهو غير محبّب من قبل الله تعالى، وقد نُهي عنه في الثقافة القرآنية والإسلامية، والمطلوب أن يكون الإنسان معتدلاً يمثّل الحالة الوسطى، وعليه أن يعتني بمظهره وجماله لا أن يعتني بجرّ ثيابه، فيكون معنى ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرْ﴾ توجيه للنبي ﷺ بأن يجعل ثيابه معتدلة، تميل إلى القصر لا إلى الطول؛ لأن ذلك من الثقافة الجاهلية التي عادت في أوساط النساء، حيث نجد نصف متر من العباءة تجرّها المرأة، وهو مظهر يخالف قوله تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرْ﴾. إن الاعتدال والوسطية محببان في الشريعة الإسلامية.

(١) روي عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرْ﴾ قال: «وَتِيَابَكَ فَصَّرْ». مكارم الأخلاق: ١٠٣.

(٢) مستدرک الوسائل: ٣: ٢٦١.

وروي عن النبي ﷺ قال: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَنِي النَّارِ». صحيح

البخاري: ٥: ٢١٨.



نعم ، يظهر من بعض النصوص الدالة على كراهة إسبال الثياب أنها لا تشمل النساء ، وأنّ علّة النهي هي الخيلاء والتشبه بالنساء ، لكن لا تفيد هذه النصوص استحباب تطويل العباءة أو بعض الثياب بنحو يخرج عن المتعارف ، وإليك بعض النصوص الواردة :

روى صاحب الوسائل وصاحب المستدرک بعض الروايات وأفردوها بباب باسم (كراهة إسبال الثوب وتجاوزه الكعبين للرجل ، وعدم كراهته للمرأة) (١) ، والظاهر أنّ تطويل الثوب صفة كانت موجودة عند النساء سابقاً ، ولم تعارضها النصوص ، بل كان الرجل الذي يطوّل ثوبه متشبهاً بالنساء ، كما في رواية سماعه بن مهران ، قال عليه السلام : « إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِالنِّسَاءِ » (٢) .

### الخامس: كناية عن تطهير الأزواج .

الثياب كناية عن الأزواج ، في الأصول العامة التعبير بالثياب أعمّ من الأزواج ، وقد استعمل في القرآن ما يشبه ذلك ، قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ ﴾ (٣) ، الزوج بمنزلة الستر واللباس ، والعكس صحيح ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ خطاب للنبي ﷺ أن يهتمّ بطهارة نسائه ، وليس المراد هنا من الطهارة ما يقابل الخنا ؛ لأنّ المسلمين اتّفقوا على نزاهة جميع أزواج النبي ﷺ من ناحية العرض ، فهنّ طاهرات الذيل من هذه الجهة ؛ لأنّ الله لا يختار لنبيه زوجة يكون عليها كلام من ناحية العرض ، وجميع أزواجه نقيات الذيل ، وكذلك زوجتي نوح ولوط عليهما السلام . نعم ، هما شريرتان ، إلا أنّهما من ناحية العرض لا كلام عليهما ، والمتحصّل أنّ قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ خطاب له بالاعتناء بنسائه ،

(١) وسائل الشيعة : ٥ : ٤١ . مستدرک الوسائل : ٣ : ٢٦٢ .

(٢) وسائل الشيعة : ٥ : ٤٢ ، الباب ٢٣ من أبواب أحكام الملابس ، الحديث ٤ .

(٣) البقرة : ٢ : ١٨٧ .

لارتباطهنّ به ﷺ، فلا بدّ أن يظهرن بأرقى مظهر أمام الناس، حيث يتناسب مع قبهنّ منه ﷺ ويُنظر لهنّ على أنهنّ يمثلن أرقى مراتب التقوى والكمال، والتحليّ بهذه الصفات ليس خاصّاً بمن يرتبطنّ بالنبيّ ﷺ، بل يشمل كلّ داعية وكلّ شخصيّة اجتماعيّة تريد التأثير؛ إذ لا بدّ له من الاعتناء ببيته وأسرته كي يمكنه التأثير بموعظته على غيره؛ لأنّ أبناء الداعية إذا كانوا غير متحلّين بالأخلاق الحسنة في تعاملهم مع الناس، فسوف يؤدّي ذلك إلى نفور الناس منه، وعدم قبولهم لإرشاداته.

### التطهير العمليّ

أراد الله تعالى من نبيّه ﷺ أن يكون مؤثراً تأثيراً بالغاً في المجتمع، لذا أمره بالاعتناء ببيته، وهو أمر موجّه إلى كلّ صاحب رسالة، فمن يريد أن يرفع مستوى مجتمع من الناحية الصحيّة وهو لا يعتني بذلك داخل أسرته، ولا يتقّف أبناءه وزوجته، فإنّ أقواله لا تأثير لها، وهو كمن يخطّ على الماء، إذن ﴿وَيَا بَاكَ فَطَهِّرْ﴾ توجيه بإيلاء عناية بزوجاته وأبنائه وأسرته، حتّى يصلوا إلى أرقى درجات التربية والذوق، وبذلك تصبح الأسرة قدوة حسنة، ولا تتأثر سلباً، فلا بدّ للقدوة من الابتعاد عن الأمور التي تؤثر سلباً على تبليغ الرسالة وإيصال مبادئها إلى الناس.

### وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾

#### معاني الرجز

تحتوي هذه الآية كثيراً من الأبحاث الهامّة والعميقة.

#### الرجز في المدلول اللغويّ

الرجز - بضمّ الراء وبكسرهما - لها إطلاقات في اللغة العربيّة ومعان متعدّدة:

**الأول: العذاب.**

يطلق الرجز على العذاب<sup>(١)</sup>، فيكون المراد من الآية هجر العذاب، أي هجر الأسباب المؤدّية إليه، ومدلولها حينئذٍ (قِ نفسك من العذاب)، أي من الأمور التي تؤدّي بك إليه.

**الثاني: القبيح.**

يطلق ويراد به كلّ قبيح من القبائح، فيصبح من الأسماء التي تدلّ على عموم القبائح، فيكون اسماً جامعاً للقبائح ومرادفاً للفظه الرجس، ومعناه حينئذٍ القذر مثل الرجس<sup>(٢)</sup> من الأفعال والأقوال، أي دع واطرک القبائح من الأفعال والأقوال، وهنا نقاط عدّة جديدة بالبحث:

**الأولى: استحالة صدور القبيح من النبي ﷺ.**

نعلم أنّ النبي ﷺ لا يقترف القبيح ولا يرتكبه، والأمر هنا موجّه له ﷺ، وكذا الأوامر التي في القرآن وُجّهت إليه ﷺ، وأمر أن يدع القبائح، وذلك يلزم منه إشكال؛ إذ كيف يُطلب منه ترك القبيح وهو ﷺ معصوم عن كلّ القبائح والأخطاء، وحينئذٍ يؤدّي الطلب إلى تحصيل حاصل.

**والجواب عن ذلك:** أنّ هناك تفسيراً مشهوراً ودقيقاً، معناه أنّ الطلب وجّه إليه والمراد به غيره، من باب إياك أعني وأسمعي يا جارة، لكونه ﷺ لا يمكن أن يقترف قبيحاً، وعدم الإمكان لا يرجع إلى الاستحالة العقلية، بل لأنّه ﷺ يستطيع أن يعمل القبيح، وهو قادر عليه، ولكن الله تعالى جعل الأنبياء والرسل على درجة عالية، بحيث يعرفون الآثار المترتبة على القبائح بنحو أعظم ممّن درس الطبّ وتخصّص في تأثير الفيروسات والمكروبات ورأى طعاماً في القمامة

(١) لسان العرب: ٤: ٣٤٨، مادة (رجز).

(٢) لسان العرب: ٥: ٣٥٢.

وعليه الحشرات ، فلا يمكنه أن يتناول منه .

من الواضح أنه قادر على تناوله لكنه لا يفعل أبداً ، ويعود السبب إلى إدراكه الآثار الضارة المترتبة على تناوله ، وكذا الحال للأنبياء والرسل والأئمة من أهل البيت عليهم السلام ، فلا يقتربون القبيح ، ولا يمكن أن يصدر منهم بهذا المعنى ، لإدراكهم الآثار الوضعية المترتبة على قبح القبيح . نعم ، إن الإنسان بعد أن يمرّ بمراحل سلوكية ويربّي نفسه ، يتعد عن كثير من القبائح ، وينفر من الحديث في القبائح ، ويخاف من ذلك ، نتيجة لملكة التقوى ، فلا يكذب ولا يقع في بهتانٍ للغير ، وقد سمى العلماء هذه الحالة بالعصمة المكتسبة نتيجة للارتياض الروحي ، وإذا كان حال الإنسان العادي الذي مرّ بمراحل من الجهاد النفسي والتربية السلوكية لذاته ، ذلك ، فما بال من عبّر عنه الحقّ تعالى كموسى عليه السلام : ﴿وَلَتُضَنَعَنَّ عَلَيَّ عَيْنِي﴾<sup>(١)</sup> ، أي أنّ الله تعالى هو الذي يربّيه مرحلة بعد مرحلة ، ويتولّى العناية به حتى يوصله إلى قيادة المجتمع ، فهل نتعقّل أن يقع مثله في القبيح رغم إدراكه الآثار المترتبة على قبحه ، وهذه المسألة غاية في الأهمية؟!

### الرجز خطاب تكليفي للنبي

خاطب الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء والرسل بوجوب هجر الرجز ، مع العلم أنّهم لا يقتربون القبيح ، والخطاب من باب إياك أعني واسمعي يا جارة ، ثمّ إنّ الخطاب شامل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من جهة التكليف؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم مكلف بأن يهجر القبيح ، رغم أنّه لا يصدر منه؛ لأنّ ذاته من الذوات المقدّسة ، وهي المصداق الأكمل لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾<sup>(٢)</sup> ،

(١) طه ٢٠ : ٣٩ .

(٢) الأحزاب ٣٣ : ٣٣ .

والأمر لا يرجع إلى التطهير تشريعاً، بل هو تكويني، بمعنى أن الله تعالى أوصلهم إلى درجة من الرؤية الواقعية للأشياء بحيث لا يقعون في القبيح، ولقد أشار الأئمة عليهم السلام إلى المرتبة العالية لرسول الله صلى الله عليه وآله، قال الإمام علي عليه السلام: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صلى الله عليه وآله مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ»<sup>(١)</sup>، أي من بداية مراحل حياته الأولى صلى الله عليه وآله جعل الله تعالى له أعظم ملائكته مقترناً به .

### الثانية: نجاح دعوة الأنبياء وترك القبيح .

هذه نقطة في غاية الأهمية؛ لأن أصحاب الرسالات والدعوات تتطلب الدعوة منهم شروطاً كي تكون ناجحة ومؤثرة متبعة من لدن الغير، ومن أهم تلكم الشروط أن يكون الرسول والداعي صاحب الرسالة غير مقترفٍ للقبيح، لا ظاهراً ولا باطناً، يُعرف بين الناس بطهارته .

ويُعبّر عن هذا المعنى في العصر الحديث بحسن السيرة والسلوك، أي عندما يفتش في حياته لا يوجد إلا الجانب الإيجابي، ولا سلبية في شخصيته، كي تكون دعوته مؤثرة، فأمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾، وقد يراد منه أن يكون على درجة عالية من النزاهة والطهارة لتكون الدعوة مؤثرة غاية التأثير فيمن يُوجّه إليه بالدعوة .

### علاقة التأثير مع الالتزام العملي

من يدعو الناس وهو غير ملتزم بما يدعوهم إليه فلن يتأثروا به، لهذا توصل العلماء بعد إجراء مجموعة من التجارب على أن الإنسان يمكنه أن يؤثر في سلوك الآخرين إذا كان يدعوهم عملياً بنسبة تتجاوز ٧٠٪، أي أن السلوك والأخلاق

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣: ١٩٨ .

الحسنة مع الآخرين تؤثر أكثر من ٧٠٪ من الأقوال التي يتحدث بها مع الناس .  
إنّ ديدن الناس إذا رأوا أنّ من يدعوهم طيب وحسن الأخلاق يتأثرون به إذا تحدّث بأمور طيبة وحسنة ، أمّا إذا كان لا يلتزم بها فلن يؤثر في الآخرين ، ولكي يكون الرسول ﷺ والمعصوم عليه السلام والعالم والداعية مؤثراً في المجتمع الذي يكون في كنفه عليه أن يكون حسن السيرة والسلوك تاركاً للرجز ، أي القبيح من الأقوال والأفعال ، ومجرّد أن يصدر منه أقوال أو أفعال قبيحة سوف ينفر الناس منه ، خصوصاً الطبقة المتديّنة التي تمثّل الالتزام بالشرعية ، فهي طبقة لا يمكنها أن تثق بشخص يقول شيئاً ويفعل ما يعاكسه ، وصدق الشاعر حيث قال :

لَا تَنْهَ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌّ عَلَيَّكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمًا<sup>(١)</sup>

فلا يمكن التأثير في الغير إلا بالالتزام سلوكياً ، والأمر لا يرجع إلى مبدئي أخلاقي فقط ، بل هو مبدأ تربوي ، فمن يريد أن يُربي أبناءه على ترك التدخين وهو يتناوله لن يستطيع أن يؤثر فيهم بحيث لا يتناولونه ، أي أنّ من أراد أن يحوّل نفسه مصدرًا للجذب فإنّ أولى الطرق للتأثير التأثير اللامرئي ، ومعناه الالتزام الدقيق بما يدعو إليه الآخرين .

### التوقيت الصحيح للدعوة

وينبغي أن نلفت الانتباه إلى بعض الأشياء المهمّة ، منها أنّ الداعية ينبغي أن يعرف متى يقول الحقّ ، وما هو الموضع المناسب له ليحدث الأثر؟ لأنّه لو قال الحقّ في غير موضعه لكان خلاف العقل والإيمان ، وهذا ما ورد في الروايات

(١) هذا البيت ورد في عدّة قصائد لعدد من الشعراء حتّى خفي قائله ، فقيل : للمتوكّل الكنانيّ ، وقيل : لأبي الأسود الدؤليّ ، وقد نسبه له - أعني الأخير - مجموعة ، منهم الزركليّ صاحب الأعلام : ٣ : ٢٣٦ .

عن النبي ﷺ: «مُدَارَاةُ النَّاسِ نِصْفُ الْإِيمَانِ»<sup>(١)</sup>، وكذا اختيار الوقت والشخص ممّا له علاقة في التأثير، وأشار ﷺ إلى ذلك بقوله: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»<sup>(٢)</sup>، فلا يُعطى أحدٌ أكثر من قدراته التي بها يستوعب الشيء، وهذا مبدأ عامّ في التعليم، فعندما نأخذ طفلاً ندخله أولاً إلى المرحلة الابتدائية ثمّ المتوسطة ثمّ الثانوية والجامعة، ولا يمكن أن يدرس المعلومات التي يدرسها طالب الجامعة وهو في الابتدائية، وإن تشابهت مسميات المواد، من هنا فإنّ على الداعية عندما يُعطي الفكر أن لا يزرعه في داعية أخرج لا يقدر على تمرير ما يريد، فيعطي المعلومة أو الرسالة ويزرع في الأرض السبخة، أو في الزمن غير المناسب، وفي المكان غير المناسب، فيحوّل الحقّ إلى باطل في أعين الناس أو يُصيّره مرفوضاً.

وقد تحدّث طائفة من الروايات عن هذا المطلب موضحة بأنّ المعارف لا تُعطى لأشخاص غير قادرين على استيعابها دون مقدّمات؛ إذ أنّ بعض الناس قد يُلقني كلاماً بطريقة مضرّة يفسد به عقيدة آخرين أو أخلاقهم، أو يُغيّر سلوكهم الحسن إلى سلوك سيئ. إذن المسألة لا ترجع إلى عالم الواقع فقط، وهو عالم النفس الأمريّ، فلا يكفي أن تقول للغير: اترك القبيح! إذ أنّ هناك أشياء ليست قبيحة بل حسنة، لكن رغم حسناتها تترك لما يترتب عليها من قبيح، ولا بدّ من معرفة ذلك، أي معرفة الأمور المناسبة للمعلومة الطيبة الحسنة، فتبادر إلى طرحها في هذا المورد المناسب، أو تحجّم؛ لأنّها لو قيلت أضرّت بالسامع، أو أثرت عليه عقدياً وسلوكياً ونفسياً، لكونه لا يستوعبها، وهناك مئات من الأمثلة؛ لأنّ بعض الناس من طبيعتهم الاحتياج إلى تعليم قد يستغرق سنوات طويلة، وبرمجة تفتح له آفاقاً نفسية،

(١) بحار الأنوار: ٧٢: ٤٤٠ و: ٧٤: ١٤٥.

(٢) بحار الأنوار: ١: ٨٥.

وكثير من الناس يظن أنّ الأشياء تأتي بين ليلة وضحاها، غير أنّ الأمر ليس كذلك، فمن أراد أن يكون متديناً يحتاج أن يجاهد نفسه ويتعب ويمرّ بسنوات طويلة كي يكتسب ملكة التديّن، وكذا من يريد أن يصبح عالماً .

نعم، هناك طرق ووسائل وآليات للوصول إلى النجاح، وكان الأنبياء والرسل يعرفون طريقة التعامل مع الغير، وذلك سرّ نجاحهم في دعواتهم وخلودهم لدى البشر، من نوح عليه السلام إلى النبيّ محمد صلى الله عليه وآله، الذي هو أعظم شخصيّة خلقها الله تعالى .

### خلاصة الآراء في الرجز

ظنّ بعض الناس أنّ المراد من الرجز في ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ هو القبيح بلحاظ عالم النفس الأمريّ، أي القبيح في الواقع، وهذا غير صحيح، بل المراد منه القبيح في بعض الأشياء، أي ما يحقّق العذاب في بعض الأشياء، فأحياناً يصدر من الإنسان شيء ما يؤدّي إلى إهلاك مؤمن، أو إفساد فكره وعقيدته، بالخصوص إذا أعطيت بعض المعلومات دون مقدّمات، وهو ما يُعرّض من فعل ذلك إلى العقاب من الله تعالى والابتلاءات الكثيرة التي قد لا يخرج منها، وقد يؤدّي ذلك إلى التيه، كما عاش بنو إسرائيل التيه في عالم المعنى، لا في عالم المادّة، فيضيع المرء ولا يصل، بمعنى إذا كان الله تعالى قد ربّ الأمور كي يصل الإنسان إلى درجة من الإيمان بتقوى الله تعالى، فيجد أنّه بسبب ما فعل بذلك المؤمن يُمنع من الوصول إلى تلك المرتبة التي يطمح أن يصل إليها، والآية ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ من غرر الآيات بالمعنيين: (هجر العذاب وترك القبيح)، خصوصاً المعنى الأول، أي هجر العذاب بترك الأسباب المؤدّية إليه .

كلّ من سار على طريق واجه عقبات، ولكن مع ذلك لا بدّ أن يسعى جاداً في إزالة العقبات، حتّى يصل إلى الهدف والغاية التي ينشدها، ولعلّ هذا معنى ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، وهناك معنى ثالث للرجز بمعنى النجاسة، غير أنّ هذا المعنى



يندرج إمّا في المعنى الأول: الأسباب المؤدّية للعذاب، أو المعنى الثاني ترك القبيح.

## وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾

### المعنى اللغوي للمنّ والاستكثار

المنّ في اللغة هو ذكر ما يُنغص المعروف<sup>(١)</sup>، تتحدّث الآية عن ذكر الإنسان ما يقدّمه للغير من إحسان، وأنه سبب في وصول المُحسن إليه إلى ما وصل إليه، ويفسّر ذلك قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾<sup>(٢)</sup>، بمعنى أنهم السبب في انتشار الإسلام، وبالتالي علوّ الذكر للنبيّ ﷺ هو إيمانهم بالإسلام، أمّا معنى ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ أي تحسبه كثيراً وتراه عظيماً، ينهى الله تعالى الرسول ﷺ عن المنّ بما يقدّمه من عمل، وأن يستكثره، أي يعده كثيراً.

### المعاني التفسيرية للآية

وقد فسّرت الآية بمعان متعدّدة:

#### الأول: ترك المنّ بالنعمة الإلهية

أي أنّ النبيّ ﷺ بعد أن أمر من قبل الله تعالى بإبلاغ الرسالة، وأمر بتكبيره تعالى، وبتطهير ثيابه، وهجران الرجز، وهي أعمال عظيمة وكبيرة، أمر أيضاً بأن لا يعدّ ذلك ويحسبه كثيراً، فيمنّ به على غيره.

#### الثاني: ترك المنّ بالرسالة

والآية ناظرة إلى الرسالة لكون النبيّ ﷺ هو السبب في إيصال الخلق إلى

(١) تفسير مجمع البيان: ٢: ١٨١.

(٢) الحجرات: ٤٩: ١٧.

الحقّ تعالى ، وهو شيء عظيم ، لكون ما يصدر من الخلق يكون النبي ﷺ واسطة وسبباً في تحقّقه ، فتكون أعماله ﷺ خيراً متّصلاً لا انقطاع له ولا نفاذ ، فإذا التفت النبي ﷺ ، ورأى أنّ إبلاغ الرسالة بما يترتب عليها من خيرات شيئاً كثيراً ، فإنّ التفاته إلى ذلك غير جيّد ، فأمره الله تعالى أن لا يلتفت إلى ذلك المعنى ، أي لا يعدّ إبلاغه لرسالات ربّه كثيراً .

### الثالث : ترك طلب الزيادة

أي تكون الآية ناظرة إلى طلب الزيادة في الأمور الماليّة ، بأن لا يعطي المال ويأخذ زيادة عليه ، فيكون رباً حرّمه الله تعالى ، ومعنى ﴿وَلَا تَمُنُّ﴾ حينئذٍ أي لا تعطي مالاً وتطلب زيادة عليه ؛ لأنّه ربا في المال<sup>(١)</sup> .

ولعلّ الأوضح الأنسب بالآية المباركة أن تكون ناظرة إلى مسألة إبلاغ الرسالة ، فكلّ عامل بأوامره يؤجر النبي ﷺ لكونه السبب في إيصاله إلى الحقّ تعالى ، فمن صلّى رجع فضل صلاته إلى رسول الله ، ومن قام بعمل صالح كان ثوابه راجعاً إليه ﷺ ، وكذا الحال ، فلا يتحقّق عمل خير إلّا ويكون الرسول ﷺ سبباً فيه ، وهذا شيء لا حدود له ، فأمر النبي ﷺ أن لا ينظر إلى جانب الكثرة فيما يتحقّق من إبلاغ رسالات ربّه ، ولا ينظر إلى الكثرة المتحقّقة من الخيرات التي لا نفاذ لها ، وهو أمر جدّ هامّ يحتاج إلى إيضاح ؛ ذلك أنّ الناس الذين يصلون إلى مراتب عالية ومقامات سامقة ، يترتّب على أعمالهم خيرات ، لكونهم وسائط في ترتّب الخير ، وقد يلتفت بعضهم إلى أهميّة ما يقوم به من عمل ، فينظر إليه دائماً ، بل قد ينسب لنفسه حصول الأشياء ، ويؤكد على سببته فيما يترتّب من خيرات للآخرين ، ويعدّ ما صدر منه كثيراً حيث يوجب لدى الآخرين الذين يستمعون إلى ما يصدر منه منّة ،

(١) الآراء الثلاثة في تفسير مجمع البيان : ١٠ : ١٧٦ .

ويرون أنهم دائماً في حال منقصة، لذلك يكون مورداً للمؤاخذه وعدم الارتياح من لدن الآخرين، ولا بأس أن يقول النبي ﷺ: «أنا سيّدُ وُلْدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»<sup>(١)</sup>، فإنّ الإنسان قد يضطرّ أن يذكر في مورد أو موردين بعض الأمور المرتبطة بشخصه، إلّا أنّ عليه أن لا يكون كذلك دائماً؛ لأنّ ذلك غير مستحسن لدى السامع، فإذا تحدّث العالم عن علمه دائماً، وقال: أنا العالم، وأنا الذي لا أضاهاى، وأنا فعلت كذا، أصبح غير مقبول اجتماعياً من لدن المستمعين لأقواله.

### المبدأ الأخلاقيّ في القيادة

هناك مبدأ أخلاقيّ يتمثّل في أنّ الناس يريدون من القائد أن يُقدّم وأن يعطي كثيراً، ويستقلّ ما صدر عنه من أعمال، حتّى تتجذّر قيادته وتأثيره وينصاع الناس لأوامره، وإذا لم يكن بهذه المثابة رفضه الناس حتّى وإن كان من العمالقة في قيادته؛ لأنّه -كما ذكرنا- فإنّ من يركّز على شخصيّته، ويدور في محور ذاته، لن يكون مقبولاً ولا مؤثراً من الناحية الأخلاقيّة، والعكس صحيح، فإنّ من يستقلل ما صدر منه من أعمال، ويرى نفسه أقلّ الناس فيما صدر عنه -رغم أنه قدّم كثيراً- سوف يكون مؤثراً ومقبولاً لدى الآخرين.

### النبيّ يتواضع للأمة بإنجازاته

لقد كان الرسول ﷺ قائداً فذاً في تعامله مع غيره، يمدح الآخرين، ويبين أنّ ما قدّمه لهم قليل، وهناك شواهد كثيرة على هذا الأمر، منها موقفه عند إعطائه أموال كثيرة لأهل مكّة من الغنائم في غزوة الطائف، حيث أعطى الغنائم لأهل مكّة ولم يُعطِ الأنصار شيئاً، فاعترض بعض الأنصار على ذلك، فجمعهم النبيّ ﷺ

(١) بحار الأنوار: ٨ : ٤٨.

في محضر سعد بن عبادة ، وقال لهم في معالجة هذا الموقف : يا معشر الأنصار ، ما مقالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم !؟

قالوا : بلى ، الله ورسوله أمنّ وأفضل ، ثم قال : ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المنّ والفضل ، قال ﷺ : أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقتك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، أوجدتم - يا معشر الأنصار - في أنفسكم في لعاعة من الدنيا شيء قليل من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون - يا معشر الأنصار - أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحطاً ، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وتفرقوا<sup>(١)</sup> .

تصرّف النبي ﷺ وموقفه غاية في الأحكام ، ودليل على عظمته كقيادي بارز ، حيث عدّد لهم ما قدّمه من إنجازات ، لكنّه لم يسكت ، بل أبدى لهم أنهم شركاء معه في الإنجاز ، وأنّ لهم فضلاً ، أمّا قوله ﷺ : « لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم » فهو تبيان بأنّ القائد الناجح لا ينظر إلى ما يصدر عنه من أعمال ، وأنّه خيرٌ لا حدود له ، ويلغي بذلك دور غيره ، إنّها نظرة أسوأ ما تكون من القيادي الفدّ ، حيث يرى نفسه وأعماله ويلغي دور غيره ، والنبي ﷺ أوضح أنّ الجماهير المقودة قدّمت وأعطت وضّحت ، فأشاد بدورها ، ولعلّ الآية تومئ إلى ذلك ﴿وَلَا تَمُنُّنَ﴾

(١) السيرة النبوية : ٤ : ٩٣٥ .

تَسْتَكْثِرُ ﴿١﴾ ، أي إلى أهميّة أن يكون القائد يستقلّ أعماله ، ولا يَمنَ بها فيحسبها كثيرة ، لتكون قيادته قطب الرحي ، يدور في فلكها الناس ، وهو مبدأ أخلاقيّ عظيم .

### المبدأ العرفانيّ في القيادة

هناك مبدأ عرفانيّ أهمّ من المبدأ الأخلاقيّ ، رغم أنّه يتّصل به ويتقاطع وإيّاه ، يتّضح هذا المبدأ العرفانيّ في أنّ الأولياء الذين لهم اتّصال وثيق بالله تعالى كلّما اشتدّ اتّصالهم به تعالى قوي وثبت ، وترتّب عليه خيرات كثيرة لا حدود لها ، ومن جملة تلك الخيرات أن لا يرى العارف أعماله ، بل يرى الله تعالى ، وكلّما صدر عنه من خير لا يراه ، بل كلّ ما تراه الناس كثيراً وعظيماً يستقلّه ولا ينظر له ، ولا إلى ذاته أو إلى أعماله ، بالرغم من عظمتها ، فضلاً عن النظر إلى ترتّب خيرات عليها ، ولعلّ هذا معنى قوله تعالى : ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (١) ، بمعنى أنّ الكامل لا يرى أعماله ، بل يرى أنّ التوفيقات والخيرات والعطايا والمنح والمنن والنعم التي تصدر منه إنّما هي بفضل الله تعالى ، الذي وفّقه إليها ، ولولا فضله عليه لما أمكن أن يصدر منه عمل طيب يستفيد منه الناس .

### الرسول مصداق المبدأ العرفانيّ

الرسول ﷺ لا يرى أنّ ما تحقّق منه شيء ، بل يرى الفضل كلّه لله تعالى ، ولا فضل له أبداً ، وهذه نظرة أعمق من النظرة الأخلاقيّة ، تبني عليّ أنّه كلّما تكامل الإنسان كلّما انمحت إنيّته ، وتلاشى وجوده ، وأصبح لا يرى إلاّ الله تعالى ، قال أحد العرفاء في هذا المجال : « فقلت : ما أذنبت » ، أي يا إلّهي ، لا ذنب لي ، فقالت النفس مجيبة له : « وجودك ذنب لا يقاس به ذنب » ، أي كونك تنظر إلى نفسك ،

(١) النحل ١٦ : ٩٦ .

وتحقّق هوهويتها<sup>(١)</sup> في قبال الحقّ تعالى ، شيء فيه من الكبرياء وهي الله وحده ، لذا فإنّ الأولياء لا ينظرون إلى ذواتهم ولا إلى ما صدر منهم من أعمال خيرة .

### المنة من الله على الخلق

وحينئذٍ فمعنى ﴿وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تنظر إلى جانب المنّة ؛ لأنّه لا منّة لك على أحد من الخلق ، فإنّ المنّة من الله تعالى ، فإذا لم تكن منك ، فكيف تعدّها كثيرة ولا شيء يرجع إليك منها ؛ إذ الأشياء ترجع كلّها إلى الله تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ، يفرح الإنسان بفضل الله وبرحمته وبنعمته وعطاياه ، ودون ذلك فمهما كانت له من قدرات ومواهب وإمكانيات ، وهو لا يسندّها إلى الحقّ ، ولا يراه أنّه الموفق والمعطي والمانح المتّان ، فلن يستقيم ، إذن الآية ﴿وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تمنّ أبداً ، والأعمال التي تقدّمها لا تجعل فيها منّة على الغير ، ولا تلتفت إليها ، بل انظر إلى أنّها من الله تبارك وتعالى ، وقد حصلت لك بفضلته ورحمته .

### تعدّد الآراء حول الشخصية الواحدة

للناس قراءات مختلفة ، كما مرّ علينا في موقف رسول الله ﷺ عندما قسّم العطايا ، وتأثّر بعض الأنصار ووجد في نفسه تجاهه ﷺ ، وإذا كان الرسول ﷺ اتّخذ في حقّه ذلك ، فإنّ سائر الناس أولى أن يقرأوا بقراءات مختلفة ، من هنا فإنّ كلّ من قام بعمل سيجد اختلافاً للناس في قراءته ، أحدهم يراه حسناً ، ويتعجّب بقوله :

(١) الهوهوية: هي الاتّحاد في جهة ما مع الاختلاف من جهة ما ، وهذا هو الحمل . صحيفة الاهرام المصريّة : الخميس ٩ رجب ١٤٣٥هـ / ٨ مايو ٢٠١٤م ، السنة ١٣٨ ، العدد ٤٦٥٣٩ ، مقالة: العقاب وسيلة تربويّة... بشروط .

(٢) يونس ١٠ : ٥٨ .

ما شاء الله ، ما أكثر صدور الخيرات من صاحبه ، وآخر سيقول : إنه رياء ، وثالث سيصفه بأنه لم يصدر إلا لإثبات الشخصية في المجتمع ، ورابع قد يحسده ، والخامس قد يحقد عليه ؛ لأن الناس يختلفون في طبيعتهم ، الكامل منهم وهو من وصل إلى مرتبة عالية يفرح إذا رأى خيراً صدر من أي إنسان ويتمنى الزيادة له ، أما من لم يصل إلى هذه المرتبة قد ينظر نظرة استغراب ، وتكون له قراءة مختلفة ناتجة عن نقص في شخصيته ، وكما قيل ( وكل إناء بالذي فيه ينضح )<sup>(١)</sup> ، أكثر الناس لم يصلوا إلى مراتب راقية ، لذلك يصدر منهم الحسد والحقد وغير ذلك . نعم ، عندما يموت المحسود يتغطى بستر ، فيمدح ويشاد به وبإيمانه وعمله وإنجازاته ، أما إذا كان حياً قد تجد أن أقرب الناس إليه أشدهم عداوة له ، هذه نظرة الناس الناقصة ، من هنا قد يكون من يعاديك مؤمناً ، لكنه ليس بكامل في إيمانه ، وقد يكون طيباً صاحب خير ومن أهل الجنة أيضاً ، لكنه يعاديك ويدمك لوجود نقص عنده من جانب معين .

### دور الناس في الوصول للكمال

تفصح بعض الروايات إلى اختلاف مراتب الكمال في جوانب متعددة ، من هنا يصبح الاختلاف بين بعض الصالحين طبيعياً نتيجة لتفاوت الكمال والاختلاف فيه ، وإليك بعضها :

منها : ما عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : « بِالزِّيَادَةِ فِي الْإِيْمَانِ تَفَاضَلُ الْمُؤْمِنُونَ بِالذَّرَجَاتِ عِنْدَ اللَّهِ . قُلْتُ : وَإِنَّ لِلْإِيْمَانِ دَرَجَاتٍ وَمَنَازِلَ يَتَفَاضَلُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ عِنْدَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ .

قُلْتُ : صِفْ لِي ذَلِكَ - رَحِمَكَ اللَّهُ - حَتَّى أَفْهَمَهُ ؟ قَالَ : مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ

(١) مثل يضرب . شرح العينية للفاضل الهندي .

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَقَالَ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ الآية (١).

وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ (٢).

وَقَالَ: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ (٣).

وَقَالَ: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٤)، فَهَذَا ذِكْرُ دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ وَمَنَازِلِهِ عِنْدَ اللَّهِ (٥).

وعنه عليه السلام، قال: «قُلْتُ لَهُ: إِنَّ لِلْإِيمَانِ دَرَجَاتٍ وَمَنَازِلَ يَتَفَاضَلُ الْمُؤْمِنُونَ

فِيهَا عِنْدَ اللَّهِ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قُلْتُ: صِفْهُ لِي - رَحِمَكَ اللَّهُ - حَتَّى أَفْهَمَهُ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ سَبَقَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا يُسَبِّقُ بَيْنَ الْخَيْلِ يَوْمَ الرَّهَانِ، ثُمَّ فَضَّلَهُمْ عَلَى دَرَجَاتِهِمْ فِي السَّبْقِ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ كُلَّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ عَلَى دَرَجَةٍ سَبَقَهُ، لَا يَنْقُصُهُ فِيهَا مِنْ حَقِّهِ، وَلَا يَتَقَدَّمُ مَسْبُوقٌ سَابِقًا، وَلَا مَفْضُولٌ فَاضِلًا، تَفَاضَلَ بِذَلِكَ أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَوَاخِرُهَا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْسَّابِقِ إِلَى الْإِيمَانِ فَضْلٌ عَلَى الْمَسْبُوقِ إِذَا لَلِحَقَّ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوْلَهَا. نَعَمْ، وَلِتَقَدَّمُوهُمْ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِمَنْ سَبَقَ إِلَى الْإِيمَانِ الْفَضْلُ عَلَى مَنْ أَبْطَأَ عَنْهُ، وَلَكِنْ بِدَرَجَاتِ الْإِيمَانِ قَدَّمَ اللَّهُ السَّابِقِينَ، وَبِالْإِبْطَاءِ عَنِ الْإِيمَانِ آخَرَ اللَّهُ الْمُقْصِرِينَ؛ لِأَنَّا نَجِدُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ

(١) البقرة ٢: ٢٥٣.

(٢) الإسراء ١٧: ٥٥.

(٣) الإسراء ١٧: ٢١.

(٤) آل عمران ٣: ١٦٣.

(٥) بحار الأنوار: ٦٦: ١٧١.



الْآخِرِينَ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ عَمَلًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَأَكْثَرُهُمْ صَلَاةً وَصَوْمًا وَحَجًّا وَزَكَاةً وَجِهَادًا  
وَأِنْفَاقًا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ سَوَابِقُ يَفْضَلُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عِنْدَ اللَّهِ لَكَانَ الْآخِرُونَ  
بِكثرةِ العملِ مُقَدِّمِينَ عَلَى الْأَوَّلِينَ ، وَلَكِنْ أَبِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْرِكَ آخِرُ دَرَجَاتِ  
الْإِيمَانِ أَوْلَهَا ، وَيُقَدِّمَ فِيهَا مَنْ آخَرَ اللَّهُ ، أَوْ يُؤَخِّرَ فِيهَا مَنْ قَدَّمَ اللَّهُ .

قُلْتُ : أَخْبِرْنِي عَمَّا نَدَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ مِنَ الِاسْتِثْبَاقِ إِلَى الْإِيمَانِ ؟  
فَقَالَ : قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ (١) .

وَقَالَ : ﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ \* أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢) .

وَقَالَ : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (٣) ، فَبَدَأَ بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ عَلَى دَرَجَةِ سَبْقِهِمْ ،  
ثُمَّ ثَنَّى بِالْأَنْصَارِ ، ثُمَّ ثَلَّثَ بِالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، فَوَضَعَ كُلَّ قَوْمٍ عَلَى قَدْرِ دَرَجَاتِهِمْ  
وَمَنَازِلِهِمْ عِنْدَهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا فَضَّلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَقَالَ  
عَزَّ وَجَلَّ : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ  
بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (٤) .

وَقَالَ : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ (٥) .

وَقَالَ : ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ

(١) الحديد ٥٧ : ٢١ .

(٢) الواقعة ٥٦ : ١٠ و ١١ .

(٣) التوبة ٩ : ١٠٠ .

(٤) البقرة ٢ : ٢٥٣ .

(٥) الإسراء ١٧ : ٥٥ .

تَفْضِيلاً ﴿١﴾ .

وَقَالَ: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ﴿٢﴾ .

وَقَالَ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ﴿٣﴾ .

وَقَالَ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ ﴿٤﴾ .

وَقَالَ: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ ﴿٥﴾ .

وَقَالَ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَكْبَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا﴾ ﴿٦﴾ .

وَقَالَ: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ ﴿٧﴾ .

وَقَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُنَّ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٨﴾ .

(١) الإسراء ١٧ : ٢١ .

(٢) آل عمران ٣ : ١٦٣ .

(٣) هود ١١ : ٣ .

(٤) التوبة ٩ : ٢٠ .

(٥) النساء ٤ : ٩٥ .

(٦) الحديد ٥٧ : ١٠ .

(٧) المجادلة ٥٨ : ١١ .

(٨) التوبة ٩ : ١٢٠ .

وَقَالَ: ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>، وَقَالَ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾<sup>(٢)</sup>، فَهَذَا ذِكْرُ دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ وَمَنَازِلِهِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٣)</sup>.

وعنه عليه السلام، قال: «قال أبو جعفر عليه السلام: يا بُنَيَّ، اعْرِفْ مَنَازِلَ الشَّيْعَةِ عَلَى قَدْرِ رَوَايَتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ، فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ هِيَ الدَّرَايَةُ لِلرَّوَايَةِ، وَبِالدَّرَايَاتِ لِلرَّوَايَاتِ يَعْلُو الْمُؤْمِنُ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ. إِنِّي نَظَرْتُ فِي كِتَابِ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَوَجَدْتُ فِي الْكِتَابِ: أَنَّ قِيَمَةَ كُلِّ امْرِئٍ وَقَدْرَهُ مَعْرِفَتُهُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحَاسِبُ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي دَارِ الدُّنْيَا»<sup>(٤)</sup>.

كتاب زيد الزراد، عنه عليه السلام مثله<sup>(٥)</sup>.

وعنه عليه السلام أنه قال: «حَدِيثٌ تَدْرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ حَدِيثٍ تَرَوِيهِ، وَلَا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِيهَا حَتَّى يَعْرِفَ مَعَارِيضَ كَلَامِنَا، وَإِنَّ الْكَلِمَةَ مِنْ كَلَامِنَا لَتَنْصَرِفُ عَلَى سَبْعِينَ وَجْهًا لَنَا مِنْ جَمِيعِهَا الْمَخْرُجُ»<sup>(٦)</sup>.

ولعل ما يؤيد ما ذكرناه قول الإمام زين العابدين عليه السلام: «وَاللَّهِ لَوْ عَلِمَ أَبُو ذَرٍّ مَا فِي قَلْبِ سَلْمَانَ لَقَتَلَهُ»<sup>(٧)</sup>؛ لِأَنَّ دَرَجَاتِ الْكَمَالِ تَخْتَلِفُ، فَكُلُّ وَاحِدٍ يَقْرُوكَ بِقِرَاءَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنِ الْآخَرِ، مِنْ هُنَا يَحْتَاجُ الْمُؤْمِنُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَرُونَةِ وَالتَّسَامُحِ،

(١) البقرة ٢: ١١٠.

(٢) الزلزلة ٩٩: ٧ و ٨.

(٣) الكافي: ١: ٤٠-٤٢.

(٤) معاني الأخبار: ١ و ٢.

(٥) الأصول الستة عشر: ١٢٣ و ١٢٤.

(٦) معاني الأخبار: ٢.

(٧) الكافي: ١: ٤٠١.

فإذا قرأ بقراءة خاطئة قال لمن قرأه: اللهم اغفر له، وبارك عمله، ووفقه،. فإن أكثر الذين يصلون إلى مراتب عالية وعظيمة هم الذين يسرون في هذا المسار، وفي هذا الصراط، فلا يحملون غللاً على الغير ولا حقداً ولا ضغينة ولا حسداً، وإذا سمع كلاماً غير جيد حتى من أقرب الناس دعا له بالتوفيق وسامحه، وسأل الله أن لا يؤاخذ به بما قال فيه، وهناك شواهد كثيرة للكاملين الذين تألقوا، ومن أعظمهم الشهيد الصدر والسيد الطباطبائي (رحمة الله عليهما)، فإن السيد الصدر له أخلاق عالية، وقد سمع أن بعض طلاب العلم تحدت عنه بكلام غير جيد، فما كان منه إلا أن وصفه بأنه طيب مؤمن، ولو تقدم لصلاة الجماعة لصليت خلفه، يريد (يرحمه الله) أن يبين أن من تحدت بهذا الكلام السيئ قد يكون لكلامه ما يصححه شرعاً.

إذن لا بد للمؤمن أن ينتبه إلى مساره العملي كي لا يدور في حلقة مفرغة، ويتيه كما تاه بنو إسرائيل، ومن أراد أن يتقدم عليه أن يجتاز هذه العقبة، ويرى الناس طبيين ويحسن الظن بهم، حتى يفتح الله له الآفاق الرحبة، وعليه فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾ فيه لمسات عرفانية وأخلاقية كبيرة.

## وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

### حقيقة الصبر

بعد الأوامر السابقة والنهي الموجه له ﷺ أمر بالصبر قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، أي لوجهه تعالى اتخذ الصبر جلباباً، وينبغي هنا أن نلتفت إلى معنى الصبر أولاً.

ويمكن أن يقال إنه قوة التحمل مع ديمومة واستمرار في العمل الشاق.

## دور الصبر في الوصول للكمال

كثير من الناس يعمل عملاً طيباً لكنه لا يصل إلى نتائج ، وقلة منهم يصل إلى نتائج كبيرة ، ويعود السبب إلى الصبر ، فمن صبر وصل إلى النتيجة وظفر بالحصول على الغاية التي كان يتوق الوصول إليها ، قال بعض العلماء : إنَّ الفارق بين القادة الذين غيَّروا وجه التاريخ وغيرهم هو الصبر ، كما أنَّ الفارق بين المنتصر والمهزوم هو في قوَّة التحمُّل للوصول إلى النتيجة . إذن للصبر أهميَّة كبيرة في الوصول إلى النتائج العظيمة والكبيرة ، التي قد تغيِّر وجه التاريخ وترسم مستقبل الإنسان ، ولهذا نرى أنَّ الناس الذين يعملون ويصبرون يتألَّقون في أيِّ مجال من المجالات ، فمن أراد التألَّق في صنعة أو حرفة أو فنٍّ أو علم عليه أن يطرِّق المهارة والقدرة ثمَّ يصبر ، وكلِّما ازداد صبراً وتحمُّلاً كلِّما استطاع أن يتألَّق في ذلك المجال ، وأنَّ يبدع فيه .

## الفارق بين النجاح والفشل

يرجع الفرق الجوهريّ بين النجاح والفشل إلى الصبر ، فله أهميَّة فائقة ، ويكفينا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾<sup>(١)</sup> ، أي أنَّ الله تعالى يعطي الصابر دون حساب ، تارة يحصل المرء على نتيجة العمل ، ويُعطى عشر حسنات أو سبعمائة حسنة ، لكنه عندما يعمل ويصبر فحينئذٍ سيُعطى من دون حساب ، وهو ما نراه في سيرة العلماء الذين صبروا واستمروا في صبرهم إلى أن وصلوا إلى درجة عالية من العلم رغم الظروف التي تضادَّت معهم في مسارهم .

## العلامة الطبائبيّ العالم الصابر

لعلَّ من أبرز العلماء الذين صبروا وتحمَّلوا الشدائد حتَّى وصلوا إلى مراتب كبيرة

(١) الزمر ٣٩ : ١٠ .

السَّيِّدُ الطَّبَاطِبَائِيُّ ، صَاحِبُ الْمِيزَانِ ، فَقد كَانَتْ ظُرُوفُهُ شَاقَّةً ، لَكِنَّهُ صَبَرَ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الرِّتْبَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْعَالِيَةِ ، حَيْثُ تَرْتَّبَ عَلَى عِلْمِهِ أَثَارٌ كَبِيرَةٌ وَخَيْرَاتٌ لَا حُدُودَ لَهَا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَيَكْفِي أَنَّ الشَّهِيدَ الْمُطَهَّرِيَّ ﷺ تَخَرَّجَ عَلَى يَدَيْهِ ، وَتَفْسِيرَهُ الْمِيزَانَ اشْتَمَلَ عَلَى أبحاثٍ وَمَعَارِفٍ بَاهِرَةٍ .

إِذَنْ فَإِنَّ الصَّبْرَ يَحَقِّقُ لِلإِنْسَانِ نَتَائِجَ وَهَبَاتٍ وَعَطَايَا دُونَ حِسَابٍ ، وَهَنَّاكَ حَسَنَاتٍ وَخَيْرَاتٍ تَعُودُ عَلَى الْعُلَمَاءِ بِمُؤَلَّفَاتِهِمُ الَّتِي يَسْتَفَادُ مِنْهَا بِلَا حُدُودٍ ، وَهِيَ صَدَقَاتٌ جَارِيَةٌ ؛ إِذْ كُلٌّ مِنْ تَعَلُّمٍ وَاسْتِفَادَةٍ مِنْ عِلْمِهِمْ رَجَعُ خَيْرٌ إِلَيْهِمْ .

### النَّبِيُّ وَتَحْمَلُ الْمَشَاقِّ

أَتَضَّحُ أَنَّ الْفَارِقَ الْأَسَاسِيَّ بَيْنَ النَّاجِحِ وَالْفَاشِلِ فِي الصَّبْرِ ، فَمَنْ يَعْمَلُ وَلَمْ يَحْصُلْ عَلَى نَتِيجَةٍ فَذَلِكَ يَعُودُ إِلَى جِزَعِهِ وَسَامَتِهِ ، أَمَّا إِذَا كَانَتْ رُوحُهُ مَتَفَائِلَةً وَأَتَّخَذَ الصَّبْرَ جَلْبَابًا ، فَسَوْفَ يَنْجَحُ ، خُصُوصًا إِذَا اقْتَدَى بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي تَحْمَلِ الْمَشَاقِّ ، فَإِنَّهُ تَحْمَلُ مَا لَمْ يَتَحَمَّلْهُ أَحَدٌ مِنَ الْأَذَى ، وَلَعَلَّ مَقَارَنَةَ بَسِيطَةٍ بَيْنَنَا نَحْنُ طَلِبَةُ الْعِلْمِ وَبَيْنَهُ ﷺ تَوْضُحُ الْفَرْقِ ، فَنَحْنُ نَتَحَمَّلُ مَشَاقًا بَسِيطَةً وَمَعَ ذَلِكَ يَصِيبُنَا الْمَلَلُ وَالسَّامَةُ ، بَيْنَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَامَلُ مَعَ جُفَاءِ غِلَازِ حَادِي الطَّبَعِ ، وَكَلَّمَا زَادُوا لَهُ أَذَى قَالَ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً . رَبِّ اهُدِ أُمَّتِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » <sup>(١)</sup> كَانَ ﷺ يَدْعُو لَهُمْ رَغْمَ عَظْمِ الْإِيذَاءِ ، بَيْنَمَا لَوْ حَصَلَ لِأَحَدِنَا جِزْءٌ بَسِيطٌ مِنْ ذَلِكَ لَتَأَلَّمَ أَشَدَّ الْأَلَمِ . نَعَمْ ، مَعَ مَلَاخِظَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ، وَلَدَيْهِ سَمَاتٌ وَرَكَائِزٌ فِي شَخْصِيَّتِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَوَافَرَ فِي شَخْصِيَّةٍ غَيْرِهِ ، قَالَ الْأَزْرِيُّ :

قَلْبُ الْخَافِقِينَ ظَهْرًا لِبَطْنٍ      فَرَأَى ذَاتَ أَحْمَدَ فَاجْتَبَاهَا <sup>(٢)</sup>

(١) بحار الأنوار: ١٧ : ٢٧٦ .

(٢) هو محمد كاظم المعروف بـ (الملا) ابن الحاج محمد الأزري البغدادي التميمي . «

أي أنه لا وجود لمثل شخصيته ﷺ، وقال فيه أيضاً:

لست أنسى له منازل قدسٍ قد بناها التقى فأعلا بناها<sup>(١)</sup>

أي أن ذاته ﷺ في قدسها وطهارتها لا مثيل لها ورغم ذلك أمر بالصبر، قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، أي لا بد أن تصبر إذا كنت تريد الوصول إلى نتائج طيبة للرسالة التي بلغتها.

### طلاب العلم والصبر

وعليه فإن طلاب العلوم الدينية إذا أرادوا رفع المجتمع في المجال الثقافي والإيماني، أو في أي مجال من المجالات، فلا بد لهم من التخطيط الدقيق والعمل بكدح وصبر؛ إذ لا يمكن قطف الثمار عاجلاً بل قد تأتي أجيال بعدنا لتقطف ثمار أعمالنا.

### إكمال التعليم للشباب

من المؤسف أن نرى بعض الشباب لا يكمل تعليمه، ويتعلل بأنه لا يقدر أو لا يتحمل ذلك، بسبب موقف مع أستاذ، وأحياناً يتعذر بأعذار واهية، وليس ذلك من سمات الناجحين؛ لأن طريق النجاح ليس مفروشاً بالورد، بل بالشوك، فمن يمشي على الشوك هو من يصل رغم تألمه، ولا يحصل ذلك إلا بالصبر، نقرأ في سيرة العلماء أموراً تدهش العقل من صبرهم وقوة تحملهم وصلابة إرادتهم بمعنى أنه قد يبقى عشرين سنة يشتغل بتأليف كتاب واحد كي يخرج الكتاب غاية في الأتزان والإفادة، بينما نرى بعض الشباب لا يستطيع أن يدرس لمدة سنتين

» ولد في بغداد في ١١٤٣هـ، وتوفي في ١٢١١هـ.

(١) أعيان الشيعة: ٩: ١٧. الأزرية: ٣٢.

أو أربع سنوات ليحصل على شهادة.

إنَّ النبي ﷺ رغم تأييد الله تعالى له أمر بالصبر: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، أي إذا لم تصبر فلن تحصل على نتائج؛ لأنَّ الحصول على النتائج مقرون بالصبر، وتلك سُنَّة كونيَّة، وما أعظم الصبر إذا كان لله تعالى؛ لأنَّه سيختلف عن الصبر من أجل الوصول إلى الهدف لأنَّ الصبر كالعامل، قد يكون للحصول على نتيجة، وقد يكون العمل لله تعالى، عندئذٍ سيكون أثره أعظم، وسينعكس على النفس، وعليه فإنَّ الأذى والتحمُّل والصبر لا بدَّ أن يكون لله تعالى.

### أقسام الصبر في الآية

قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ يشير إلى أقسام الصبر الثلاثة الواردة في الروايات، قال النبي ﷺ: «الصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ: صَبْرٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، وَصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ»<sup>(١)</sup>.

#### الأول: الصبر على الطاعة.

كلُّ طاعة من الطاعات تحتاج إلى صبر، فالصوم يحتاج إلى صبر، وإذا انتفى الصبر فلا قدرة عليه، والصلاة كذلك كصلاة الفجر، بل أنَّ كلَّ مفردات الطاعة تحتاج إلى صبر.

#### الثاني: الصبر عن المعصية.

كثيرٌ من المعاصي التي يجرُّ إليها الشيطان تركها يحتاج إلى صبر وتحمل وضبط للنفس كي لا تقع فيها.

#### الثالث: الصبر على المصيبة والبلاء.

هذا القسم من الصبر جدُّ هام؛ إذ الإنسان بطبيعته مُعرَّضٌ لمأسٍ كثيرة،

(١) الكافي: ٢: ٩١.



وفي الحياة امتحانات عسيرة تمرّ على الجميع لا ينجو منها أحد، فهذا يصاب في ماله، وذاك في نفسه، أو في ولده، أو في صديقه، ويتعرّض لمحنٍ متعدّدة، محنة إثر محنة، ومن لا تصيبه مصيبة اليوم ستصيبه غداً؛ لأنّ الدنيا دار امتحان، قال الإمام عليّ عليه السلام: «دَارُ الْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ»<sup>(١)</sup>، غير أنّ المؤمن إذا أصابته البليّة لن يستطيع أن يقاوم إلا بالصبر حتّى يحفظ نفسه وإيمانه.

إنّ الصبر على البلاء من أروع أنواع الصبر، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ»<sup>(٢)</sup>، فلا قيمة للجسد من دون رأس، كما أنّ العقل والفكر وغيرهما يرتبطان بالرأس، كذلك جلّ محاسن الإنسان ترتبط بصبره، ولن يتحقّق الصبر إلا بقوة التحمّل عند ذلك يصبر على الطاعة ويصبر عن المعصية ويتحمّل البلاء والأذى.

### طريق الوصول للصبر

هناك وسائل وآليات تجعل الإنسان أقدر وأصبر أباؤها الله تعالى في القرآن الكريم، منها: التصبّر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾<sup>(٣)</sup>، بمعنى أنّ المؤمن إذا لم يمكنه أن يصبر في البداية لا بدّ أن يُعوّد نفسه على التصبّر إلى أن يصبح صبوراً، أي يُمَرّن نفسه إلى أن يجعلها تعتاد على الصبر.

الصبر من صفات الله تعالى فهو الصُّبور، سمّي بذلك لأنّه لا يؤاخذ الناس بأعمالهم، بل يتيح المجال للعبد الأبق الخارج عن طاعته إلى أن يؤوب إليه ويحصل على رضاه.

(١) نهج البلاغة: ٢: ٢١٩، الخطبة ٢٢٦.

(٢) قرب الإسناد: ١٥٦.

(٣) آل عمران ٣: ٢٠٠.

## ﴿٨﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ

## معنى النقر والناقور

أي إذا نُفِخَ في الصور، فالنقر في الناقور تعبير آخر عن النفخ في الصور. معنى النقر في اللغة: هو القرع على شيء بإحداث صوت، وأصل النقر هو قرع الشيء المفضي إلى النقب والمنقار ما ينقر به<sup>(١)</sup>، ومن ذلك أُطلق على منقار الطير، لأنه يحدث ثقباً في الشيء الذي ينقره، كالأغذية التي يتناولها الطائر، غير أنه لا يراد به هنا هذا المعنى، وإنما يراد به معنى قريب منه وهو الصوت الذي يحدث تأثيراً في أذن السامع لشدة فكأنه يثقب أذن السامع بدخوله إليها، والناقور هو ذلك الشيء الذي يقرع فيحدث صوتاً، من هنا تجدون النقر في الكنائس للتدليل على إعلان وقت الصلوات فيها كالآذان عندنا وإن كثر عندهم إطلاق القرع. إذن معنى ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾، أي إذا حدث قرع الصوت للنفخ في الصور الذي يترتب عليه البعث ليوم القيامة.

## ﴿٩﴾ فُذِّكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ عَسِيرٍ

## أوصاف يوم القيامة

عبّر الله تعالى عن عالم القيامة بتعبيرات مختلفة، تُدَلِّلُ على عِظَمِ الأَهْوَالِ التي تحدث في ذلك اليوم، من تلك التعبيرات قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾<sup>(٢)</sup>، فهناك شدة وأهوال عظيمة تحدث في

(١) مفردات غريب القرآن: ٥٠٣.

(٢) الحج ٢٢: ٢.

يوم القيامة ، والله تعالى يخبر هنا عن القيامة بوصف ذلك اليوم بأنه يوم عسير ، والعسر يقابل اليسر ، فالأمر السهل يُعبّر عنه باليسير ، والصعب المستصعب يُعبّر عنه بالعسير ، ويوم القيامة فيه من العسر والشدة ما لا يطاق ولا يتحمل لبعض الفئات من الناس ، لهذا وُصف ﴿فَذَلِكَ يَوْمًا عَسِيرٌ﴾ . إن يوم القيامة لا يختصّ عسره بغير المؤمنين بل يشمل بعض المؤمنين ؛ لأن التمحيص يستمرّ بالمؤمن إلى يوم القيامة ، والعسر له مراتب تشكيكية بمعنى أنه يتفاوت في شدته وضعفه ، فبعض العسر يُسر بالنسبة لبعضه الآخر ، كالألوان تتفاوت في الدرجات فاللون الواحد له مراتب ، كذلك العسر له مراتب متفاوتة ومتعدّدة ، أعظم العسر هو ما يحدث للكفار ، ويراد بالكافر من يجحد وجود الخالق تعالى ، أو يتخذ له شريكاً كالصاحبة والولد ، وقد عبّر الحقّ تعالى عن يوم القيامة أنه يوم شدة وعسر خصوصاً على الكفار :

### عَلَى الْكَافِرِينَ عَيْرٌ يَسِيرٌ ﴿١٠﴾

قد يتصور الكافر أنّ العسر في يوم القيامة هو من بعض الوجوه دون بعضها الآخر ؛ إذ الإنسان في العادة إذا أراد أن يتعامل مع غيره تارةً يتعامل بالشدّة وتارةً باليسر ، أمّا هنا فالتعبير القرآنيّ يؤكّد بأنّ العسر والشدّة من كلّ وجه من الوجوه على هذه الفئة من الناس وهم الكفار الذين ينكرون وجود الحقّ تعالى .

### أسباب الشك في وجود الله

الإيمان بالله تعالى مسألة مهمّة في القرآن الكريم بصورها الحقّ تعالى كبديهة من البديهيّات ، بمعنى أنّ الله تعالى له ظهور وتجلّي في الأشياء ، قال تعالى : ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup> . وشكّ الإنسان في وجود الله تعالى لسببين :

(١) إبراهيم ١٤ : ١٠ .

## الأول: انحراف الفطرة

لأن الذنوب والمعاصي تجعل الإنسان يتمادى في غيِّه إلى أن يصل إلى مرتبة من اسوداد القلب تؤدِّي به إلى إنكار وجود الحقِّ تعالى ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١).

## الثاني: شدة ظهور الله

الأمر الثاني الهامّ هو أنّ بعض الأشياء لا يراها الإنسان لا لكونها غير موجودة، بل لشدة وضوحها لا تُرى، فالإنسان إذا ازداد النور على عينيه لا يمكنه أن يرى الأشياء، بل تنعدم الرؤية تماماً لشدة النور، كذلك الصوت إذا ازدادت ذبذبته على الأذن ينعدم سماعه، وعليه فإنّ هناك أشياء لشدة ظهورها تختفي، والحقُّ تعالى وجوده من هذا القبيل، بمعنى أنّه باطن في ظهوره، وظاهر في بطونه، فهو مُظهِر للأشياء ومُقَوِّم لوجودها.

ومسألة فهم الظهور من البطون تحتاج إلى بصيرة، وإزالة القتامة عن القلب، فطهارة القلب تؤدِّي بالإنسان إلى معرفة الحقِّ تعالى، كما أنّ اسوداده -الذي أشرنا إليه- يؤدِّي به إلى أن يبقى غير عارف لوجود الله تعالى، لكن باعتبار أنّ الله هو الفاطر والمبدع للكائنات فأعظم الذنوب هو الكفر والشرك به تعالى، وأشدّ الأشياء التي يؤاخذ العبد بها هو الجحود والنكران لوجوده تعالى، وهي المسألة التي توعّد الله عليها بالعذاب العسير من كلّ وجه من الوجوه.

## سبب تعذيب الجاحد

يمكننا تقريب السبب في تعذيب الكفّار الجاحدين بمثال محسوس، لو كان

(١) الروم ٣٠: ١٠.

هناك شخص أحسنت إليه كثيراً بحيث نشأ وجوده من إحسانك إليه ، ثم أساء إليك غاية الإساءة ، كيف ستتعامل معه ؟ قد تتعامل معه بأشد ما يكون من القسوة لأنه رغم ما قدّمت له من سبل تؤدّي به إلى الخير قابلتك بالسوء ، والحقّ لكونه المنعم المعطي ، وهو الخالق المبدع عندما ينكر المخلوق وجود خالقه رغم ما ينعم به من نعمه يصبح حقيقاً بأن يعامل ذلك المخلوق بأعسر وأشد ما يكون من العقاب أي يعطيه جزاءً يتناسب مع كفره وجحوده وإنكاره لوجود الحقّ ، وقد قربنا المسألة بالإحسان مع المقابلة بالإساءة ، إحسان متناهي وإساءة متناهية ، وكذلك المسألة تشبه الشخص الذي يُسيئ ويعفو ، ثمّ يسيئ فتعفو عنه ، ثمّ يسيئ فتعفو عنه ، وعند تكرار الإساءة ستضطرّ إلى أخذه بالشدّة والعسر .

### الكافر وجحود النعم

وضعت بعض التشريعات الإسلاميّة لمن تمّ العفو عنه ثمّ تمادى في غيّه ، فيعامل بالشدّة ، وكذلك حال الكافر ، لكون الحقّ تعالى أحسن إليه ، فكفر بالنعم باستخدامه لها في المعاصي ، ومضادّة الله تعالى وأوليائه ، لذلك يعامل بغاية الشدّة والسوء في يوم القيامة ﴿فَذَلِكَ يَوْمًا عَسِيرٌ﴾ ، بمعنى أنّه لا سهولة فيه حتّى لبعض المؤمنين ، ولهذا ذكر في الروايات أنّ بعضهم يمرّ على الصراط كالبرق الخاطف ، وبعضهم يمرّ وهو خائف ، وأشدّ حالات المرور على الصراط للكفّار ، حيث لا وجه من وجوه اليسر في القيامة لهم . أمّا في الدنيا فإنّ كلّ الخلق يعيش في النعيم الذي لا حدود له ، بل أنّه لا يدرك ؛ إذ أنّه لا أحد من الخلق خالٍ من نعم الله تعالى ، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بنعمه تعالى عليهم ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (١) .

(١) إبراهيم ١٤ : ٣٤ . النحل ١٦ : ١٨ .

## النعم الإلهية يعرفها من يفقدها

لا يلتفت الإنسان إلى النعمة إلا عند زوالها، حيث يُقدّم جميع ما لديه من أموال وجهود في سبيل استردادها، فمن جمع أموالاً وكان له ولد بصحة وعافية يرخص بجميع أمواله لنجاة ولده عندما يصاب بمرض، أي أنّ المال لا قيمة له عنده بالنسبة لنجاة ولده، وهو على استعداد أن يعيش حياة عادية بل صعبة في سبيل نعمة إعادة الصحة لولده، وهكذا من يصاب في نظره، سيتخلى عن أمواله لاسترداد نعمة البصر. إذن الإنسان يرفل في نعم لا حدود لها، لكنّه يدركها عند فقدها، وقد لا يدرك أكثرها.

إنّ الله تعالى ينبه الناس جميعاً كي يلتفتوا إلى نعمه وآلائه قبل فوات الأوان، وأنّ عليهم أن يشكروه لتستمرّ نعمه بل لتزداد، قال تعالى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾<sup>(٢)</sup>، غير أنّ دوام النعم وبقائها مشروط بأن لا يقابلها الإنسان بالجحود والكفران، بعض النعم تُدرك عندما يتقدّم بالإنسان السنّ، فيُدرك نعمة الشباب ونعمة الصحة، أي أنّه لا يلتفت إلى هذه النعم إلا بعد فوات الأوان، أكثر الناس على هذه الشاكلة، ينسى نعم الله عليه، والنسيان جحود وكفران بمرتبة من المراتب، لذا ينبغي للعاقل أن لا يكفر بأنعمه تعالى، وكلّما تذكّر نعمة أحدث لله شكراً، إمّا بسجود أو بقول: الحمد لله ربّ العالمين.

## علاقة الكافر بالنعم الإلهية

في قبال من يداوم على ذكر النعم وشكرها الكافر، الذي لا يرى لله تعالى نعمة،

(١) لقمان ٣١: ١٤.

(٢) إبراهيم ١٤: ٧.

بل يرى أنّ ما به من نِعَمٍ هو من عنده ، قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾<sup>(١)</sup> ، لا يرى دخلاً للقُدرة الإلهية في النعم التي لديه ، وذلك هو الفارق الأساس بين الكافر والمؤمن ، المؤمن كلّما ازداد إيماناً أدرك نِعَمَ الحقّ تعالى عليه ، والكافر كلّما ازداد طغياناً وكفراً أنكر نِعَمه تعالى عليه ، وهو ما يؤدي به إلى سوء العذاب . إذن إيمان المؤمن يؤدي به إلى الشكر ، وكفر الكافر يؤدي به إلى الجحود والطغيان والبعد عن الحقّ تعالى ، ويترتب عليه العذاب الشديد في الآخرة ﴿ فُذِّلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ \* عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ .

### ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴿١١﴾

#### شخصية الوليد بن المغيرة

قال المفسرون<sup>(٢)</sup> : إنّ هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة - والد خالد بن الوليد - كان شخصية كبيرة من شخصيات قريش ، منحه الله تعالى سعة في المال وكثرة في الولد ، وأعطاه مواهب متعدّدة ، من جعلتها فهم أسرار العربية حيث كان الشعراء والأدباء يحتكمون لديه عند اختلافهم في فهم أسرارها ، وكان رجلاً عملاقاً من حيثيات متعدّدة وجهات كثيرة ، فهو يملك أموالاً طائلة وهبه الله تعالى إيّاها ، ولديه كثير من الخيول والإبل وغير ذلك ، وأولاده لكونه توافرت الثروة لديه لم يكونوا كسائر الناس يذهبون عنه بعيداً في طلب الرزق ، بل هم بين يديه دائماً يستأنس بهم ويدخلون عليه السرور ، ومن كان مثله في الثروة والمال والجاه ولديه قدرات ذكائية من الطبيعي أن يعلم أولاده الفنون والمهارات المختلفة ، لذا كان ابنه خالد من الشجعان ، وبقية أولاده عندهم قدرات كبيرة لتوافر الثروة

(١) القصص ٢٨ : ٧٨ .

(٢) تفسير مجمع البيان : ١٠ : ١٧٨ .

والجاء بالإضافة إلى قدرات في الشعر والأدب ومهارات أخرى .  
 أبان نزول الرسالة كان الوليد بن المغيرة شيخاً كبيراً تجاوز السبعين من عمره  
 وما زال محتفظاً بقوّته وقدراته الذهنيّة والعقليّة والفكريّة والأدبيّة ، شخص بهذه  
 المثابة لا بدّ أن يطغيه المال في العادة ، المال وحده يُطغي فكيف إذا توافر معه  
 الجاه والبنين ، وما إلى ذلك من الأمور الأخرى التي يسند بعضها بعضاً ، هذه أشياء  
 تدعوه إلى طغيان أكثر ، لذا لما اصطفت قريش في محاربة النبي ﷺ ، كانت  
 تخاف من الوليد أن يميل إلى الإسلام لاحترافة في الأدب ، فقد تصدر منه كلمة  
 في شأن القرآن أو في شأن النبي ﷺ تُرّجح الكفّة لصالحه ﷺ ، وبالفعل هذا ما  
 حصل ، فقد حاولوا منع الوليد من الاستماع إلى القرآن الكريم خوفاً من تأثره ، وفي  
 يومٍ أراد الوليد أن يستمع إلى النبي ﷺ وهو يتلو القرآن في المسجد الحرام  
 حيث نزل عليه ﴿حَمْدٌ مِّنْ نَّبِيِّ لَكَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ \* غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ  
 التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ (١) ، وعلم النبي ﷺ  
 أنّ الوليد يستمع فأعاد تلاوة آيات القرآن ، ومن المعلوم أنّ آيات القرآن تؤثر في  
 الشخص العادي فكيف بمن لديه فهم عميق لأسرار العربيّة .

### موقف الوليد من دعوة النبي

رُوي أنّه مرّ بالنبي ﷺ وهو يقرأ حم السجدة فأتى قومه وقال : قد سمعتُ من  
 مُحَمَّدٍ ﷺ أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس والجنّ . إنّ له لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ،  
 وإنّ أعلاه لمثمر ، وإنّ أسفله لمغدق ، وإنّه ليعلو ولا يُعلى ، فقالت قريش : صبأ  
 الوليد .

فقال ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فقعد إليه حزينا وكلمه بما أحماه ،

(١) غافر ٤٠ : ١ - ٣ .



فَقَامَ فَنَادَاهُمْ فَقَالَ: تَزْعُمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْنُونٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يُخْنَقُ؟ وَتَقُولُونَ: إِنَّهُ كَاهِنٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَتَكَهَّنُ؟ وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَاعِرٌ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَتَعَاطَى شِعْرًا؟ فَقَالُوا: لَا.

فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا سَاحِرٌ. أَمَا رَأَيْتُمُوهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَهْلِيهِ، وَوَلَدِهِ وَمَوَالِيهِ، فَفَرِّحُوا بِهِ وَتَفَرَّقُوا مُسْتَعْجِبِينَ مِنْهُ» (١).

وما ذكره هو وصف القرآن - وإن كان لا يصل كلامه إلى الوصف الكامل الشامل للقرآن؛ لأن القرآن أعظم من ذلك بكثير، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢)، أي أن الجبال تتصدع من تلاوة القرآن، فما بالك بشخص عنده قدرات كبيرة في فهم أسرار الأدب العربي، وكان كلام الوليد في حق القرآن جعل الناس تتأرجح، ثم تراجع عن وصفه للقرآن وطعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه ساحر، وأخذ الإعلام المضلل للحقائق يتناقل كلمته، ويشيعها بين الناس، وللإعلاميين قوانين من جملتها تكرار الكذب كي يصدقه الناس؛ لأن أكثر الناس لا يراجع ولا يقارن حتى يتعرف على الحق والصواب ويفرق بينه وبين الباطل.

نعم، قليل من الناس يمكنهم الوصول إلى الحقائق، غير أن الأغلب إمعة يسمع ويصدق، وإذا لم يكن إمعة فهو لا يمتلك قدرة فكرية تدعوه للتمييز بين الحق والباطل؛ لأن القليل من الناس لديه العلم والفهم والارتباط بالله تعالى، أما أكثر الناس فهم يتأثرون بالإعلام، ولننظر إلى الإعلام في عصرنا الحديث كيف يقرب الحقائق ويحوّل الحق إلى باطل، ويجعل الناس لا يقدرّون على التمييز بينه وبين الباطل، والأمر كذلك في عصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث اتهم بالسحر، فاعتم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذلك،

(١) بحار الأنوار: ٩: ١٦٧.

(٢) الحشر: ٥٩: ٢١.

وتأثر كثيراً .

### الوليد يمنع الناس من قبول الدعوة

كان بإمكان كثير من الناس أن يهتدوا إلا أنّ الوليد شكّل حاجزاً سميكاً ومانعاً كبيراً ، بل إعلاماً مضاداً ، فأنزل الله تعالى الآيات تسلية لرسوله ﷺ وتخفيفاً لألمه ، والآيات ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً\*...﴾ تخاطب النبي ﷺ أن يترك هذا الشخص لله ؛ لأنه تعالى قد خلقه وحيداً ، وهو المتكفل به لكونه الخالق المبدع وبيده ملكوت الأشياء ، وإذا كان هذا الرجل قد قام بعمل سيئ للغاية ، فلن يضرّ ذلك دعوة النبي ﷺ ، هذا الأسلوب القرآني له فوائد متعدّدة منها : نفي الغم عن النبي ﷺ .

### معنى الوحيد في الآية

قوله تعالى : ﴿خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ إمّا بيان ووصف لله تعالى ، بمعنى أنّه الخالق وحده لا شريك له وهو الكافي للنبي ﷺ ، وإمّا وصف للوليد حيث إنّه أصبح وحيداً فيما أعطي ، وقد كان يعبر عن نفسه أنّه الوحيد ابن الوحيد<sup>(١)</sup> ، وكان أبوه أيضاً وحيداً في قدراته وأمواله وفي ثرائه وأولاده ، جعله الله تعالى وحيداً فيما أعطاه من أموال لكنّه رغم ذلك آذى النبي ﷺ فأمره الله تعالى بتركه .

ويمكن أن يكون المراد كلا المعنيين ؛ إذ لا مانع أن يستخدم القرآن الكريم وصفاً واحداً ويشير به إلى معنيين ، ولعلّه من الاستخدام في البلاغة ، وإن كان بعض الأصوليين لا يقبل ذلك ، ويرى أنّ اللفظ الواحد لا يستخدم في أكثر من معنى واحد في وقت واحد .

(١) تفسير القرطبي : ١٩ : ٧١ .

## حقيقة معنى الوحيد

والصحيح أنه يمكن أن يكون اللفظ الواحد يشير إلى معنيين فتصبح لفظة ﴿وَحِيداً﴾ إبانة؛ لأن الله تعالى خلقه وحده لم يشاركه أحد في خلقه، وأعطاه وحده أيضاً لا شريك له في ذلك، ويمكن أن تكون لفظة ﴿وَحِيداً﴾ وصفاً للوليد لكونه أوتي ما لم يُؤْتَهُ غيره، ثم إن سلسلة نسب الوليد هي الوليد بن المغيرة بن أبي مخزوم، ولا يتكلم المفسرون في سلسلة آباءه، فهو وحيد في قدراته وفي ثروته وجاهه ليس له نظير، وليس المراد من كونه وحيداً من ناحية تولده من الحرام كما في بعض المعاني المروية التي ذُكرت لهذه الآية، لذا لم يُشر المفسرون إلى هذا المعنى، ولعل البعض يحتمل هذا المعنى، لكن هو من المعاني البعيدة جداً، إلا أن يكون واقعاً مخفياً عن الناس فكشفه الوحي.

## وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً ﴿١٢﴾

## المال الممدود

أُضح أن معنى المال الممدود هو السعة في المال، أي له ثروات متعددة.

## وَبَيْنَ شُهُوداً ﴿١٣﴾

## ماهية البين الشهود

أي أن أبناءه في محضره، كبعض الملوك وبعض الوجهاء لديهم أحماء وأصدقاء بجانبهم دائماً، يخدمونهم ويقومون بشؤونهم، ويختلف شعور المخدوم، حيث إن خدمة الغير حتى وإن كان من المحبين تختلف عن خدمة الابن؛ إذ لها رونق وطعم خاص، وقد عبّر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في خطابه لابنه الحسن عليه السلام بقوله:

« وَجَدْتُكَ بَعْضِي ، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي »<sup>(١)</sup> ، فهناك ارتباط وأنس وعاطفة جيّاشة تربط بين الأب وابنه ، وعندما يحيط الأبناء بأبيهم ويلبّون له ما يدور في خلدته ، خصوصاً إذا كان بعضهم له ذكاء وفطنة يعلم ما يحتاجه الأب دون أن يتفوّه بشيء ، أي يقرأ أفكار والده ، ويلبّي له ما يريد ، عندئذٍ تكون سعادة الأب في أتمّها ، وقد كان الوليد لديه عشرة أبناء ، وكانوا بمحضره دائماً ، يلبّون ما يريده ، فعاش بحالة من الشعور بالراحة والسعادة .

### قِصَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ فِي بَرِّ الْوَالِدَيْنِ

زرت إحدى الشخصيات الثرية في إحدى الدول ، وكان كبيراً في السن ، وعنده أبناء بارين له ، فتعجّبت من برّ أبنائه به ، حيث كان برّاً غير طبيعي ، وأول مرّة أشاهد في حياتي هذا البرّ ، فكان الأب إذا أراد القيام يقوم بعض أبنائه بخدمته ويقف إلى جنبه ، وكان أبنائه أيضاً أثرياء ومؤدّبين ، وعندهم قدرات كبيرة ، وكانوا يتسابقون في خدمته ، وبالرغم من أنه كبير في السنّ قد تجاوز عمره التسعين سنة ، وكان يصعب عليه القيام والقعود ، إلا أنّ المستوى الرفيع من العناية الفائقة به جعلته يعيش حالة من الأُنس والراحة والاطمئنان ، لإحاطة أبنائه به إحاطة السوار بالمعصم ، وتلبية ما يتوق إليه . والتعبير القرآني ﴿ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴾ يُصوّر هذه الحالة من الأُنس التي تُدخل السرور على الأب .

### وَمَهَّدَتْ لَهُ تَمَهِيدًا ﴿١٤﴾

#### تيسير الأمور لطف إلهي

أي يسّرت الأمور له ، وعبّدت الطرق كالمهد للطفل ، وهو مكان راحته وأنسه ،

(١) بحار الأنوار: ٧٤ : ١٩٩ .

أبان الله تعالى أنه جعل الأمور ميسرة ومعبّدة وسائغة وهنيئة للوليد، كما نرى ذلك لبعض الناس إذ يرافقه التوفيق، حيث إن خطاه يتحوّل إلى صواب نتيجة التوفيقات التي تحيط به من كل مكان. نعم، ذلك يرجع لحكمة إلهية ومصالح ربّانية، والله تعالى يعطي من يعطي لحكمة ويمنع من يمنع لحكمة، ورغم هذه النعم التي أغدقها الله تعالى على الوليد، لكنّه لم يستفد منها، بل على العكس أوجبت له البعد بدلاً من القرب والحظوة من الله تعالى، حتّى أصبح أبعد ما يكون عنه تعالى. إن المال والجاه والنعم الإلهية تحتاج إلى ميزان دقيق كي يستفيد منها الإنسان، لأنّها إمّا أن تورث القرب أو توجب المقّت والسخط.

### ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾

#### الطمع في ذات الإنسان

أي يطمع أن يزيده الله تعالى أكثر ممّا أتاه من المال والولد والقدرات الأخرى، قال أمير المؤمنين عليه السلام: « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ دُنْيَا، وَطَالِبُ عِلْمٍ »<sup>(١)</sup>. إذا تعلق الإنسان بالأموال في الحياة الدنيا فسيبحث عن الزيادة، ولا بدّ من الانتباه من مغبّة ذلك؛ إذ أنّ الزيادة في الأعم الأغلب تؤدّي بالإنسان إلى الهلاك، لكونه يتحوّل إلى عبدٍ للمال؛ لأنّ المال إمّا أن تستفيد منه فيتحوّل إلى وسيلة وخادم لصاحبه، وإمّا أن تخدمه أنت فيزداد ويكثر ويتحوّل صاحبه إلى عبد له يداريه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: « الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ »<sup>(٢)</sup>، فكّما ازداد العلم شكّل حصانة عن الوقوع في المتاهات فهو حارس، أمّا المال فكّما ازداد احتاج للحفاظ عليه والتفكير الدقيق لئلا ينقص، والسعي نحو استثماره

(١) الكافي: ١: ٤٦.

(٢) تحف العقول: ١٧٠.

بطرق متعدّدة، فيحوّل المألّ صاحبه إلى عبده له، وكلّما زاد المال زاد الطمع، الذي يجزّ صاحبه إلى عواقب غير حميدة، من جملتها زوال نفس المال وفناؤه، ولعلّ طمع الوليد من هذا القبيل، فكان يطمع أن تزداد أمواله ويكبر جاهه وتعلو منزلته، ولكنّه سلك طريقاً سيئاً، أدّى به إلى الهلاك.

إنّ خوف الوليد من النبي ﷺ يرجع إلى خوفه على المركزيّة التي لديه؛ إذ هو من الشخصيّات الكبيرة كما أسلفنا، بل كان الشخصيّة الأولى في قريش؛ لأنّ قبيلة بني مخزوم التي ينتمي إليها الوليد تعتبر من الطبقة العليا، والمجتمع القرشيّ معروف بكونه يتشكّل من طبقات، هناك الهاشميون وهم الطبقة الأولى، وبني مخزوم بعدهم في الفضل، لتمكّنهم اقتصادياً وفصاحتهم وشجاعتهم، ثمّ تأتي الطبقات الأخرى بعدهما كبنو زهرة وبقية القبائل كالأمويين.

الوليد من بني مخزوم، ممّن لهم وجاهة ومقام، ولعلّه لذلك لم يقبل بما جاء به القرآن في دعوته إلى العدل وإنفاق المال في سبيل الله تعالى، والدعوة إلى العدالة الاجتماعيّة والمساواة، لخشيته على مركزه، أصحاب النفوذ والمراكز يخشون كثيراً على مراكزهم ونفوذهم، وهذا ما حدث للوليد، فاندفع نحو مضادّة القرآن ومحاربة الرسول ﷺ، حفاظاً على نفوذه وخوفاً من تغيير الموازين في المجتمع إذا أسلم؛ إذ قد يتحوّل إلى شخصيّة عادية، بينما كان يطمع أن يزداد نفوذه أو على الأقل أن يحافظ على مركزيّته، ليس لديه استعداد للتضحية بالمنصب والجاه العريض والأموال التي لديه، فجرّه الطمع إلى محاربة النبي ﷺ ومضادّة القرآن ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾.

### سبب صدور الطمع

الطمع هو نتيجة للجهل، وعدم العلم بالعواقب، وعدم تقدير الأشياء وفق الحكمة، فمن يطمع في زيادة رصيده وجاهه قد يتحوّل طمعه إلى وبال عليه،

وكان الوليد كذلك .

## كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾

### مزلق العناد واللجاج

اتخذ الوليد اللجاج والمعاندة في رفض رسالة المصطفى ﷺ، هناك مشكلة هي أن بعض الناس ليس لديه سهولة ومرونة لسماع الطرف المقابل؛ لأنه يتمسك برأيه وإن عرف خطئه وصحة الرأي المضاد له، بل أن لديه استعداداً أن يدخل جهنم في سبيل الحفاظ على رأيه، ذلك العناد هو أعظم داء يصاب به الإنسان، فيجعله يجانب الصواب ويتعد عن الحق ولا يقبله، من هنا حُضت الروايات الإنسان على المرونة والتواضع .

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ مِنَ التَّوَّاضِعِ... وَأَنْ يَتْرُكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»<sup>(١)</sup>.  
وهناك روايات أكدت على أهمية الأخذ باليسر والسهولة .

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ، مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»<sup>(٢)</sup>، ذلك أن الملاججة والمعاندة قد تؤدي بالإنسان إلى السوء .

وقال النبي ﷺ: «إِيَّاكَ وَاللَّجَاجَةَ، فَإِنَّ أَوْلَهَا جَهْلًا، وَأَخْرَهَا نَدَامَةً»<sup>(٣)</sup> هذا واقع اللجاج: جهل أو ندامة، والعاقل يدع ذلك لله حتى وإن كان الحق معه؛ لأن ذلك سيمنحه الكثير من الميزات والعطايا والهبات .

(١) معاني الأخبار: ٣٨١ .

(٢) الكافي: ٢: ١١٩ .

(٣) بحار الأنور: ٧٤: ٦٧ .

## النبيّ تجسيد للرفق

يحوي اللجاج الغلظة والصلافة وعدم الاستعداد لاستماع غيره، أو جعل النفس في رتبة من يغايره، وهنا تكمن فداحة خطر اللجاج، لذا أبان القرآن الكريم تميّز شخصيّة النبيّ ﷺ وخلقها من ما يستبطنه اللجاج من الغلظة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾<sup>(١)</sup>، هو ﷺ أكمل الخلق، ولديه مبدأ تربويّ هو المرونة والسهولة مع أعدائه، فضلاً عن المحبّين له، وكان ﷺ يتميّز بالسهولة والموضوعيّة، وقد خاطب الكفّار بقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٢)</sup>، فلم يقل لهم: نحن على الحقّ وأنتم على باطل، بل احترم الطرف المقابل، لذا أمره الله تعالى بالحوار على أسس رصينة وقواعد متينة، أهمّها البراهين والأدلة، كي يتبعها المنصف حيث تأخذه إلى الحقّ، وذلك جدّ هامّ للإنسان الذي يتعامل على وفق ضوابط وأسس تجعل غيره يرعوي إلى الصواب ولو بعد حين ويترك الباطل. إذن من أراد إيضاح الحقيقة لأحد فإنّ عليه أن يتخذ المرونة أسلوباً، وأن لا يدخل في صراع ولجاج معه، بل عليه أن يحترمه انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٣)</sup>.

## المراء يحجب عن الحقّ

من أسوء الصفات التي تحجب الإنسان عن الحقّ المراء والمجادلة، قال الإمام الكاظم عليه السلام: «إِنَّ الزَّرْعَ يَنْبُتُ فِي السَّهْلِ وَلَا يَنْبُتُ فِي الصَّفَا، فَكَذَلِكَ الْحِكْمَةُ تَعْمُرُ فِي قَلْبِ الْمُتَوَاضِعِ وَلَا تَعْمُرُ فِي قَلْبِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ التَّوَاضِعَ

(١) آل عمران ٣: ١٥٩.

(٢) سبأ ٣٤: ٢٤.

(٣) سبأ ٣٤: ٢٤.



آلَةَ الْعُقَلِ»<sup>(١)</sup>، أي أنّ الحكمة لا تنبت في الصلْد والصلف، وإنّما تنبت في السهل، وهو مكان المرونة وقبول الحقّ، أي أنّ من ليس له استعداد لسماع رأي غيره فلن يصل إلى الصواب.

### النبيّ مصداق التواضع

خاطب القرآن الكريم النبيّ ﷺ ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وهو طلب من الرسول ﷺ أن يتعامل مع المؤمنين بالرفق والمرونة، وأن لا يجبرهم على شيء، ومن ذلك نفهم أهميّة أن يُربّى الغير على الاحترام، كي يسير على الصراط المستقيم؛ لأنّ احترام رأي الغير وجعله في نفس الرتبة عند الحوار يؤثّر إيجاباً على قبوله للحقّ، غير أنّ هناك بعضاً من الناس إذا وصل إلى مناصب أو مقامات يرى من خلالها أنّه على الحقّ وأنّ غيره على الباطل.

إنّ علينا أن نلتفت أنّه مهما كان الآخر لن يكون لديه استعداد لسماع الحقّ أو التحوار إذا ازدري أو قلل من قيمته.

### التعامل قائم على القيم والأخلاق

قد ينظر بعض الناس أنّه ليس بحاجة للطرف الآخر وأنّ الآخر هو المحتاج، وذلك منطوق بجانب الصواب؛ لأنّ التعامل في الجانب الإنساني لا يقوم على الاحتياج والمنفعة، بل يقوم على القيم والأخلاق واحترام شخصيّة الآخر، ممّا يتطلّب التواضع والمرونة في التعامل، هذه مبادئ جدّ هامة في الوصول إلى الحقّ، قال الإمام عليّ عليه السلام: «مَنْ كَثُرَ مِرَاؤُهُ بِالْبَاطِلِ دَامَ عَمَاؤُهُ عَنِ الْحَقِّ»<sup>(٣)</sup> أي أنّ هناك

(١) بحار الأنوار: ١: ١٥٣.

(٢) الحجر ١٥: ٨٨.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ٤٥٧.

حجاباً سميكاً بين الباطل والحقّ، لا يستطيع أحد أن يأخذ بالحقّ إذا كثّر عناده ولجأه، قال الله تعالى: ﴿كَأَلَا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَيْنِدًا﴾، بل أنّ الله تعالى سيبيعه عن الحقّ.

### سَأْرَهْقُهُ صَعُودًا (١٧)

إنّ جزاءه لعناده أن يبتعد عن الحقّ ويتمسك بآرائه البالية، والوليد أصبح ضعيفاً لأنّه دخل في عمليّة تحدّ صارخ للحقّ تعالى، فجعل الله تعالى القدرات والمنح التي امتنّ بها عليه لا تصبّ في صالحه، بل تضادّه ويرهق بها، ﴿صَعُودًا﴾ الإرهاق هو الإعياء والتعب، لكن الإعياء والتعب على درجات، منها: أن يكون الإعياء كالصعود لمرتفع شاهق، بمعنى أنّ التعب سيتصاعد درجة درجة تجاه الوليد ﴿سَأْرَهْقُهُ صَعُودًا﴾، من يصعد جبلاً يتعب شيئاً فشيئاً، كذلك عذاب الوليد سيكون بشكل تدريجيّ، يزداد به إرهاقاً وتعباً بعقبات لا حدود لها؛ لأنّ الله تعالى إذا حارب شخصاً فلن يستطيع أحد أن يقف أمامه، وإذا أراد الخير لأحد سهل أمره، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

إذن توضّح الآية أنّ الوليد يزداد بعداً عن الحقّ وفهم الواقع، لمروره بإرهاق تصاعديّ، وبإعياء بعد إعياء.

قال المؤرّخون: إنّ حاله بعد نزول الآية كان من ضعف إلى ضعف آخر إلى أن تلاشى كلياً (٢)، ذلك أنّ من يضادّ الحقّ يواجهه الله تعالى الذي بيده ملكوت كلّ شيء.

(١) الأنعام ٦: ١٢٥.

(٢) تفسير النسفي: ٤: ٢٩٥.

## إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾

### التفكير السلبي

عناد الوليد يقوم على أسس أوضحها القرآن في هذه الآية ، فقد دخل في عملية تفكير وتأمل دقيقة من خلال ما لديه من معلومات ومقارنة للتوصل إلى مطلب يرتب عليه أثره ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ قَدَّرَ: بمعنى وضع تقديراً وتخطيطاً للتوصل إلى نتيجة ، وعملية التفكير كالعلم سلاح له حدان ، العلم والمال والسيف وغيرها أمور يستفيد منها الإنسان في الخير والسوء ، فقد يفكر المرء بما يعود عليه بالوبال على نفسه أو على الآخرين ، وعملية التفكير التي توصل إليها أوضحت أنه كان يقارن بين القرآن وغيره من أساليب الكلام ، فتوصل إلى إعجازه ، غير أنه لم يدعن لمنطق عقله واتبع هواه ، محاولاً أن يخرج من مأزقه باتهام النبي ﷺ أنه ساحر ، فهو ﷺ ليس بشاعر لأن الوليد يعرف الشعر ، بل هو حجة في التحكيم بين الأدباء والشعراء ، فقد كانوا يحتكمون لديه ، والنبي ﷺ ليس بكاهن ؛ لأن أقوال الكهنة لا تتفق مع ما يفصح عنه القرآن الكريم ، فما بقي إلا أن يتهم النبي ﷺ بالسحر ؛ لأنه يفرق بين الأب وابنه ، وبين الصديق وصديقه ، وبين المرء وزوجه ، فقد يسلم الزوج ولا يسلم الزوجة ، والعكس صحيح أيضاً . إذن هناك تفريق بين الاثنين وهو عمل السحرة الذين يفرقون بين المرء وزوجه ، والصديق وصديقه ، إذن فمحمد ساحر . والتفكير الذي أوصله إلى هذه النتيجة جعل المجتمع القرشي بأكمله من المعارضين للنبي ﷺ يتبنون كلام الوليد في كون النبي ﷺ ساحراً ، فشكّل عقلاً جماعياً في إطلاق هذا الوصف على النبي ﷺ .

### التفكير الإيجابي

دعا القرآن الكريم إلى التفكير الذي يبني على أسس وقواعد تقود المتأمل

والمفكر إلى طريق الخير والابتعاد عن السوء ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) ، فلا يضع العاقل خططاً تؤدّي به إلى الهاوية أو بمجتمعه الذي يعيش في كنفه إلى ذلك ، بل يضع ما يؤدّي إلى الرقي والرفعة .

### الخطر الفكري للوليد

أما الوليد فقد كان تفكيره عكسياً ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ ، أي أمعن النظر ووضع خطة مُقدّرة ، خلاصتها: أن يتحدّى العرب إذا سألوه فيجيبهم بقوله: نحن نمثّل الذين لهم قيمة ؛ لأنّ قريش تمثّل المجتمع الراقي والطبقة العالية ، والعرب تأتي لتسألهم عن رأيهم في الرسول ﷺ ، فوضع لهم خطة يتمّ الاتفاق عليها حيث لا يقال عن النبيّ أنّه شاعر ، ولا كاهن ، ولا مجنون ، ولا كاذب ، بل يقال أنّه ساحر ؛ إذ لو قيل أنّه مجنون فلن يصدّق الناس بذلك ، لكون المجنون لا يمتلك القدرات الكبيرة التي لدى الرسول ﷺ ، وليس بكاذب لأنّه الصادق الأمين ، وليس بشاعر لاختلاف الشعر عن القرآن ، ولم يتخذ الكهانة فيخبر عن المغيبات من خلال اتّصاله بالجنّ ، وإذا بطلت تلكم الأوصاف فليس هناك وصفٌ للنبيّ ﷺ تجتمع عليه كلمة قريش بل العرب إلّا أنّه ساحر ، وهذه طريقة إعلاميّة لحرف الرأي العامّ باتجاه معيّن ، وهو ما يقوم به الإعلام الحديث ، فإنهم إذا أرادوا أن يُدمروا شخصيّة مؤثّرة علمائيّة أو إصلاحيّة اجتماعيّة يقومون بإثارة دعاية على ذلك الشخص إلى أن يشكّلوا عقلاً جمعياً ضده ، حيث لا يستطيع أحد أن يأخذ شيئاً منه ، وهذا الأسلوب المدروس ناتج عن عمليّة تفكير وإمعان نظر ، لكنّ الله تعالى يرتّب عكس ما يفعله المبطلون ، قال تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٢) .

(١) الأنعام ٦ : ٥٠ .

(٢) آل عمران ٣ : ٥٤ .

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾<sup>(١)</sup>، والأمر هنا كذلك، فإن الوليد فكّر وقدّر غير أنّ تفكيره لم يؤدّ إلى إبعاد الناس عن الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾<sup>(٢)</sup> والنبي ﷺ منصور مؤيّد ورسول مسدّد.

### فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾

#### نهاية تخطيط الوليد

أنّ عملية تدبيره وتخطيطه أودت به إلى الهلاك، وعلوّ وارتفاع شأن النبي ﷺ والرسالة، فكان تدميره في تدبيره، ولم يعد عليه تدبيره إلا بالضرر.

### ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾

توكيد قرآنيّ شبيهه بقولنا: فلان مات وقُتِلَ، فيكون القتل من جهة أخرى مثل ذهاب أمواله أو أولاده أو ذهاب نفسه وبقاء دعوته، كذلك الأمر هنا في الآية، فالمطالب التي كان يقولها الوليد وطريقة تفكيره وتقديره، والمنهج الذي سار عليه كان في كلّ ذلك تدمير شخصيته، ومعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي لم يبق وجه من وجوه النجاة إلا وقد كُسر وتحطّم، فسارت الأمور بنحو عاد على الوليد بالوباء والوبال، ولم يبق له نافذة أمل يستطيع من خلالها أن يرى خيراً، وكلّما أراد أن يخرج من ظلمة وقع فيما هو أشدّ منها، وذلك حال من يفكّر في محاربة الحقّ تعالى، فإنّه يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

(١) الحجّ ٢٢: ٣٨.

(٢) الإسراء ١٧: ٨١.

## الوليد وآلية التفكير

كان الوليد يضع خططاً استراتيجية للوصول إلى أهدافه ، ولديه فهم للأساليب والوسائل التي تحوّل ما يفكر به إلى برامج عمل ، وعنده مهارة في فهم الوسائل والآليات التي تؤدّي به إلى الوصول إلى نتائج تفكيره ، لذا أشار القرآن إلى هذه الحقيقة :

## ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾

النظر يستخدم على قسمين : تارةً بمعنى الفكر وأخرى بمعنى البصر ، والتعبير هنا ناظر إلى الآليات ، قال بعض المفسرين<sup>(١)</sup> : إنّه فكرٌ وأمعن في فكره ، وقدّر الأمور ، ووضع الخطط ، ثمّ سعى جاهداً للبحث عن أنجح الوسائل للوصول إلى مآربه ، فتوصّل أن يجمع العرب والمناهضين للنبي ﷺ على كلمة واحدة ، حيث جعلهم يتفقون على رأي واحد في وصفهم للنبي ﷺ بأنّه ساحر .

وصول الوليد إلى هذا الاتفاق دُلّل على قدرة كبيرة من التفكير والتخطيط ، وذلك من أعظم الأمور التي تؤدّي إلى النجاح ؛ إذ أنّ العرب إذا لم تتفق ضدّ النبي ﷺ سيضعفون في العادة ، فجمع الوليد شتات المتفرقات تحت اطار واحد ، بحيث إذا سُئل أيّ شخص عن القرآن فسيكون الجواب بأنّ محمّداً ساحراً ؛ لأنّه يفرّق بين الحبيب وحبيبه ، وبين المرء وزوجه ، وبين الصديق وصديقه ، وذلك نتيجة لنظرة الوليد الدقيقة وإلى الأساليب والوسائل التي استخدمها كي تؤدّي به إلى الوصول إلى ما يبتغيه في تنفيذ الخطة والتغلب على القرآن الكريم .

(١) انظر : الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور : ٤ : ١٠٦ . البداية والنهاية : ٣ : ٧٩ . سيرة ابن

إسحاق : ٢ : ١٣٢ .

## ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾

## معنى العبوس

عبس من العبوس ، وهو التقطيب بالوجه ، يقال : عبس يعبس عبساً ، أي قطب ما بين عينيه<sup>(١)</sup> ، والعباس صيغة مبالغة لمن يقطب وجهه ، ويظهر أن ذلك شيئاً جميلاً في الحرب وفي أوقات الشدائد ، فكأن الإنسان يُظهر حزماً وبأساً في أوقات الشدة ، ولا يظهر متراخياً ، بل يظهر بشدة وبأس كي يصل إلى ما يريد ، وحال الوليد كذلك ، فبعد أن فكّر وقدّر ثم نظر ، عبس ، أي أظهر أمام الجميع أنه في موقع تنفيذ ما خطّطه وأقدم عليه بشدة وبأس وقوة وشكيمة .

## معاني البسر

أما (بسر) فله معنيان :

**الأول :** تغيير لون الوجه<sup>(٢)</sup> ، أي أن لون الوجه يصبح باسراً ، ويعبر عنه لدى الأحسائيين : باحتقان الوجه ، وهو أن يصبح الوجه مكفهراً .

**الثاني :** العجلة<sup>(٣)</sup> ، بمعنى أن الوليد بعد أن فكّر وقدّر ، ثم نظر ، ثم عبس ، استعجل في تنفيذ خطّته يريد التغلب على القرآن ، فلم يتوانى ولم يتريث ، بل بمجرد أن وصل إلى نتيجة تفكيره سارع في وضع الخطّة كي ينفذها من دون تأخير ، وكلا المعنيين له مدلول خاص ، فإذا كان (بسر) بمعنى اكفهراً في وجهه فذلك يعني أنه أظهر للآخرين حزمه وجدّه في الوصول إلى محاربة القرآن ، لذا تأثرت قريش برأيه وأخذت به ، رغم أنها اتخذت رأياً آخر قبل ذلك ، فقد انقسمت إلى قسمين :

(١) لسان العرب : ٦ : ١٢٨ .

(٢) و (٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ١٩ : ١٦٩ .

الأول: يرى أنّ القرآن شعر، والثاني: يعتبره سحراً، لكنّ الوليد غير قناعاتهم بحزمه وعدم تردّده في رأيه، بالإضافة إلى كونه حجّة في فهم كلام العرب والشعراء، فعندما قال إنّ القرآن سحر، قبل قوله لدى أتباعه لكونه حجّة.

### ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾

#### معنى الإدبار والاستكبار

معنى أدبر: رجع إلى الوراء، فالإدبار خلاف الاستقبال. يقال: أدبر عن الشيء بمعنى أعرض عنه، وأدبر عن الشيء بمعنى أعرض عنه واتّجه في الطريق المقابل له، أي اتّخذ الطريق المضادّ له، ولعلّ المعنى الثاني أقرب.

والاستكبار له معنيان:

الأول: الاستعلاء على شيء.

الثاني: الاستعلاء والجحود.

فقد يجحد المستكبر الحقّ رغم علمه بصحّته، لكنّه يحاول أن يجحده، ونلاحظ هنا أنّ الطريق للمعاداة والمضادّة مع شيء له أساليب مختلفة، فمن لا يريد شيئاً تارةً يستكبر عليه فلا يأبه به ولا ينظر إليه، وأخرى يتّخذ أسلوباً مضاداً له ويعرض عنه، وهذا أكد في الإعراض، وهنا إذا اتّخذ المرء كلا الأمرين، أي أدبر بمعنى أعرض واتّخذ المسار المضادّ ومع ذلك كان مستكبراً فحينئذٍ يصبح في قمّة المعاداة لما يضادّه، ولن يهتدي إلى الصواب ولن يصل إلى الحقّ بأيّ وجه من الوجوه.

#### توجيه أخلاقيّ في الآية

في تعبير الآية بلاغة متناهية، تُعطي درساً أخلاقياً نستفيد منه، من جهتين: الأولى: أنّ الإنسان يستطيع أن يهتدي إلى الصواب ويعرف الحقّ إذا لم يدبر عنه



معرضاً، بل لديه نظر إلى الحقّ، أمّا إذا أدبر فلا يمكن للمدبر عن الشيء أن يرى حقّانيته.

**الثانية:** أنّه لا يمكن أن يهتدي الإنسان إلى الصواب إذا استكبر، فلا استكبار يمنع من الوصول إلى أيّ هدى، وتنسّد جميع منافذ الخير على المستكبر، والعكس صحيح كلّما تواضع الإنسان فتحت له الآفاق الرحبة والواسعة وحينئذٍ يستطيع أن يهتدي إلى الصواب، ويتّضح هذا عندما ينظر الإنسان إلى عواقب الأمور ويمعن النظر في أمر ما أكان اجتماعياً أم ثقافياً أم غير ذلك، أمّا من يُعرض عن ذلك الأمر الاجتماعيّ أو الثقافيّ فلا يمكنه أن يتلمس إيجابياته، كما أنّ من اتّخذ طريقاً مضاداً فسوف ينظر إلى الأمور من الجانب السلبيّ، ولهذا نجد بعض الناس إذا كان عدوّاً لشخص يرى محاسنه مساوئاً، وكلّ إيجابيّة تصدر منه سلبية، هكذا حال الوليد لأنّه أدبر واتّخذ سلوكاً مضاداً فلم يرَ محاسن الدعوة.

### الطريق المضادّ والتواضع

إنّ من يعرض ويتّخذ طريقاً مضاداً لكنّه لم يستكبر فهناك بصيص أمل في رجوعه عن إعراضه، أمّا إذا كان مستكبراً فمن المستحيل أن يصل إلى الصواب، بل سيزداد في بعده عن الحقّ، وهذه معادلة: كلّما ازداد الإنسان تواضعاً كلّما رأى الأشياء بشيء من الوضوح، وكلّما استكبر أصبح يراها غائمة قاتمة، وهي من أعظم المعادلات التي تفيد الإنسان في الناحية الأخلاقيّة والعباديّة، أي في تكامله العباديّ، فإنّه يحتاج إلى التواضع في علمه وفي عمله الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسياسيّ، وغير ذلك.

### استعلاء الوليد

من استكبر ابتعد عن الحقّ وعن الآخرين، وسوف يبتعد الآخرون عنه،

فلا يمكنه أن يصل إلى الصواب ، والوليد هنا اتَّخَذَ طريقاً مَضَاداً واستكبر ، فكان يرى أن القرآن الكريم والرسول ﷺ أقل رتبةً وشأناً منه ، فكيف يمكنه أن يهتدي بهدي النبي ﷺ؟!

وكيف يمكنه الأخذ منه؟! بل كيف يمكنه أن يكون متبِعاً له؟!

### الاختلاف في القضايا الاجتماعية

قد تجد بعض الناس يخالفك ويضادك في القضايا الاجتماعية ، ويُدبّر عنك كلما اقتربت إليه ، بل يبتعد عنك أشواطاً ، وقد يستكبر عليك ، ولا يراك من أقرانه ومماثليه ، بل لا يراك شيئاً ، وحينئذٍ فلن يمكنه أن يستفيد منك ، لأن الاستفادة من الأشياء تتوقف على عدم الاستكبار وتتأتى بالتواضع .

التكبر صفة مختصة بالله تعالى ، ليس لغيره أن يتقمصها ، ورد في الحديث القدسي المروي عن النبي ﷺ : « الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَارَعَنِي فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ »<sup>(١)</sup> . إن المتكبر ينحدر ويرتكس في جهله وظلامه ، لهذا صدر عن الوليد قوله :

### إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتِرُ ﴿٢٤﴾

أوضحنا سابقاً المراد من السحر عند الحديث عن نتيجه بأنها التفريق بين الصديق وصديقه ، والمرء وزوجه ، والولد ووالده ، وأن كل من آمن بالقرآن سيفترق عن صاحبه وعن أبيه وزوجه وهلمّ جراً . إذن هذا الانفصال الذي يحدث لمن آمن بالقرآن يماثل السحر في نظر الوليد .

(١) بحار الأنوار: ٧٠: ١٩٢ .

## معنى يُؤثر

وصف السحر بأنه ﴿يُؤَثِّرُ﴾ وله معنيان :

**الأول:** بمعنى أنه أثر، وكأنّ الوليد يقول: إن هذا إلا سحر مأثور، أي معروف منقول عن غيره، ينقله السحرة جيلاً بعد جيل .

**الثاني:** ﴿يُؤَثِّرُ﴾ من التأثير بمعنى أنّ القرآن سحر مؤثر؛ لأنّ السحر على قسمين: سحر شديد يؤثر، وسحر غير مؤثر، تأثيره بسيط، يريد الوليد أن يقول: إنّ القرآن من السحر المؤثر، وقد أراد أن يذمّ القرآن فمدحه من حيث لا يشعر؛ إذ أنّ القرآن سحر مؤثر في الناس، ومعنى كلامه حينئذٍ، كقولنا: سحرنا فلان بكلامه: إذا تكلم بمنطق وبلاغة .

## محاولة الوليد ذمّ القرآن

قال الوليد عن القرآن: «إِنَّ لَهُ لِحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ»، وهذا مدح للقرآن لحسن السبك فيه وحلاوة ألفاظه، وبعد كلامه عُوتِبَ بأنّه خرج عن دين قريش وصبأ، فأراد أن يفرّ ممّا قاله فوقه فيه؛ لأنّه لمّا قال: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤَثِّرُ﴾ أراد أن يذمّ فمدح من حيث لا يشعر، حيث أبان أنّ القرآن فيه منطق ومؤثريّة وجاذبية كالسحر، وهو ليس بسحر؛ لأنّه كلام فيه اتزان ومنطق، وأسلوبه قويّ متين، وعلى الأصول العقليّة والعقلانيّة .

إذن القرآن في أعلى مراتب الكلام، وهو كما قال الوليد: «وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى»؛ لأنّ القرآن يبرهن على حقانيّته بنفسه .

قال المتنبيّ:

وإذا استطال الشيء قام بنفسه      وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً

## إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾

### الوليد وبشريّة القرآن

أراد أن يشكك في كلام النبي ﷺ عن القرآن بأنه وحي إنهمي، وحذر قريش من تصديق النبي ﷺ بتبيان أنه كلام بشري لا ينتمي إلى السماء وليس من عند الله تعالى وإن كان هو في حد ذاته كلاماً صحيحاً وقوياً متيناً، لكنّه سحر، وقريش أقصى ما أمكنها أن تقوله إنه شعر، والشعر كلام بشر، وعليه فإنّ الوليد لم يأت بجديد سوى ما قاله بأنه سحر.

### ضعف كلام الوليد

أراد الوليد الطعن في القرآن بقوله عنه: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، لكنّ كلامه تنقصه الحجّة ويعتريه الوهن والضعف، فلا يقاوم القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ \* وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (١).

### دليل بطلان بشريّة القرآن

تحدى النبي ﷺ الثقلين الجنّ والإنس أن يأتوا بآية واحدة تماثل القرآن الكريم في بلاغتها وقوة سبكها وحسن نظمها، وكونها غضة طرية لا تبلى، باعتبار أنّ الكلام قد يكون قوياً سبكه، حسناً نظمه، لكنّه ليس بغضّ طريّ، بمعنى أنّه يبلى ولو بعد حين، لذلك نجد مئات بل آلاف من النظريات والأفكار تهاوت كلّها وسقطت لما اعتراها من الخلل والوهن، أمّا القرآن الكريم لكونه من عند الله تعالى فهو بالإضافة إلى قوة سبكه وحسن نظمه وبلاغته طريّ غضّ لا يبلى مع تعاقب

(١) الطارق ٨٦: ١٣ و ١٤.

الأيام ومرور السنين ، وكلما تقدّمت البشرية تبين لها إعجازه ، وفي عصرنا الحديث توّصل العلماء إلى إعجاز القرآن العلمي من وجوه متعدّدة .

### الفارق بين القرآن وغيره

إذن اتّهام القرآن بأنه يماثل ما يتحدّث به الآخرون من البشر ليس بصحيح ؛ لأنّ قول البشر فيه تضادّ وتناقض وتغيّر بالإضافة إلى كونه ليس بطريّ غصّ لا يبلى على مدى الدهور ، وهذا فارق جوهريّ بين القرآن وغيره ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(١)</sup> .

### عذاب الوليد

أوضح القرآن الكريم العذاب الشديد الذي سيصلاه الوليد ، يخوف الله تعالى من العذاب الشديد في الآخرة ، غير أنّه أعدّ أنماطاً من العذاب تختلف عن غيرها لبعض الفئات من الناس ، وهم الذين يحاربون الله تعالى ويحاربون الرسل والأنبياء ، أو يكونون من المجرمين أو من التاركين ما أمر الله تعالى به أن يؤتى ، أو يكفرون ببعض ما أنزل الله تعالى ، أي أنّ للمجرمين أنماطاً من العذاب ، وكذلك للطغاة الذين حاربوا الله والرسل ، وكذا للذين لا يأتّمرون بأوامر الله تعالى ولا ينتهون عن نواهيه كمن يترك الصلاة أو لا يؤدّي الزكاة ، قال تعالى : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ \* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ \* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ﴾<sup>(٢)</sup> .

أمرهم الله تعالى بالواجبات فتركوها فاستحقّوا العذاب الشديد ، كذلك من يحارب الحقّ تعالى فإنّ جزاؤه ليس دخول النار فحسب ، بل هناك دركات في

(١) النساء ٤ : ٨٢ .

(٢) المدثر : ٤٢ - ٤٤ .

النار كسقر الذي تحدّث عنها الذكر الحكيم في عذاب الوليد تختلف في عذابها عن العذاب بالنار الأخرى .

## سَأْضَلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾

### حقيقة الذوبان في سقر

سقر في اللغة بمعنى الذوبان<sup>(١)</sup>، أي أنه الشيء الذي يذوب ويتلاشى ، ولعلّ إطلاق الاسم على هذه النار باعتبار المسبّب ؛ لأنّه تارة نطلق السبب على المسبّب ، وأخرى نطلق المسبّب على السبب ، ولكون النار لا يوضع فيها شيء إلا أذابته حيث لا يبقى منه شيء ، أطلق عليها الذوبان ، وهو هنا بمعنى التلاشي التام ، يبيّن الله تعالى أنّ هذه النار أعدّها لأصناف من الناس الذين حاربوه وكذبوا برسله ، والسؤال هنا كيف يكون هناك ذوبان في النار؟

كي نشرح معنى الذوبان لا بدّ أن نبيّن أنّ الله تعالى عظم هذه النار ، فلا يمكن لأحد في عالم الدنيا أن يتصوّر ما هي عليه ، قد يتبرّم الإنسان من أنواع من النار في الحياة الدنيا ، كالنار التي تحدث من القنابل التي يمكنها أن تحرق الكرة الأرضية بأكملها كالهيدروجينية أو الذريّة ، لكنّ هذا النحو من القنابل لا يمثّل شيئاً أمام سقر الموجودة ، وذلك لأمر:

**منها:** استمرار هذه النار وعدم انطفائها .

**ومنها:** عدم موت المعذب بها .

**ومنها:** أمور ترتبط بعذاب كلّ وجود الإنسان ، وليس الجانب المادّي منه فقط ،

لهذا أكّد الله تعالى عظمة هذه النار ، فقال تعالى :

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ١٩ : ١٧١ .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾

### عظمة نار سقر

ولكي نفهم بعضاً من عظمتها وشدتها وقوة تأثيرها من خلال معنى ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ لا بد من المقارنة بينها وبين نار الدنيا، نار الدنيا يمكن أن تحرق شيئاً وتبقي آخر، ويمكن أن يكون تأثيرها على الجسد فقط، أما النار التي تتحدث عنها الآية في الآخرة فهي لا تبقي شيئاً أبداً، تؤثر على الجسد والروح، وعلى كل عوالم وجود الإنسان وما يرتبط به فهي نار من نمط خاص من العذاب، لا يبقي جسماً ولا روحاً، ولا شيئاً آخر، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾<sup>(١)</sup>، ولعل الآية تتحدث عن غير من يعذب في سقر بنمط من النار يبقي ويذر، أي أن هناك شيئاً يبقى، لكن سقر هي التي لا تبقي ولا تذر، فهي نمط من العذاب الشديد لا تبقى معه الروح، ولا يعني ذلك انعدام الروح، بل المعنى أن الإنسان يتلاشى ويذوب ثم يعود بقدرته الله تعالى، ذوبان الجسم وبقاء الروح معذبة، ثم عودة الجسم إليها، ولعل هناك معنى دقيقاً هو أن الوجود الحقيقي للإنسان ولشخصيته يتلاشى ثم يعود، وعقولنا قد لا ندرك ذلك.

إذن أولى سمات (سقر) ما يرجع إلى أن حقيقتها الذوبان، بنحو يكاد أن لا يوصف، أشار إليه الذكر بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ \* لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾.

عقل الإنسان في عالم الدنيا لا يدرك هذا المعنى لنقصه في الإدراك، وهناك كثير من الأمور لا يصل إليها العقل أفصح عنها القرآن الكريم، منها قوله تعالى:

(١) النساء ٤: ٥٦.

﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾<sup>(١)</sup>. قال العلامة الطباطبائي: «إنَّ تبديل السيئة إلى حسنة هو انقلاب للسيئة، وهذا الانقلاب تغيّر ماهوي لا يدركه العقل، لكننا نؤمن بقدرة الله تعالى اللامتناهية فنقبل ذلك، أمّا عقولنا فلا تدرك معنى تبدل السيئة إلى حسنة؛ لأنّ الشيء إذا تحقّق ووجد ثمّ انعدم فهناك عشرات الإشكالات التي تؤكّد عدم إدراك العقل لهذا، وهكذا الأمر في قوله تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾<sup>(٢)</sup>.

### بيان معنى عدم بقاء الروح

لا تنعدم الروح، غير أنّ القرآن الكريم أشار أنّ لا شيء يبقى من الإنسان، لا روح ولا جسد، تذوب روحه ويتلاشى جسده.

قد يقول قائل: إنّ هذه مبالغة في التعبير.

لكننا إذا حملنا اللفظ على الحقيقة سنجد أنّ الروح تذوب وتتلاشى ثمّ تعاد كما يذوب الجسد ويتلاشى ثمّ يعاد من جديد، وهذا أمر لا يدركه العقل، أفصح عنه القرآن الكريم.

### الوضوح والبروز في نار سقر

من سمات سقر كونها بارزة واضحة بيّنة، والمجرمون الطغاة البغاة والمتمردون على الله تعالى فئات ثلاث: المجرم والطاغي والمستكبر المحارب لأنبياء الله ورسله، المتمرد على أوامر الله تعالى الذي لا يأتمر ولا ينتهي، هؤلاء تكون النار بادية وظاهرة لهم.

(١) الفرقان ٢٥: ٧٠.

(٢)



## سقر نار المعصية

بحث العرفاء في المعصية فقالوا: إن من اقترف معصية أو ظلماً فقد دخل النار حقيقة، والنار هي نفسه قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾<sup>(١)</sup>.

أي أن المال الذي يأكله هو النار والسعير، لكنّه غير ظاهر في هذا العالم، - حقيقته خفيّة - تتجلى حقيقة النار والسعير والاصطلاء عندما تنكشف الحجب في عالم الغيب، أمّا في عالم الدنيا فلا يشعر بكونه يأكل سعيراً ولا يحسّ بأنه يأكل ناراً، لكنّه إذا انتقل إلى عالم الآخرة وجد نفسه يأكل ناراً ويصلى سعيراً. البروز هو الظهور، وهي سمة ثانية للنار عبّر عنها الحقّ تعالى في آية أخرى بقوله:

## لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾

أي أنّها ظاهرة بادية، شبيهة بالشمس بالنسبة لنا، وكذلك نار هؤلاء المستحقّين، تكون بمنتهى الظهور لهم.

## عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾

## تعدّد خزنة النار

جعل الله تعالى لخزنة النار عدداً من الملائكة، عليهم رئيس اسمه مالك، وهو خازن النيران، وخزنة النار عددهم تسعة عشر، وقد فسّر هذا العدد بتفسيرين: **الأول**: أنّ عددهم تسعة عشر شخصاً من الملائكة. **الثاني**: أن عددهم تسعة عشرة مجموعة من الملائكة، وكلا التفسيرين فيه

(١) النساء ٤: ١٠.

احتمال وله مؤيدات ، فالملائكة الذين يتولون العذاب أو قبض الأرواح أو التكريم والعناية بالمطيعين والمؤمنين الخيرين في عوالم الآخرة هم مجموعات ، والتسعة عشر الذين أفصح عنهم الذكر يمثلون رؤساء لهذه المجاميع ، أي أنّ كلّ مجموعة عليها رئيس ، فهم تسعة عشرة مجموعة لخزنة النار ، وهناك سؤال يطرح : هو أنّ هذا العدد لكلّ دركات جهنّم أو لدركة واحدة ؟

يرى بعض المفسرين أنّ العدد خاصّ بسقر<sup>(١)</sup> ، لكن ما يبدو من الآية وغيرها من آيات القرآن أنّ كلّ دركات جهنّم عليها تسعة عشر رئيساً ، قد يكون للرؤساء والمسؤولين الكبار من الملائكة الذين هم خزنة جهنّم أعوان وجنود كثيرة ، لكن الذي جاء في الكتب السماوية أنّ خزنة جهنّم هم بعدد تسعة عشر ، لذا نجد - كما سوف يأتي - أنّ اليهود أرادوا أن يختبروا النبي ﷺ بصدقه وحقانيته ، فسألوه عن عدد ملائكة العذاب لجهنّم ، فنزل الوحي يبيّن ذلك ، يبدو أنّ الكتب السماوية السابقة استعرضت هذا العدد ، أي أنّه لا يختصّ بدركة من دركات جهنّم وهي سقر بل كلّ دركاتها المسؤول عنها تسعة عشر ملكاً من ملائكة الله العظام الذين أوكّل لهم عذاب جهنّم .

### حكمة العدد

قد يثار تساؤل عن سبب التخصيص بهذا العدد ؟

وهناك جواب عامّ عن ذلك يرتبط بحكمة الله تعالى في كلّ ما يصدر عنه ، فإنّ أفعاله معلّلة بحكم ومصالح بعضها بيّن جلّي ، وبعضها الآخر لا يصل إليه عقل الإنسان ، من جملة الأمور التي لا تصل عقولنا إليها : أي أنّ العدد المحدّد لملائكة النار ، وكذلك الأعداد المحدّدة الأخرى ، ككون السماوات والأرضين

(١) تفسير مجمع البيان : ١٠ : ١٨١ .

سبعاً سبعاً، نجزم بوجود حكمة لا نعرفها، كذلك كون الشهور عند الله اثني عشر شهراً، وهكذا عدد ساعات اليوم الذي نعيشه لا نعرف مغزاه، فهناك أسرار أمور لا يصل إليها عقل الإنسان مهما فكّر.

نعم، يطلع على كنهها المعصوم؛ إذ أنها ترتبط بحكم ومصالح خفية، وإبانة العدد هاهنا قد يستهزئ به بعض الناس إذا سمعوه، لكنّ بعضاً آخر وهم المؤمنون يزدادون إيماناً؛ لأنّ المؤمن لديه قواعد مسبقة يبني عليها أسس وركائز إيمانه، فهو يعتقد أنّ الله تعالى حكيم لا يفعل عبثاً، وكلّ ما يصدر منه لحكمة، غاية الأمر أنّ بعض الأمور لا يدركها العقل وبعضها الآخر ظاهرة بيّنة.

## وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً

### الامتحان في عدد خزنة النار

أي أنّه تعالى جعل خزنة جهنّم، وكذلك خزنة الجنّة من الملائكة، أمّا خصوصيّة العدد فقد أوضحت الآية ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يريد الله تعالى أن يمتحن الإنسان في عباداته وعلاقاته بالآخرين وعلاقة الآخرين به، ومن جملة الامتحانات التي يتحدّث عنها الحقّ تعالى هو الامتحان في عدد خزنة النار، وهو امتحان ليس بسيط بل هو صعب؛ إذ أنّ الآية ما إن نزلت حتّى انبرى الكفّار والمشركون لها بالسخرية، روي عن ابن عباس أنّها لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أنّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم<sup>(١)</sup>، أيعجز كلّ عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأسد بن أسيد بن كلدة الجمحيّ - وكان شديد البطش -:

(١) العدد الكثير. معجم مقاييس اللغة: ٢: ٣٠٨.

أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين<sup>(١)</sup>.

### القدرات الهائلة للملائكة

وصل الحدّ بالمشركين في الاستهزاء والسخرية بالملائكة العظام إلى أن يُصَوِّروهم كسائر البشر، بحيث يمكن التصدّي لهم والتغلب عليهم، ويتجاهلون قدرات الملائكة التي يستطيعون من خلالها أن يغلبوا مدناً بأكملها في أقلّ من جزء من الثانية؛ إذ أنّ لهم ﷻ ولاية تكوينيّة على الكون، قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾<sup>(٢)</sup>، منحهم الله تعالى قدرات لا حدود لها، كما تحدّث القرآن عن تدميرهم لقوم لوط فقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا لَوِطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ \* فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾<sup>(٣)</sup>.

أو قوم صالح. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ \* وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

أو قوم هود، أو قوم شعيب، أو غيرهم من الأمم السابقة التي تعرّضت لعذاب الله تعالى بسبب تكذيبها لأنبيائها؛ إذ أنّ الملائكة قامت بإنزال العذاب بأمر الله تعالى، وبلمح البصر تعيّرت المعادلة الكونيّة بأكملها وأصبح العالِي سافلاً والسافل

(١) تفسير الميزان: ٢٠: ٨٨.

(٢) النازعات ٧٩: ٥.

(٣) هود ١١: ٨١ و ٨٢.

(٤) هود ١١: ٦٦ و ٦٧.

عالياً ، وغيروا وجه تلك المدن المتطورة الراقية بسبب الطغيان والكفر والمعاندة للحقّ تعالى ، فملائكة الله تعالى لا حدود لقدراتهم ، والإنسان يجهل تسلّم القوّة ويتمسك دائماً بالقدرات الماديّة .

### قدرات ممنوحة للخلق

كشف الله تعالى النقاب عن بعض القدرات التي يعطيها لبعض خلقه ، كما تحدّث القرآن عن النبي سليمان لما أراد أن يأتي بعرش بلقيس ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ \* قَالَ عِفْرِيْتُ مَنْ الْجِنُّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿١﴾ ، أبدى العفريت قدرته على جلب عرش بلقيس وكرسيّ الملك الذي تجلس عليه من مسافة بعيدة - من اليمن إلى فلسطين - قبل أن يقوم نبيّ الله سليمان من مقامه ، ويعني ذلك أن لديه قدرة على التصرف في الزمان والمكان ، وقد تحدّث القرآن الكريم بعد ذلك مباشرة عن قدرة أكبر من تلك الكائنة للعفريت لأحد مخلوقاته ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ﴿٢﴾ ، الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا وصيّ سليمان ﷺ ، لديه قدرة على جلب عرشها في جزء من الثانية ، وهي قدرة هائلة كبيرة أعطاها الله تعالى لبعض أوليائه ، وهذه قدرات خارجة عن قوانين المادّة التي يعرفها البشر ، كما أنّ معاجز الأنبياء كانت من هذا الباب ، أي أنّها قدرات منحها الله تعالى لبعض عباده للتدليل على عظمتة تعالى ، وأمر الأنبياء أن يُذكروا الناس بقدرته تعالى ، قال تعالى : ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ ﴿٣﴾ ، أي ذكّروهم بتلك الأزمة التي ظهرت فيها القدرة اللامتناهية للحقّ تعالى .

(١) النمل ١٧ : ٣٨ و ٣٩ .

(٢) النمل ١٧ : ٤٠ .

(٣) إبراهيم ١٤ : ٥ .

## وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا

### موقف الكفار من عدد الخزنة

تفصح الآيات القرآنية أن عدد تسعة عشر لخرزنة النار ، وهو امتحان من الله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ؛ إذ أن الذين كفروا سوف لن يدركوا الحكمة من العدد ، وسيستهزؤون بالعدد ، فيزداد بعدهم عن الحق .

### أهل الكتاب وعدد الخزنة

أما اليهود والنصارى وأصحاب الكتب السماوية ، فإن عدد خزنة جهنم موجود في كتبهم ، لذا اختبروا النبي ﷺ بعدد ملائكة العذاب ، فنزلت الآية ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ، وعليه فإن ذكر العدد لأصحاب الديانات السابقة يجعلهم على بينة من الأمر ويقين في كون الجهة التي أتت بالعدد هي وحي سماوي ؛ إذ أن ما لديهم هو الذي جاء به الذكر الحكيم .

## لَيَسْتَيِّقَنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا

### تأثير ذكر عدد الخزنة

ثم تبين الآيات أن ذكر العدد له أثر كبير على المؤمنين في ازدياد إيمانهم ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ ؛ وذلك أن المؤمنين عندما يعلمون أن عدد خزنة جهنم مذكور في الكتب السماوية السابقة سيتسرخ الإيمان بالدين الإسلامي في قلوبهم ، وسيزدادون يقيناً بأن الرسائل السماوية مصدرها واحد ، وإن طراً على بعضها تحريفات ، غير أن بعضها الآخر لا يزال صحيحاً ، وتلك فائدة كبيرة ، أن يزداد المؤمنون إيماناً ، ويؤكد للذين أوتوا الكتاب حقانية الإسلام ، فيزول ارتيابهم .

وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ  
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا

### المنافقون وذكر عدد الخزنة

ثم تحدّثت الآية عن تأثير العدد على المنافقين والكافرين ، قال تعالى :  
﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ  
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ ، عبر القرآن الكريم عن المنافقين بأنهم هم  
﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ﴾ ، وهو تعبير ورد في القرآن الكريم  
في آيات عديدة ، لكونهم يحاولون دائماً الاستهزاء والسخرية وتحريف كل ما جاء  
به القرآن ، وعملهم هو نفسه ما يقوم به الإعلام الحديث من صحف ومجلات  
وفضائيات موجهة تحوّل الحق إلى باطل والباطل إلى حق ، ليؤثروا على كثير  
من الناس ؛ لأنّ أكثر الناس لا يبحثون في المعلومة كي يصلوا إلى الصواب ، إنّ  
ذلك يتطلّب من الإنسان بصيرة وفهماً عالٍ لا يتوافر لدى الأكثر .

ثمّ عطف القرآن عليهم الكافرين ؛ لأنّ الفئتين - الكفار والمنافقين - سوف  
تستمرّان في عنادهما ومضادّتهما للحقّ ، ولن يؤمنوا به ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ ،  
يستهزئ الكفار والمنافقون من ذكر العدد لكونه عدداً قليلاً ، فكيف سيقوم  
بمهمّة التعذيب والإحراق بالنار؟!

وهي نظرة تدلّ على قصور وجهل بعالم الوجود وقوانينه المترابطة بين عالمي  
المادّة الذي نعيشه والعالم اللامرئيّ ، فلا يمكن لتلك العقول بمحدوديتها أن  
تدرك أسرار عالم الوجود ببعديه المادّيّ واللامادّيّ ، وحينئذٍ سيدفعهم ذلك  
الجهل للسخرية والاستهزاء ، ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ  
اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ﴾ .

## كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

### الهداية التكوينية والتشريعية

تستمر الآية في الحديث عن مبحث هام لتبيين أن الهداية والضلال من الله تعالى ، وهو بحث هام يدفعنا لبيان قسمي الهداية : التشريعية والتكوينية . الهداية التشريعية تتحقق بإرسال الله تعالى الرسل ، وبعث الأنبياء ، وإنزال الكتب السماوية ، وتهيئة الأسباب ليصل الإنسان إلى الحق ، أما الهداية التكوينية فترتبط بموجودات الكون والقوانين المتحركة فيه وفيها ، وهي هداية من الله تعالى للموجودات كي تصل إلى كمالها المنشود ، قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾<sup>(١)</sup> ، وكلا الهديتين ترجعان إلى الله تعالى .

إذن قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ تبيان أن الهداية التشريعية من الأنبياء والرسل ، وليس الهداية التكوينية ، فإن الإنسان إذا سلك الطرق الطبيعية ، وأخذ بالأسباب التي أرادها الله تعالى لهديته ، سيصل إلى نتائج باهرة وهداية تامة ، أما إذا عاند وأصر على ترك تلك الطرق التي جعلها الله تعالى سيصل إلى نتائج عناده ، وهو الضلال .

### تعلق المشيئة الإلهية بالهداية والضلال

تعبير القرآن الكريم دقيق ؛ لأن الهداية والإضلال لهما حيثيتان :  
**الأولى** : أن ينسب إلى الله تعالى الهداية لكونه هو المعطي للقدرة ، فهو الذي منح الإنسان القدرة ، والفعل وإن صدر من الإنسان لكونه مختاراً في أفعاله ، إلا أن القدرة هي من عنده تعالى ؛ لأنه المعطي المانح لها ، فنسب الفعل إليه لهذه الحيثية .

(١) طه ٢٠ : ٥٠ .



**الثانية:** النظر للفعل باعتباره منسوباً للإنسان؛ لأنَّ الفعل يرجع إلى اختياره، أي أنه هو من يشأ الهداية فيهديه الله، ومن يشأ الضلالة فيضلّه الله تعالى، فمن أخذ بأسباب الهداية التشريعية سيهتدي تكويناً، ومن أخذ بأسباب الضلالة تشريعاً سيضلّه الله تعالى، وبالتالي فإنَّ النتيجة ستظهر بوضوح، فمن سار في الطريق الصحيح وصل إلى العواقب الحميدة، ومن سار في طريق الغواية والضلالة وصل إلى العواقب الوخيمة السيئة، أي أنّ الله أعطاه القدرة للوصول إلى الهداية والضلالة، فإن استخدم القدرة الممنوحة له في الخير فقد شاء الهداية، وإن صرفها في السوء فقد شاء الضلالة، وعندما ينظر إلى أنّ الله تعالى هو المعطي للقدرة في كلا الحالين سيرتبط ذلك بسلسلة عالم الأسباب والمسببات التي ترجع في نهايتها إلى الله تعالى، فتكون الهداية والإضلال من هذه الحيثية يرجع سببها إلى الله تعالى، وهي بهذا المعنى من عنده تعالى.

قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هُوْلَاءِ وَهُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾<sup>(١)</sup>، أي أنّ الله تعالى يُعطي ويمكن من يشاء الخير ومن يشاء السوء أيضاً، فيرزق الناس جميعاً، غير أنّ بعضهم سيصرف الرزق والنعمة في المعصية، وبعضهم الآخر سيصرف رزقه ونعمته في الطاعة، وذلك ما نجده في نعمة البصر التي أعطانا الله تعالى إيّاها، فإنّ من يقرأ القرآن سينال الثواب، أمّا من يشاهد البرامج المحرّمة في التلفاز فإنّه قد كفر بنعمة الله. إذن النعمة تستخدم في الخير والشرّ.

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ

تعداد جنود الله تعالى

تواصل الآيات الحديث حول أنّ عدد خزنة النار هو إشارة إلى كونهم رؤساء

(١) الإسراء ١٧: ٢٠.

لمجموعات مسؤولة عن مجازاة المجرمين ، وليس العدد هو إحصاء لجميعهم ، بل إن عددهم كثير لا يحصيه إلا الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ ، فهو تعالى الوحيد الذي يعلم عدد جنوده ، والمقصود من الجنود هو كل شيء في الكون ، أي أن كل موجود هو جندي لله تعالى ، فالإنسان جندي من جنود الله تعالى ، خصوصاً الأولياء الصالحين ، الذين أشار إليهم دعاء شهر رمضان « وَلَا تُهْنِي بِكَرَامَةِ أَحَدٍ »<sup>(١)</sup> ، ومعنى الدعاء أن لا تجعلني أسيء إلى ذلك الولي ، فتكون إساءة لي إهانة لك ، وإكرام للولي المساء إليه ، وقد تحصل الإساءة بتأديب الولي ، فإن تأديبه كرامة له عند الله ، وإهانة لغيره ، وعليه فإن الولي جندي من جنود الله تعالى ، رغم أن كل إنسان هو جندي من جنوده تعالى ، بل أن كل ذرة في الكون هي جندي من جنوده تعالى ؛ ذلك أن الإنسان يمكن أن يُسلط على نفسه فيدمرها ، يُخطط فيكون في تدميره تدميره ، كما كان ذلك للويد وللبيهود الذين يخربون بيوتهم بأيديهم ، فهم يخططون ظناً منهم أن ما يضعونه من خطط يحقق لهم الانتصار على الإسلام ، لكن خططهم أدت إلى دمارهم وهلاكهم ، وعليه فإن الإنسان هو جندي لمحاربة نفسه بإذن الله .

قال الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي : « يَا سَيِّدِي فَإِنَّكَ إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى نَفْسِي هَلَكْتُ »<sup>(٢)</sup> . من أوكل إلى نفسه طرفة عين سيتلاشى وينتهي ؛ لأن يد اللطف والرحمة والهداية من عند الله تعالى ، وإذا ارتفعت عن شيء أصبح ما يصدر منه يصب في طريق غوايته ، فيزداد عتواً ونفوراً وغياً وضلالة ، إلى أن يؤخذ أخذ عزيز مقتدر ، كفرعون وهامان وقارون .

(١) إقبال الأعمال : ١ : ١٠٥ .

(٢) المصدر المتقدم : ١٧٠ .

## تأثير جنود الله تعالى

إذن كل ذرة في الوجود هي جندي من جنود الله تعالى ، فجوارح الإنسان وعقله وفكره من جنود الله تعالى ، وقد توجب للإنسان السخط والمقت الإلهي ، كما مر علينا ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ \* فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ ، حيث إن الوليد فكر واستخدم عقله بطريقة خاطئة فكان تدبير عقله في تدميره ؛ ذلك أن الإنسان قد يجهل أو يتجاهل أو يغفل عن أن الكون كله بيد الله تعالى ، وقد مرّ عليّ في هذا المجال قصة جميلة تبيّن أن الإنسان مهما أتاه الله تعالى من المال والفكر والعلم لا يعني ذلك أن الأمور أصبحت بين يديه .

والقصة عن أحد الأثرياء كان لديه كثير من المال ، فقال شخص له كما قيل لقارون : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) ، أي طلب منه أن يعمل خيراً بما لديه من أموال قبل أن تزول الأموال من بين يديه ، فقال الثري : إن الله إذا أراد أن يفقروني يحتاج إلى شهر كامل يفكر كيف أصبح فقيراً؟! أي مضمون كلامه أن الله تعالى يحتاج أن يخطط لمدة شهر حتى يصبح هو من الفقراء لكثرة أمواله وتنوعها من عقار ومجوهرات وأرصدة وبورصة وبنائيات تجارية ضخمة ، وغير ذلك .

فقال له الناصح : اتق الله ، إن قدرة الله تعالى كبيرة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٢) ، ثم ذهب الثري إلى بيته لينام ، وحدثت مفاجأة في الصباح فانتهى كل الثراء والمال والجاه ، ولم يجد المسكين حينئذ

(١) القصص ٢٨ : ٧٧ .

(٢) يس ٣٦ : ٨٢ .

إلا ما يستر عورته ، فالتقى به ذلك الناصح الذي حاوره وسأله متعجباً عن سبب ما وصل إليه من حال ، فأجابه قائلاً: كان عندي ولد صديق لابن الملك وخرجنا معاً للصيد ، ووجه ابني بندقيته ليصطاد لكنّه أخطأ وأطلق على ابن الملك ، فقتله ، فأتى الخبر المفجع للملك ، فأمر بسلب الثريّ وتجريده من مناصبه وأمواله وكلّ ما يملكه .

### عظة قرآنية في قصة

هذه القصة التي ذكرناها أورد القرآن الكريم قصة مشابهة لها ، تتحدث عن رجلين كان لدى كلّ واحد منهما بستان ، وكانا يأكلان ويتحاوران : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا \* وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا \* وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا \* قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا \* لَكِنَّهُ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا \* وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا \* فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا \* أَوْ يُصْبِحَ مَاءً وَهِيَ غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا \* وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا \* ﴿١﴾

إنّ الله تعالى إذا أراد شيئاً تحقّق فوراً فقد يتحوّل الثريّ إلى أفقر الفقراء ، وقد يتحوّل الفقير إلى غنيّ ، هو تعالى يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء ، وهو الذي يُسخر الأمور في صالح الإنسان ، والدنيا تارة تحارب الإنسان ، فيسعى في تهيئة الأمور لتكون في مصلحته ، وإذا بها تنقلب عليه ، فلا بدّ أن يلتفت العاقل إلى

هذه المعادلات التي تحدث في الكون ، ويدرك أنّ كل شيء من جنود الله تعالى ، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ، وجنوده تعالى بيده ، ولا يعلم الإنسان شيئاً عنها ، وهو مأمور باللجوء إلى الله تعالى من خلال العبادات والأذكار التي ترسخ في ذاته الارتباط بالله تعالى على الدوام ، ولهذا حثت الروايات على المداومة على الأذكار ، قال الإمام الصادق عليه السلام : « مَنْ قَالَ فِي دُبْرِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَفِي دُبْرِ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ : سَبْعَ مَرَّاتٍ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، دَفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ سَبْعِينَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ ، أَهْوَنُهُ الرِّيحُ وَالْبَرَصُ وَالْجُنُونُ ، وَإِنْ كَانَ شَقِيحًا مُحِيٍّ مِنَ الشَّقَاءِ وَكُتِبَ فِي السُّعْدَاءِ »<sup>(١)</sup> ، أي أنّ تكرار هذه الأذكار صباح مساء يرسخ معانيها في وجدان الإنسان فيستشعر أنّ الحول والقوة بيد الله تعالى .

### وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

#### التذكير في آيات القرآن

هناك ثلاثة أقوال في الضمير :

**الأول :** إنه يرجع إلى سقر<sup>(٢)</sup> ، فالنار تذكرة للبشر ، كي يتذكر الإنسان وينتبه إذا تعرّض للابتلاء والعذاب ؛ لأنّ بعض الناس تنصحه وتحذّره من عواقب بعض الأعمال الصادرة منه ، لكنّه لا يتعظ ولا يقبل ، غير أنّه بمجرد أن يصاب ببلاء أو مرض يتأثر فيرجع إلى الصواب ، وهناك من لا يتعظ إلا بعد أن يصاب ولده أو أحد أقاربه أو أصدقائه ببلاء أو مرض ، حينئذ يتوجّه إلى الله تعالى وإلى العبادة والأذكار بسبب ما أصابه من بلاء ومرض ، فتجد أنّ تلك القوة وذلك النشاط يصبح

(١) وسائل الشريعة : ٦ : ٤٧٩ ، الباب ٢٥ من أبواب التعقيب ، الحديث ٩ .

(٢) تفسير مجمع البيان : ١٠ : ١٨٣ .

ضعفًا، وأحياناً لا يستطيع الحراك، وحينئذ يتذكر ويتعظ ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾.

إن النار-سقر- التي تُذوب الأشياء فيها تذكرة، أي أن عذاب الآخرة يُذكر الإنسان ويرجعه إلى جادة الصواب، وإن كان بعض الناس لا يتذكر ولا يتعظ بذلك، فإن بعضاً عندما ينصح بعدم السرقة لما أعدّه الله من عذاب للمعتدي على مال الآخرين، فإنه عندما يُبين له أن من ترك السرقة عوضه الله تعالى بالجنة، سيردّ بقوله: عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة، يريد أن يستمتع بالمال وينسى عذاب الآخرة، لكنه بمجرد أن يصاب بمرض أو بلاء يرجع إلى الله تعالى، وهذا أمر واقعي، فإن بعض الناس قد يعترف بأنه أخذ مال فلان دون رضاه، وهو نادم على ذلك فيكثر التّوَابون، خصوصاً في شهر رمضان، وكذلك في الحجّ، والله تعالى هو الغفور الرحيم، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١).

**الثاني:** أن الضمير يرجع إلى سور القرآن (٢)؛ لأنّ سورة المدثر تحكي ما كان من أمر الوليد في مدحه للقرآن ثم مجيء أبي جهل له وتأنيبه، ثم تفكير الوليد بطريق للخروج من مدحه للقرآن. إذن القرآن يبيّن أن هذه السورة أو الآيات القرآنيّة هي للذكرى، وليست هي سحراً كما ادّعى الوليد، أي أن الآيات تُذكر الإنسان بماله ومصيره وعاقبته.

**الثالث:** أنه يرجع إلى الملائكة الذين عدّهم الله تعالى بتسعة عشر، فإنّ العدد عبرة للبشر للتعرف على قدرة الله الكبيرة التي لا يحدها شيء.

(١) البقرة ٢: ١٦٠.

(٢) تفسير مجمع البيان: ١٠: ١٨٣.

## أثر تذكير آيات القرآن

ثم تبين الآيات القرآنية نماذج للتدبر والتفكير من خلال التأمل في الآيات الكونية:

﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ \* وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ \* وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾.

إن القرآن الكريم يذكر الناس بآيات الكون، لتأثيرها الكبير على الإنسان، قال أبو العتاهية:

وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه الواحد (١)

كل شيء في الكون يُذكر بعالم الآخرة، فهو يفصح عن التغيرات التي تحدث فيه.

## ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ﴾

## أهمية القمر وارتباطه بالموجودات

من الآيات التي ذكر الله تعالى بها في أكثر من آية لينبه الإنسان بعظمتها القمر ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ﴾، فهو آية من آيات الله تعالى، وله تأثير كوني على حياة الإنسان، وإن ظن أكثر الناس أن الحياة ترتبط بالشمس فقط، لكن الصحيح أنها ترتبط بالشمس والقمر معاً، لذا فإن حركتي المد والجزر في البحار ترتبطان ارتباطاً وثيقاً بالقمر، وهو يؤقت للناس الزمان، فيعرف الإنسان الزمان بواسطة الشمس وكذلك بالقمر، وهو أيضاً يعطي جمالاً وضياءاً للإنسان، لذلك تغزل العشاق والشعراء به كثيراً، وللقمر أسرار كثيرة ومتعددة، ولهذا أقسم الله تعالى به لحكمة ترتب على القسم به وبالليل والصبح ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ \* وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ \* وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾، وهي إلفات الإنسان إلى التغيرات الحادثة التي يرتبط بعضها ببعضها الآخر، وقد أشرنا إلى

(١) الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية: ٧٠.

القمر وبعض تأثيراته ، غير أنّ هناك ارتباطاً بين القمر والليل ، فإنّ القمر يمرّ بمراحل متعدّدة من كونه هلالاً ثمّ يكبر حتّى يصبح بدرًا ، ثمّ يصغر إلى أن يكون محاقاً ، وهذه المراحل والتغيّرات التي تحدث للقمر تتمّ في الليل ، وتُدلّل على شيء يلفت فكر الإنسان وانتباهه وهو أنّ الكون يسير نحو غاية وهدف ، وذلك يدفع الإنسان إلى أخذ الحذر والحيطه والتفكير ملياً ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ \* وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ﴾ ، وكما أنّ للقمر بزوغاً وإدباراً من أوّل الشهر إلى نهايته وحركة تكاملية من جهة وحركة أخرى تدلّل على الانتهاء ، كذلك عمر الإنسان ، قال بعض العلماء : «إنّ التغيّر ليس بمقصود على الإنسان فحسب ، بل يشمل كلّ مفردة من مفردات الوجود ، ويعمّ جميعها ، فالأمم - مثلاً - لها بزوغ واكتمال بصورة بدر ، ثمّ تناقص بنحو تدريجيّ ، ثمّ انتهاء ، فإدبار الليل له ارتباط وثيق بحركة القمر ، ويذكر الإنسان بإدبار عمره ، وتلاشي الزمن بتصرّم الوقت » .

### وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾

#### تأثير الصبح

الصبح آية كونيّة لها علاقتها بالموجودات الأخرى ولها تأثيرها على ما حولها ، خصوصاً عند إسفار الصبح ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ ، فالإشراقه هي التي تضيء الكون وتغيّر مظاهر الأشياء ، وتجعل الحياة تدبّ في مفردات الكون بحيويّة كبيرة .

#### المنهج الأخلاقيّ في القرآن

هناك مسألة غاية في الأهميّة ترتبط بالتغيّرات في الكون ؛ إذ أنّ القرآن الكريم له مسلك أخلاقي يلفت انتباه الإنسان إلى تلكم التغيّرات التي قد تجرّ الإنسان إلى الأرض فتجعله يرتبط بأغلالها ، بينما كان ينبغي له أن يرتبط بمحدث هذه التغيّرات ،



وهو الحقّ تعالى ليستفيد منها في الوصول إليه ، قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) ، أي أنّ المطلوب هو التأمل والتفكير ، وهذه الآيات لها مغزى وعبرة مع تنوعها ؛ إذ أنّ بعضها يُدلّل على البزوغ ، وبعضها يدلّ على الإسفار ، ومنها ما يدلّ على الظلمة كالليل ، لكنّه قد يستنير بالقمر ، ويستفيد من ضوئه ليصل إلى ما يبتغيه ويحقّق ما يرجوه ، وينعكس ذلك على حياة الإنسان التي قد تستولي عليها ظلمات كالحة ، غير أنّه باستطاعته أن يُشعل ضوءاً من الأمل كي يصل إلى ما يريده ، وبالتالي سوف ينبج الإصباح والإسفار على حياته التي قد تكون قاتمة وغائمة متلبّدة بغيوم ، روي عن النبيّ ﷺ : « الْأَمَلُ رَحْمَةٌ لِأُمَّتِي ، وَلَوْلَا الْأَمَلُ مَا رَضَعَتْ وَالِدَةٌ وَلَدَهَا ، وَلَا غَرَسَ غَارِسٌ شَجَرًا » (٢) ، وقال الإمام عليّ عليه السلام : « الْأَمَلُ رَفِيقٌ مُؤَنَسٌ » (٣) فهو رحمة كبيرة للإنسان ورفيق مؤنس إذا أظلم طريق الحياة .

### المظاهر الكونيّة تذكرة

إذن المظاهر الكونيّة تذكرة وعبرة ، تُرجع الإنسان إلى ذاته فيتعرّف على ربّه . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (٤) . وهذه العبر والمواعظ يستفيدها الإنسان من المظاهر الكونيّة وهي مصابيح وإشراقات في حياته ، يمكن بواسطتها الوصول إلى الله تعالى ، لذلك أقسم الله تعالى بها ليلفت انتباه الإنسان إلى حركة غائمة وقاتمة ، وأخرى مسفرة ، وإلى نهاية

(١) الجاثية ٤٥ : ١٣ .

(٢) بحار الأنوار : ٧٤ : ١٧٣ .

(٣) غرر الحكم : ٧٢٠٥ . عيون الحكم والمواعظ : ٢٩ .

(٤) الروم ٣٠ : ٨ .

سعيدة ، فهناك قمر في الحياة الدنيا وهناك ظلمة قاتمة وهناك إسفار ، وكل هذه المظاهر تمرّ على الإنسان في أوقات متعدّدة وكثيرة ، لكنّه لا يستفيد منها أخلاقياً . هناك نكتة جميلة في الآية ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ﴾ ؛ إذ أنّ كلمة ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع تتضمن نفيًا ، وإذا أراد شخص أن ينفي ما علق بذهن السامع ويرفع الاشتباه والخطأ لديه ، سيقول له : كَلَّا ، أي أنّ هذا الأمر ليس بصحيح ، ثمّ بعد ذلك يثبت ما يريد .

### المظاهر الكونيّة وطغيان الإنسان

أشار القرآن الكريم في الآيات السابقة إلى أنّ الوليد وصل إلى قمة طغيانه فكذب بالقرآن الكريم وادّعى أنّه ﴿سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ ، وأنّ بإمكانه أن يقضي على الرسالة بالخطّة التي وضعها ، بينما كان بإمكانه أن يزيل غلوائه ويدفع كبريائه بالمظاهر الكونيّة المتغيرة ليكون من أهل الهداية ، قال تعالى : ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (١) ، طريق الهداية واضح وطريق الضلالة كذلك ، والإنسان يختار طريق حياته ، وعليه أن يعلم أنّ حركة الطغيان يمكن أن تؤثر وقد تستمرّ أزمنة طويلة لكن هناك تغييرات يمكن أن تقضي عليها وتزيل ما فعله الطغاة وتستمرّ أيضاً أزمنة طويلة .

### ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبْرَى﴾ (٣٥)

#### الملائكة والمظاهر الكونيّة

الضمير في ﴿إِنَّهَا﴾ يرجع إلى الآية السابقة التي تحدّثنا عنها ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْبَشَرِ﴾ .

ويمكن أن يرجع إلى سقر التي تعني الذوبان .

(١) الأعراف ٧ : ٣٠ .

ويمكن أن يرجع الضمير إلى الآيات والسور القرآنية؛ لأنها عظيمة وكبيرة .  
ويمكن أيضاً أن يرجع إلى الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يعصون الله تعالى  
أمراً ، خصوصاً ملائكة العذاب التسعة عشر؛ لأن الكون بين أيديهم وليس النار فقط .  
وقد يظهر ذلك من بعض خطب أمير المؤمنين عليه السلام التي أشار فيها إلى إمكانيات  
هائلة وقدرات كبيرة منحها الله تعالى للملائكة ، قال عليه السلام : « وَمِنْهُمْ أُمْنَاءٌ عَلَى وَحْيِهِ ،  
وَالسِّنَّةُ إِلَى رُسُلِهِ ، وَمُحْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ ، وَمِنْهُمْ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ ، وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ  
جَنَانِهِ ، وَمِنْهُمْ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ . وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ ،  
وَالخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ » (١) .  
وقال النبي صلى الله عليه وآله : « مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا أَكْثَرَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » (٢) .

إذن هم آية من آيات الله العظمية والكبيرة ، لكنّه يبدو أنّ إرجاع الضمير إلى آيات  
القرآن أو إلى جهنم أكثر تناسباً ولا يحتاج إلى تأويل .

### نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾

#### أثر الإنذار على البشر

في الإنذار تخويف وتهويل وتذكير بالعواقب الوخيمة المترتبة على عدم  
القيام بالعمل ، والرسول صلى الله عليه وآله بشير ونذير ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ  
بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) وآيات القرآن تبشير وإنذار ،  
قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ (٤) ،

(١) نهج البلاغة : ١ : ١٧ .

(٢) ثواب الأعمال : ٩٦ . كامل الزيارات : ١١٤ .

(٣) سبأ : ٣٤ : ٢٨ .

(٤) مريم : ١٩ : ٩٧ .

أما جهنم فليس فيها إلا الإنذار، قال تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ إذا نظرنا إلى الإنذار فسوف يكون مرجع الضمير سقراً، لكونه أقوى في التناسب وأوثق في الارتباط، أي أنه يمكن أن نرجع الضمير على آيات القرآن وعلى سقر وعلى ملائكة الله التسعة عشر، لكننا إذا نظرنا إلى آيات القرآن نجد فيها تبشيراً وإنذاراً، ولذا سوف يكون إرجاع الضمير على سقر لكونها تجسد الإنذار فقط، ويكون ذلك أكثر تلاؤماً، غير أن هذا المعنى يقبل التأويل أيضاً، لكن مصب الكلام وظهوره في معنى، وقد يكون له معنى آخر، إذ أن الظهور درجات فقد يكون معنى أكثر ظهوراً من معنى آخر، فإرجاع الضمير إلى سقر قد يكون بدرجة أوضح من إرجاعه إلى الملائكة أو إرجاعه إلى أي القرآن الكريم.

### لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٢٧﴾

#### حركة الإنسان مع الإنذار

بعد قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ جاءت الآية التي بعدها لتبين تأثير البشر بالإنذار؛ إذ أنه مفيد لأصحاب الإرادات والعزائم والهمم الذين يحاولون جادين أن يتجنبوا المكاره، فهم الذين يشاؤون التقدم ويبتعدون عن جهنم، وهم الذين سيستفيدون من الإنذار، أما من لا عزيمة له ولا همّة عنده فلن يستفيد، سواء كان هناك تخويف أو لم يكن، وسواء كان هناك إنذار أو لم يكن، كله بيان بالنسبة له، وكلا الصنفين متوافر بين الناس، أي أن هناك من إذا ذكّرت ارتدع وخشي، وخاف ووجل، وهناك من لا يسمع ولا يتأثر، والآية ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ ناظرة إلى هذا المعنى في أن الذي يستفيد هو الذي يتأثر بالإنذار

ويخشع فتكون له إرادة الخوف ، أمّا من لا يخشى حين تحذيره من العواقب الوخيمة فهو لا يريد الاستفادة والتقدم ، والآية ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ يحتمل فيها معنيان :

**الأول:** أنّها تبين أنّ من شاء التقدم لجهنّم التي أنذر بها فهو باختياره يتقدم نحوها ، ومن شاء وأراد التأخر عن جهنّم والابتعاد لخوفه منها فباختياره أيضاً يبتعد عنها ، وعليه فإنّ التقدم نحوها يفيد النقص .

**الثاني:** أنّ هناك من البشر من يتأثر بإنذار جهنّم فيشأ لنفسه التقدم نحو مدارج الكمال لذاته ، وهناك من يتأخر عن مدارج الكمال ويتقهقر متراجعاً إلى الوراء ومبتعداً عن كماله الذاتي . إذن معنى ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي في مدارج الكمال والتكامل الذاتي .

أمّا معنى ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ التأخر عن هذا الكمال ، وهذا المعنى الثاني يبيّن حالة التقدم والسير نحو مدارج الكمال المستلزم التأخر عن جهنّم ، أو أنّ التأخر عن مدارج الكمال يؤدّي إلى التقدم نحو جهنّم .

### كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ ﴿٣٨﴾

#### الإنسان مرهون بعمله

تعبير موجود في تعبيرات الدارجة لدى الناس ، إذ يقولون : إنّ الإنسان مرهون بعمله ، أي أنّ الأعمال التي تصدر من الإنسان تصبح مرهونة به .

#### معنى الرهن

الرهن لغة : هو أصل يدلّ على ثبات شيء يمسك بحقّ أو غيره<sup>(١)</sup> ، ويمكن

(١) معجم مقاييس اللغة : ٢ : ٤٥٢ .

توضيح معناه بمثال عمليّ، من أراد أن يقترض مبلغاً من المال من شخص، فسوف يطلب المقرض من المقرض رهناً كي يتوثق ويطمئن على ملكه وماله الذي أقرضه، وبعد إرجاع ماله إليه يُرجع ما أخذه رهناً، وفي العادة تؤخذ الأشياء النفيسة والغالية كالذهب.

إذن الرهن هو وثيقة عمليّة لضمان المال، ولهذا عرفه الفقهاء بأنه وثيقة لدين المرتهن<sup>(١)</sup>، والمرتهن معطي المال أو المقرض، فإذا تأخر المقرض عن السداد في الفترة الزمنية المحددة يستطيع المقرض أن يستنقذ ماله من الرهن الموجود لديه، أمّا الكسب في اللغة فيدلّ على ابتغاء وطلب وإصابة<sup>(٢)</sup>، وهو من المعاني الواضحة، يقال: تاجر بهذه السلعة كي تكسب، وللكسب معانٍ أخرى كالزيادة، ويأتي بمعنى الإحداث والإيجاد للشيء، أي أنّ شيئاً غير موجود إذا أوجدته فقد كسبته، ويمكن أن يكون للكسب كلا المعنيين: أي الزيادة وإحداث العمل وإجاده، ولعلّه لذلك تتّصف الأعمال الصادرة من الإنسان بالمعنيين، فمن صلّى فقد كسب، وقد أوجد وأحدث الصلاة، وإذا نُظر إلى الكسب بهذا المعنى ستصبح أي مفردة من الطاعة، سواء كانت معاملة قول أو فعل يصدر من الإنسان، من الكسب للإنسان، كسبه بمعنى أحدثه، وقد جاء بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾<sup>(٣)</sup>، الرقيب العتيد يسجل ما يصدر من الإنسان؛ لأنّه أحدث شيئاً جديداً، وصحيفة أعماله سيكون فيها إيجادات متكررة لما يقوم به.

إذن الكسب بمعنى الإحداث، ويحمل معنى الزيادة لأنّ الشيء إذا صدر فقد أضيف إلى الرصيد الحسن أو السيئ، وعليه سيكون للإنسان رصيد منذ

(١) شرائع الإسلام: ٢: ٣٢٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٥: ١٧٩.

(٣) سورة ق ٥٠: ١٨.

بدء التكليف إلى آخر يوم من حياته ، بل أن بعض الفقهاء يرى أن رصيد الإنسان منذ كونه صبياً مميّزاً لصحة عبادات الصبي ، ثم يزداد أو يقل حسب ما يصدر من أعمال وأقوال ، قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ \* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ \* وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ \* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ \* وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ \* نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾<sup>(١)</sup> ، فيكون معنى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أن النجاة في الآخرة مرهون بالعمل ، وما صدر من الإنسان سيؤثر في حياته الآخروية ، فإما أن يوثق به نفسه فتصبح مرهونة لجهنم ، وإما أن يزيل الأغلال والقيود التي تبعده عن الله تعالى فتصبح طليقة سائرة نحو ربها ويكون مصيرها إلى الجنة .

### الميزان في القرآن

إن الله تعالى ميزاناً دقيقاً يزن به الأعمال ، وهو أدق من الموازين الالكترونية التي توزن بها المعادن النفيسة كالألماس ؛ لأنها موازين مادية ، أمّا الميزان الإلهي فيزن المادية والمعنوية وتتغير به كل المعادلات ، فمن يقيم علاقة مع صديق أو أخ فقد لا يستطيع أن يزن أعماله الحسنة التي قام بها تجاهه في مقابل ما صدر منه من هفوات أو أخطاء ، وقد يأتي بعض ويشوه صورة الصديق ويحاول أن يبين أن أعماله الحسنة قد ذهبت هباءً منثوراً بذلك الموقف أو بتلك الكلمة التي صدرت منه ، لكن الإنسان يزن صديقه بما لديه من عقل وفكر ووعي وإخلاص ، وعليه فلن يؤثر عليه الخطأ البسيط أو الهفوة .

### الإمام عليّ ميزان حقّ

لدى الإنسان أعمال حسنة وأخرى سيئة إمّا من الناحية المعنوية أو المادية ،

(١) القارعة ١٠١: ٦- ١١ .

والله تعالى يزن الأعمال الحسنة بميزانه الدقيق، ومن مصاديق الميزان الإلهي أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك الأنبياء والرسل عليهم السلام بنحو عام، وقد عدّ ذلك السيد الطباطبائي من التفسير التطبيقي، أي أنّ الإمام عليه السلام هو المصداق الأكمل لإراءة الحق، فمن يزن عمله بلحاظ الإمام عليه السلام لكونه المصداق الأتم والأكمل، وكذا الحال بالنسبة للرسل والأنبياء، ولهذا عبّرت بعض الزيارات لأمر المؤمنين عليهم السلام: «السَّلَامُ عَلَى مِيزَانِ الْأَعْمَالِ»<sup>(١)</sup>، أي أنه عليه السلام ميزان دقيق للأعمال التي تصدر من المؤمن، فإذا قاسها الشخص الكامل على الأمام أمير المؤمنين عليه السلام سيبين له النقص الذي شاب أعماله، أي أنه إذا كان العمل الصادر من المؤمن فيه نقص من جهة من الجهات فعند قياسه بالتام الكامل سيوضح له جهات النقص، ويكون معنى قولنا في الزيارة: «السَّلَامُ عَلَى مِيزَانِ الْأَعْمَالِ»، أي السلام عليك يا من تقاس أعمال الخلائق بعمله ليتبين نقصها من كمالها.

### حقيقة الميزان

أوضح الله تعالى في القرآن الكريم أنّ له ميزاناً دقيقاً، فقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، وأنّ عمل الإنسان إذا جمع فزادت حسناته عن سيئاته سوف ترجح حسناته؛ لأنها أكثر، وقد عبّر الإمام زين العابدين عليه السلام عن ذلك بتعبير دقيق فقال: «وَيْلٌ لِمَنْ غَلَبَتْ أَحَادُهُ أَعْشَارَهُ»<sup>(٣)</sup>، أي أنّ الله تعالى جعل الحسنه بعشر، والسيئة بواحدة، وهي لا تتضاعف، وفي يوم القيامة إمّا أن

(١) المزار: ٤٥. المزار الكبير: ١٨٤ و ١٨٥، وفي الصفحة ٢٠٧ منه: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مِيزَانَ يَوْمِ الْحِسَابِ» ٢٠٧، وفي الصفحة ٣٠٤: «وَمِيزَانَ قِسْطِ اللَّهِ».

(٢) الأنبياء ٢١: ٤٧.

(٣) بحار الأنوار: ٦٨: ٢٤٣.



ترجح السيئات أو ترجح الحسنات ، ويطلب الإنسان من الله تعالى أن يرجح كفة ميزانه ليكون بيناً في رجحانه ، غير أنه لو رجح قليلاً فإن كرم الله تعالى للإنسان سينجيه ، وذلك شبيه بنتائج طلاب المدارس ، فإن لهم مستويات متعددة ممتاز وجيد جداً وجيد ومقبول ، والمقبول ناجح رغم قلة درجاته ، فهو حاصل على أدنى الدرجات ، لكنه ناجح ويتنقل للصف الذي يليه ، كذلك ثقل ميزان العبد ، فإنه سيكون لبعض الناس بمستوى مقبول لأنه حصل على أدنى مستوى للرجحان في يوم القيامة ، وعلى العاقل أن يهتم بمصيره الأخروي وأن لا يكتفي بمستوى متدنٍ ، بل يطمح لأفضل مستوى ؛ لأن الموازين في عالم الآخرة تختلف عن الدنيا ، وإذا كان الإنسان في الدنيا لا يرضى في معاملاته الماديّة بالاستفادة البسيطة والربح القليل في صفقاته ، بل يتأثر إذا لم يربح إلا النزر القليل فإن عليه أن يحزن ويتألم لقلة حسناته .

قد يبذل الإنسان جهداً كبيراً لإتمام صفقة ويتفاوض ساعات طويلة ، ومع ذلك لا يحصل إلا على ربح قليل ، بل قد يتعرض للغبن والخداع في الموازين الماديّة في عالم الدنيا ، ويمكن أن يحصل له ذلك في عالم الآخرة رغم أنه لا غبن ولا خداع من الله تعالى إلا أن الغبن سيظهر له من ناحية أخرى ، قال تعالى : ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِينِ﴾<sup>(١)</sup> ، أي أنه اليوم الذي ينكشف فيه المغبون الخاسر والرايح الظافر ، ولا يعني ذلك أن من أتى بأعمال كثيرة من الطاعات والعبادات والخير ، ونظر له الناس أنه في القمّة ، أنه ربح الآخرة ، فقد لا يكون مخلصاً في عمله لإشابته بالرياء ، قال ﷺ : « إِنْ الْمَلِكُ لِيُصْعِدُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِذَا صَعِدَ بِحَسَنَاتِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : اجْعَلْهُ فِي سَجِينٍ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ إِلَّا بِأَيَّ أَرَادَ بِهِ »<sup>(٢)</sup> ،

(١) التّغابن ٦٤ : ٩ .

(٢) مستدرک الوسائل ١ : ١١٠ .

أي أن عمل العبد أصبح هباءً منثوراً لعدم إخلاصه لله تعالى ، أو لأنه قضى على حسناته بمعصية من المعاصي كالغيبة فحسر أعماله الصالحة ، قال ﷺ : «يُؤْتَى بِأَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، وَيُدْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابُهُ فَلَا يَرَى حَسَنَاتِهِ ، فَيَقُولُ: إِلَهِي ، لَيْسَ هَذَا كِتَابِي ، فَأَنِّي لَا أَرَى فِيهَا طَاعَتِي ؟

فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ لَا يَضِلُّ وَلَا يَنْسَى. ذَهَبَ عَمَلُكَ بِاِغْتِيَابِ النَّاسِ .

ثُمَّ يُؤْتَى بِأَخْرَ وَيُدْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابُهُ ، فَيَرَى فِيهَا طَاعَاتٍ كَثِيرَةً ، فَيَقُولُ: إِلَهِي ، مَا هَذَا كِتَابِي ، فَأَنِّي مَا عَمَلْتُ هَذِهِ الطَّاعَاتِ ؟

فَيَقُولُ: إِنَّ فَلَانًا اغْتَابَكَ فَدَفَعْتُ حَسَنَاتَهُ إِلَيْكَ» (١).

وهذه الرواية تضيف معنى أوسع للكسب في قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ ويصبح مفهومه يشمل التأثير المتبادل بين الحسنات والسيئات .

## إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾

### معنى أصحاب اليمين

تحدّثت الآية المباركة عن شموليّة في كون كلّ نفس رهينة بما يصدر عنها ، إن كان خيراً جزيت به ، أو سوءاً أخذت به ، وليست هي عامّة للجميع ، بل هناك استثناء أبانته الآية التي بعدها ، قال تعالى : ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ ، أصحاب اليمين مرهونون بأعمالهم أيضاً غير أنهم ذكروا لتمييزهم ؛ إذ أنّ هناك تمييزاً لأناس يخصّون بالذكر ، وهم أصحاب اليمين ، وهناك نظريتان في أصحاب اليمين :

**الأولى** : إنهم الذين لم تصدر منهم خطايا ، لا صغائر ولا كبائر .

(١) مستدرک الوسائل : ٩ : ١٢١ .

## أقسام العصمة

قد يأتي سؤال: هل هناك أناس لا تصدر منهم خطايا لا صغائر ولا كبائر غير الأنبياء والرسل والأوصياء عليهم السلام؟

نعم، ولكنهم قلة، حيث إن هناك من تتيح له الظروف التي تكتنفه وتحيط به أن يعيش في بيئة صالحة منذ نعومة أظفاره، وبالتالي لا تصدر منه ذنوب لا صغائر ولا كبائر، ويعبر عنه بأن لديه عصمة مكتسبة، أي أنه ينفر بطبيعته من الذنب، فهو لا يرضى أن تغتاب أحداً بحضوره، ويتعد عن الكذب، وشرب الخمر والزنا وغير ذلك من المعاصي الصغائر والكبائر، فيصبح من أصحاب اليمين الذين لديهم عصمة مكتسبة.

العصمة على قسمين:

**الأول:** عصمة من لدن الحق تعالى، وتكون لمن اصطفاهم الله تعالى واجتباهم، ومن أوضح مصاديقها النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام، فإن لديهم عصمة لدنيّة، وهي منحة إلهية جبلهم الله تعالى عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (١).

**الثاني:** عصمة مكتسبة تتأتى عبر اختيار الإنسان منذ صغره يتربى على مبادئ الخير والفضيلة، فلا يصدر منهم ذنب، وقد نقلت قصص عن بعض العلماء كالرضي والمرضى بأنهما كانا على درجة كبيرة من تقوى الله تعالى والبعد عن الذنوب، لعلها من العصمة المكتسبة.

**الثانية:** أن أصحاب اليمين هم الذين يأخذون كتبهم بإيمانهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكُلٌّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ

(١) الأحزاب ٣٣: ٣٣.

مَنْشُورًا ﴿١﴾ ، فمن أعطي الكتاب يمينه يوم القيامة أبرزه وأظهره ، قال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَذَا مَا أقرُّوا كِتَابِيَهُ﴾ ﴿٢﴾ ، أمّا من أُعطي كتابه بشماله غطاه ولم يظهره للآخرين ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ ﴿٣﴾ ؛ وذلك لأن موازينه ليست راجحة .

### فِي جَنّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾

#### البعد الأخلاقي لمفهوم اليمين

اليمين مأخوذ من اليمن وهو بمعنى البركة<sup>(٤)</sup> ، والبركة تعني الكثرة ، أي أنّ من تكثر أعمال الخير منه يصبح مباركاً ويكون من أصحاب الميمنة ، والتعبير يدل على كثرة الخيرات الصادرة منه الملازمة له التي يبرز بها ، أي أنّ شخصيته تظهر بواسطة أعمال الخير الصادرة منه عكس أصحاب المشئمة ، فهم الذين تكثر سيئاتهم ، وتقل البركة في أعمالهم ، ويبرزون كأصحاب شؤم ، ولهذا استثنوا التمكّن صفات الخير في ذواتهم وهم يتساءلون عن غيرهم لأنهم يريدون الخير للجميع ، قال تعالى : ﴿فِي جَنّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ \* عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ، وأيضاً لأنهم فاكهون في الجنة وعلى سرر متقابلون ؛ لأنّ الله تعالى يغدق عليهم من خيراته وهباته وعطاياه بلا حد .

#### الصلة بين أهل النعيم وأهل الجحيم

هناك صلة بين من هو في غاية النعيم ومن هو في سوء الجحيم ، وهنا نحتاج

(١) الإسراء ١٧ : ١٣ .

(٢) الحاقة ٦٩ : ١٩ .

(٣) الانشقاق ٨٤ : ١٠ .

(٤) معجم مقاييس اللغة : ٦ : ١٥٨ .

إلى مقدّمة كي يتمّ التعرّف على الارتباط بين أهل الجنّة وأهل النار.

لقد ذكرنا أنّنا أنّ معنى سقر هو الذوبان ، أي أنّها تقوم بإنهاء وإذابة من أدخل فيها ﴿لَا تُسَبِّحِي وَلَا تَذَرُ﴾ ، والذي لا يُسبّح ولا يُذَر يعيده الله تعالى مرّة أخرى ليتعدّب بنفس الحالة التي جرت عليه ، ورغم ذلك فهناك صلة بين أهل النار وأهل الجنة ، هي أنّ أهل الجنة وأهل النار يتحاورون ، وينادي كلّ منهما الآخر ، قال تعالى : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup> ، كذلك ينادي أصحاب النار أهل الجنة ، قال تعالى : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> ، كما أنّ هناك صلة بين من يعيش متنعماً وبين من يعيش الفقر المدقع في الدنيا ، فأيضاً هناك صلة في عالم الآخرة ، فعندما يصدر من شخص فعل يؤدّي به إلى نهاية سيئة يلومه ويعاتبه الآخرون ، ويتساءلون كيف صدر ذلك العمل السيئ منه ؟ ويخاطبونه لقد أضعت مستقبلك ، ولم تحقّق النجاح !!

وحيث إنّ يبرّر ما يصدر منه ويبيد الأسباب والدوافع لما قام به ، وقد يرجع ذلك إلى صديق أغواه فسار به إلى طريق منحرف ، مع أنّ الصديق ليس له قدرة على جعل الإنسان مجبوراً لا يملك قدرة على المخالفة ؛ إذ يمكنه تحكيم العقل واستشارة أصحاب النهي ، وحيث إنّ سيّئاً سيّئاً له عدم صواب ما صدر من صديقه .

### حقيقة المجرمين

ما ذكرناه من تساؤل في الدنيا يأتي في الآخرة ، فأهل الجنّة وأصحاب اليمين

(١) الأعراف ٧ : ٤٤ .

(٢) الأعراف ٧ : ٥٠ .

في تلك الأجواء المفعمة بالسعادة والفرحة بدخولهم الجنة في حالة تساؤل وتعجب ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ \* عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ، وكيف آل حالهم إلى سقر؟

إن بحث المجرمين في القرآن الكريم يستحق التأمل ، من هنا نتساءل من هو المجرم؟

الجرم في اللغة هو التعدي ويُراد منه الجرم ، لكن القرآن يبيّنه بمعنى دقيق حيث إنه ليس من يقترف الذنب فحسب ، بل من يتلبس بالجرم فيصبح الجرم والجريمة جزءاً من شخصيته ، أي أنّ هناك عاصٍ لكنه ليس بمجرم ، قد يرتكب بعض الذنوب الصغيرة أو التي ليس لها تلك الآثار الفردية والاجتماعية المؤثرة ، وهناك من يقترف معاصٍ كبيرة تهدد المجتمع ، كالمقاتل فيُطلق عليه مجرم ؛ لأنه يسلب المجتمع الأمن والطمأنينة ، كذلك حال من يدخلهم الله تعالى سقر ، فهم أصبحت الجريمة والسوء والابتعاد عن الحقّ تعالى جزءاً أصلياً من ذاتهم .

### مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾

#### خصال أهل سقر

ولمّا يتساءل أهل الخير عن المجرمين للعلاقات التي تربطهم بهم في الدنيا ، ولأنّهم يرون ما حلّ بأصحاب الشمال من نهاية مأساوية فيتساءلون عن المصير الأسود ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ، أي ما الذي جعلكم تدخلون العذاب الأليم وتكونون من أصحاب سقر؟

فيأتي جواب المجرمين ليعدّوا الصفات التي أودت بهم إلى الحالة السيئة ، وعندما ينقل القرآن الكريم ذلك الحوار ينقله لتنعظ ونستفيد كي نتجنّب تلك الصفات المهلكة التي أودت بهم إلى سقر ، وهي :

## قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾

### السمة الأولى: ترك الصلاة

أول سمة يذكرها المجرمون ترك الصلاة ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ، الصلاة من الواجبات الضرورية التي اهتم بها الإسلام ، لما لها من دور كبير في حياة الإنسان ، ولهذا شبّهت الروايات الصلاة بالنهر الجاري الذي ينقي جسد الإنسان من الدرن . قال الإمام الصادق عليه السلام : « لَوْ كَانَ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ نَهْرٌ فَأَغْتَسَلَ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، هَلْ كَانَ يَبْقَى عَلَى جَسَدِهِ مِنَ الدَّرَنِ شَيْءٌ ؟ إِنَّمَا مَثَلُ الصَّلَاةِ مَثَلُ النَّهْرِ الَّذِي يُنْقِي ، كُلَّمَا صَلَّى صَلَاةً كَانَ كَفَّارَةً لِذُنُوبِهِ ، إِلَّا ذَنْبٌ أَخْرَجَهُ مِنَ الْإِيمَانِ مُقِيمٌ عَلَيْهِ »<sup>(١)</sup> ، أي أن ترك الصلاة مقدّمة لأعمال مهلكة يقتربها المرء .

### حقيقة الصلاة

كثير من الناس يؤدّي الصلاة ، وكثير منهم لا يؤدّيها ، من هنا علينا أن نعرف معناها الحقيقي كي لا نتوهّم أنها القيام والقعود والركوع والسجود فحسب ، بل إنّ معناها هو الصلة بين العبد وربّه ، الصلة الوثيقة التي لا انفصال لها ، ولهذا عنت النصوص الواردة تلك الحقيقة ، وبيّنت عظمة تلك الصلة ، وأنّ الأعمال كلّها متوقّفة على قبولها .

عن أبي بصير ، قال : « سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةَ ، فَإِنْ قُبِلَتْ قُبِلَ مَا سِوَاهَا ، وَإِنْ الصَّلَاةَ إِذَا ارْتَفَعَتْ فِي وَقْتِهَا رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ بَيْضَاءُ مُشْرِقَةٌ تَقُولُ : حَفِظْتَنِي حَفِظَكَ اللَّهُ ، وَإِذَا ارْتَفَعَتْ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا ، بَغَيْرِ حُدُودِهَا ، رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ : ضَيَعْتَنِي »

(١) بحار الأنوار : ٧٩ : ٢٣٦ .

ضَيَعَكَ اللَّهُ» (١).

## الآثار المعنوية للصلاة

إن من الآثار المعنوية للصلاة ردع الإنسان عن الفحشاء والمنكر ، قال تعالى :  
﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ  
وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٢) ، وتحقق العروج المعنوي للروح .

قال رسول الله ﷺ : « الصَّلَاةُ مِعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ » (٣) ، أي أنها يتحقق بها لروحه العروج إلى الملكوت الأعلى ، غير أن بعض المصلين يتذكر كل شيء في صلاته ، فينشغل ذهنه وفكره عنها ، ولا يكون مع الله تعالى ، ولهذا لا صلة بينه وبين الله تعالى .

والصلاة الحقيقية هي التي يخشع فيها العبد ويخضع لله تعالى ، ويظهر التذلل والافتقار للغني المطلق ، لتكون صلاته صلة وثيقة بينه وبين الباري تعالى ، من هنا على المصلي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تقطع الصلة فتكون الصلاة مجرد حركات وألفاظ يؤديها دون أن يعي معناها ، هناك تعبير لأحد الشعراء المبدعين بين فيه أن يزيد وغيره ممن هم على شاكلته يتشهدون الشهادتين في الظاهر غير أنهم يقضون على حقائق التوحيد ومعاني الرسالة في الواقع ، قال يرحمه الله :

لَئِنْ جَرَتْ لَفِظَةُ التَّوْحِيدِ فِي فَمِهِ      فَسِيْقُهُ بِسِوَى التَّوْحِيدِ مَا فَتَكَ

أي أنه يتلفظ بـ (لا إله إلا الله) لكنه يحارب الله ورسوله ، بإساءته إلى أبناء النبي ﷺ وعترته ، فيقتلهم ويفعل المنكرات بهم ، فلم يعي حقيقة الصلاة من أنها

(١) تهذيب الأحكام : ٢ : ٢٣٩ .

(٢) العنكبوت ٢٩ : ٤٥ .

(٣) مستدرک سفينة البحار : ٦ : ٣٤٣ .



الارتباط الوثيق الذي عبّر عنه الحقّ تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، أي أنّ ذكر الله تعالى الذي يحصل عليه المصلّي هو أكبر وأعظم، لأنّه عرج بروحه في صلاته، ووعى معنى الكبرياء الإلهي بقول: (الله أكبر)، وفقه معنى الصلاة فمنعته عن اقتراف الذنوب والمعاصي، قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَقْبَلَتْ صَلَاتُهُ أَمْ لَمْ تُقْبَلْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ مَنَعَتْهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، فَيَقْدِرِ مَا مَنَعَتْهُ مِنْهُ قَبِلَتْ مِنْهُ»<sup>(١)</sup> أبان الإمام عليه السلام الميزان الذي ميّز الصلاة المقبولة عن غيرها، والحديث يحفّز المؤمن والمؤمنة بالاهتمام بالصلاة حيث تكون مقبولة على الدوام لتنهى عن المعاصي والذنوب.

إذن تتجلّى حقيقة الصلاة بمقدار ما تحدّثه إيجاباً على سلوك الإنسان وترتقي به نحو الكمال، أمّا من لم تحدّث له صلاته صلة بينه وبين الله تعالى، ولم يرتبط بالحقّ تعالى، فإنّه لم يصل حقيقةً؛ إذ أنّ الصلاة ليست حركات، والصيام كذلك، ليس تركاً للطعام والشراب، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالظَّمْأُ وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ وَالْعَنَاءُ حَبْدًا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَإِفْطَارُهُمْ»<sup>(٢)</sup>، وبذلك نعي المعنى الدقيق لقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُومِينَ﴾.

## وَلَمْ نَكُ نُنْطَعِمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾

### الثانية: ترك إطعام المسكين

السمة الثانية ترك إطعام المسكين، أي أنّ أصحاب سقر لا يتفاعلون مع الفقراء

(١) مجمع البيان: ١٦: ٢٠٤.

(٢) نهج البلاغة: ٤٩٥ (صبيحي الصالح).

والمعوزين وأهل المسألة والاحتياج، مع أنّ لديهم المكنة والقدرة لكنهم يبخلون بما آتاهم الله تعالى من فضله ولا يتجاوبون مع أصحاب الفقر والحاجة.

إنّ الإنفاق سمة أساسية هامة للمؤمن أكدتها آي القرآن الكريم كثقافة إسلامية، وأنّ على المسلم البذل والإنفاق بإطعام الفقراء المحتاجين، والإنفاق على قسمين:

### الأول: الإنفاق الواجب.

وهو الذي يلزمنا إخراجه، سواء كان زكاة للغلات الأربع: الحنطة والشعير والتمر والزبيب، أو للنفدين: الذهب والفضة؛ أو الأنعام الثلاثة: الإبل والبقر والغنم، أو زكاة الفطرة، أو الخمس، أو غير ذلك من الكفارات الواجبة، فهذه الأنواع يجب إخراجها بشروط معينة ذكرها الفقهاء في رسائلهم العملية.

### الثاني: الإنفاق المستحب.

كالصدقات للتوسعة على الفقراء والمعوزين، أو دعم المشاريع الخيرية، أو التبرعات للمساجد والحسينيات، وغير ذلك من الإنفاق المستحب.

يرتقي الإنفاق بالإنسان إلى الله تعالى، وهو طريق سريع للوصول إلى الكمال، وله آثار كثيرة، من جملتها زيادة المال وكثرته، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾<sup>(١)</sup>، أي أنه يزيده ويضاعفه، وهناك آثار كثيرة تترتب على الإنفاق، من أعظمها توثيق الصلة بين العبد وبين الحق تعالى.

### الآثار الاجتماعية للإنفاق

وقد أشار العلماء إلى بعض آثار الإنفاق، حتّى وإن كان على نحو الكرم؛ إذ أنه يحقّق الأمن الاجتماعي ويقضي على الجريمة؛ لأنّ كثيراً من الإشكاليات

(١) سبأ ٣٤: ٣٩.

التي تخلّ بالأمن ناتجة من الفقر. قال النبي ﷺ: «كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا»<sup>(١)</sup> وإذا تمّ تلبية حاجة الإنسان الماديّة ورُفِع عنه العوز، ففي الأعم الأغلب يتاح له أن يشتغل بالأموال التي يرتقي بها في المجالين الماديّ والمعنويّ، بينما إذا لم تتمّ تلبية حاجاته الماديّة وبقي تحت وطأة العوز والحاجة الشديدة فإنّه قد يصبح أرضاً خصبةً للجريمة، ولهذا أشارت الروايات إلى خطورة الفقر، قال الإمام عليّ عليه السلام: «لو تمثّل لي الفقر رجالاً لقتلته»<sup>(٢)</sup> تعبير كنائيّ عن لزوم الحرب والنضال في إزالة الفقر من الواقع الاجتماعيّ.

إنّ الله تعالى يكرّم المنفقين الباذلين الذين لا يكتزون الأموال، أو الذين لديهم هدف من كسب المال هو الإسهام في مشاريع الخير، فتراه ينمي الأموال من أجل الإسهام في مجالات الخير، وعليه فإنّ جمع المال لكسب فضيلة الإنفاق في سبيل الله والإسهام في مشاريع الخير أمرٌ محمود، أمّا إذا جُمع للتفاخر أو المباهاة أو غير ذلك من الأمور التي لا تعود على الإنسان بمحمدة في دنياه أو أخره، فإنّه سيستعبد جامعه، فيكون جمعه مذموماً، وكثير من الناس يجمع المال فيؤثر عليه، ويصبح عبداً له بدلاً عن عبوديته لله تعالى، فيسيطر عليه حبّ المال، وقد يتحوّل إلى مجرم لا يرقّ ولا ينفق، بل يسيطر عليه جشع المادّة، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ﴾، ولا يراد بالإطعام إعطاء الطعام فحسب، بل هو تعبير يشمل سدّ كلّ موارد الحاجة التي يحتاج إليها المسكين، ولذلك كان أكل مال اليتيم ليس بمعنى تناوله بالفم، بل صرفه دون وجه حقّ، والإطعام والأكل تعبيران يراد بهما الإسهام، وهو هنا يشمل كلّ ما فيه سدّ لحاجة ببذل المال ورفع العوز والفقر، أو بفعل يحقّق خيراً للمحتاج، قال ﷺ: «الْكَلِمَةُ

(١) الكافي: ٢: ٣٠٧.

(٢)

الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»<sup>(١)</sup>؛ لأنها تؤثر في رفع معنويات سامعها، وتصبح بلسماً يخفف من آلامه ويواسيه، وهذا الإسهام له من الآثار ما لا يعلم به إلا الله تعالى، منها نماء المال وبركته. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

إذن على المؤمن أن يحاول جاداً إنفاق المال الذي آتاه الله تعالى إياه في كل أعمال الخير، ولا يوقف نفسه على عمل دون آخر؛ لأنه لا يدري أي الأعمال يقبل منه، وأي الخيرات للإسهام يرفع درجته، إن بعض الناس يسهم في عملين أو ثلاثة ثم يتوقف عن الإنفاق، وهو خاطئ؛ إذ أن عليه أن يستمر في الإسهام في مجالات الخير، حتى يطمئن بتحقق الرضا والفوز بما يرضي الله تعالى ويقربه للمقام المحمود.

### وَكَانَا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾

#### السمة الثالثة: الخوض مع الخائضين

هذه هي السمة الثالثة، وفيها درس أخلاقي من أعظم الدروس التي ينبغي أن يتوجه إليها المؤمن.

#### معنى الخوض مع الخائضين:

نستخدم هذا التعبير كثيراً في بلدنا -الأحساء- فنقول: خضت في الماء، ونستخدمه أيضاً في معنى دخلت في الشيء فأثر عليّ، فالخوض في الماء يؤثر

(١) بحار الأنور: ٧٤: ٨٥.

(٢) البقرة ٢: ٢٦١.

على الخائض فيه ، فيبلى ثيابه ، وهذا المعنى مقارب للاستعمال في القرآن الكريم ؛ إذ أنّ المراد به الاشتغال بالباطل والتأثر به ، وسنحاول أن نوضح المعنى ببعض الأمثلة ، قد يتحدث بعض مع جماعة بالمزح في بعض الأمور ، ثمّ يدخلون بالسخرية والاستهزاء بالآخرين واستصغار شأنهم ، ثمّ بالكذب والغيبة والنميمة عليهم ، أو بأمر نهى الحقّ تعالى عنه ، ثمّ يدخل بعض معهم ويشاركهم أو يوافقهم ، إلى أن يكون كأحدهم ، فيكون قد اشتغل بالباطل وتأثر به ، بينما هناك فئة من الناس عندما يتحدث جماعة بالباطل لا تسمح لنفسها أن تخوض فيه معهم ؛ لأنّ ارتباطها بالله وتذكره يمنعها من ذلك ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، أي أنّ المؤمن حين يتذكر يدع الباطل لبصيرته ، ولعلمه بأنّ الخوض فيه يأخذه شيئاً فشيئاً إلى متاهات مظلمة ؛ لأنّ بعض الأمور تجرّه إلى شيء آخر ، فالخير يجرّ إلى خير ، والسوء والباطل يجرّ إلى سوء وباطل ، وهنا يأتي دور تربية النفس على الإيمان بالآخرة ، لما له من دور كبير في تحويل السوء والباطل إلى خير ، ويتحقّق ذلك بالاهتمام بها ، وقد سأل سائل عن كيفية الاهتمام بأمر الآخرة ؟ فأجبتّه : أنّ الإنسان يهتمّ بأمر الدنيا ، ويحاول أن يطوّر نفسه ويرتقي بها ، فإذا اشتغل في شركة فإنّه سوف يطوّر مهاراته كي يحصل على المكان الذي يليق بمستوى مهاراته والدورات التي تلقّاها ، هذا النحو من الاهتمام بالدنيا إذا اهتمّ على نسقه بأمر الآخرة فسوف يصل إلى مبتغاه ، وقد ألفت انتباهنا القرآن الكريم إلى ذلك ، قال تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ، ويراد بالعمل معناه الواسع الذي له أهميّة كبيرة في البناء الأخلاقي للإنسان ، وأثره في عالم الآخرة الفوز والسعادة الأبدية .

(١) الأعراف ٧ : ٢٠١ .

(٢) التوبة ٩ : ١٠٥ .

## الاشتغال بالباطل ونسيان الإيمان

يؤثر الاشتغال بالباطل في شخصيّة الإنسان ، فينسيه إيمانه وقيمه ومبادئه والمثُل التي يؤمن بها ، فإذا كان يرى أنّ الاستهزاء بالمؤمنين أمراً عادياً مقبولاً ، فإنّه سينسلخ عن إيمانه ، وقد يكون ذلك بواسطة شخص يسوّله فيوقعه في المعصية ، كما حدث ذلك في عهد أمير المؤمنين عليه السلام ، فقد ورد : « خَرَجَ النَّجَاشِيُّ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ فَمَرَّ بِأَبِي سَمَّالِ الْأَسَدِيِّ وَهُوَ قَاعِدٌ بِفِنَاءِ دَارِهِ فَقَالَ لَهُ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ : أُرِيدُ الْكُنَاسَةَ . »

قَالَ : هَلْ لَكَ فِي رُءُوسِ وَأَلْيَاتٍ قَدْ وُضِعَتْ فِي التُّنُورِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ فَأَصْبَحَتْ قَدْ أَيَّعَتْ وَقَدْ تَهَرَّأَتْ ؟ قَالَ : وَيْحَكَ ! فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ ؟

قَالَ : دَعْنَا مِمَّا لَا نَعْرِفُ . قَالَ : ثُمَّ مَهْ ؟

قَالَ : قَالَ : ثُمَّ أَسْقِيكَ مِنْ شَرَابٍ كَالْوَرَسِ يَطِيبُ فِي النَّفْسِ ، يَجْرِي فِي الْعُرُوقِ ، وَيَزِيدُ فِي الطَّرُوقِ ، يَهْضِمُ الطَّعَامَ ، وَيَسْهَلُ لِلْفُؤْمِ الْكَلَامَ ، فَنَزَلَ فَتَعَدَّيَا ، ثُمَّ أَتَاهُ بِنَبِيذٍ فَشَرِبَاهُ ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ عَلَتْ أَصْوَاتُهُمَا ، وَلَهُمَا جَارٌ يَتَشَبَّعُ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ عليه السلام فَاتَى عَلِيًّا عليه السلام فَأَخْبَرَهُ بِقِصَّتَيْهِمَا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا قَوْمًا فَأَحَاطُوا بِالِدَّارِ ، فَأَمَّا أَبُو سَمَّالٍ فَوُتِبَ إِلَى دُورِ بَنِي أَسَدٍ فَأَفْلَتَ ، وَأَمَّا النَّجَاشِيُّ فَاتَى بِهِ عَلِيًّا عليه السلام ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَقَامَهُ فِي سَرَاوِيلَ فَضْرَبَهُ ثَمَانِينَ ، ثُمَّ زَادَهُ عَشْرِينَ سَوْطًا ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمَا الْحَدُّ فَقَدْ عَرَفْتَهُ ، فَمَا هَذِهِ الْعِلَاوَةُ الَّتِي لَا نَعْرِفُ ؟ قَالَ : لِحُجْرَاتِكَ عَلَى رَبِّكَ ، وَإِفْطَارِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ <sup>(١)</sup> .

وفي هذه الرواية نجد التأثير بالتسويل والتزيين من قبل الآخرين ، خصوصاً الأصدقاء ، إلى الخوض والاشتغال بالباطل والتأثر به ، حتى يتهيأ إلى دخول سقر ،

(١) مستدرک الوسائل : ١٨ : ١١٣ .

لنسيانه لله تعالى ، فيؤدّي به أن ينسى نفسه ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، إنّ من نسي نفسه سوف ينسى كلّ شيء ، وحينئذٍ سيستسهل اقتراف الذنوب والمعاصي كالكذب ، وقد يوسوس له الشيطان بالتوبة بعد ذلك ، وهذا خطر عليه ، لهذا لا بد للمؤمن من ترك الباطل والاشتغال بذكر الله تعالى بمجرّد أن يخوض مع خائضين ، ممّن ليس لديهم ورع ولا تقوى ولا إيمان يحجزهم عن المعاصي ، فيبتعدون عن قيم الحقّ ويؤثرون الباطل ، فيوقعون الناس في شراكهم ، ويتدرّجون بهم حتّى ينسلخ إيمانهم ، فيكونون من أصحاب النار ، وقد أشار القرآن الكريم في موارد متعدّدة إلى هذه المسألة الأخلاقية . قال تعالى : ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَباللهِ وَإِيَّاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾<sup>(٢)</sup> .

### كبح جماح النفس

إنّ من الضروري أن يكون للمؤمن كوابح كفرامل السيارة ، إذا جلس مع جماعة يتحدّثون في شيء ، فلا يدعهم تسرع بهم الخطى إلى الباطل ، بل يحاول بتفكيره أن يزن حديثهم بموازين شرعيّة ، ويتساءل هل هو سائغ أم لا ؟ فإن كان سائغاً دخل معهم ، وإن رآه غير سائغ ابتعد عنهم ، خصوصاً في موارد الاستهزاء بالصالحين المؤمنين أو بآيات القرآن أو بأئمة أهل البيت عليهم السلام أو بالقيم والمبادئ ؛ إذ قد يبتعد شخص عن الربا ، ولا يريد جمع المال من الحرام ، رغم أنّه يستطيع أن يقترفه ، كما عبّر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في شخص يعرف وجه الحيلة ، لكنّه لا يحتال ، لعلمه بالعاقبة أنّها سقر التي لا تبقي ولا تذر ، وذلك كابح ، ولهذا

(١) الحشر ٥٩ : ١٩ .

(٢) التوبة ٩ : ٦٥ .

فإن وجود الكوايح مسألة أساسية في عملية التكامل الأخلاقي والنفسي، ومن يرد الله تعالى والدار الآخرة لا بد أن يلتزم بالواجبات، كالصلاة والإنفاق في سبيل الله تعالى وأمور الخير الأخرى، أما من ليس لديه كوايح تضبط حركته، فإنه لن يسيطر على نفسه، وسيُغلب ويُسيطر عليه، ويستقط في الهاوية، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>، أي أن للكوايح خاصية منع الإنسان من الوقوع فيما يضره ويؤدي به إلى الهلكة، والصيام - خصوصاً في شهر رمضان - من أكبر الكوايح لتصرفات الإنسان وسلوكه؛ لأن المؤمن تتوافر لديه في نهار الصيام أطيب أنواع المأكول والمشرب والملذات الأخرى، لكنه يتذكر الآخرة، فيتركها لله تعالى، ويكبح جماح نفسه ويصبر.

### نتيجة موقظة

إذن من أراد أن ينجو من سقر لا بد أن يضع لنفسه كوايح، وإذا رأى من يتحدث في باطل أو يدخل فيه أبعد نفسه عنه وربطها برباط وثيق، لئلا يدخل في باطل لا يستطيع أن يخرج منه، وأهم شيء لجعل الإنسان يمتلك الكوايح تذكر الآخرة، أي أن يكون على ذكر للقيامة وعذاب الله تعالى؛ لأن ذكر الموت والآخرة له أبلغ الأثر في تكامل الإنسان معنوياً، ففي رواية: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ يُحْشَرُ مَعَ الشُّهَدَاءِ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ بَيْنَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَشْرِينَ مَرَّةً»<sup>(٢)</sup>؛ لأن عالم الآخرة والموت له التأثير الكبير على أعمال الإنسان وصلاحه، فإنه إذا سؤلت له نفسه ارتكاب الباطل وتذكر الآخرة ارتدع، لكونه يعرف أن نهاية اللذة بالباطل قليل، ثم تبقى آثاره المترتبة على اقترافه، وفي كثير من الأحيان يندم

(١) التوبة ٩: ١٠٩.

(٢) مستدرک الوسائل ٢: ١٠٤.



الإنسان على ذلك ، فمن تصرف في أموال الآخرين من دون رضاهم ، أو اختلس ، أو سرق مالا منهم ، سيعلم أن المال لن يبقى ، وسينتظره العذاب الأخروي الذي لا نفاذ له ، بخلاف ما إذا كان على ذكر دائم للموت ، فكلما سؤلت له نفسه وزين له الشيطان سيتذكر الآخرة ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لَا وَجَعَ أَوْجَعُ لِلْقُلُوبِ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَلَا خَوْفَ أَشَدُّ مِنَ الْمَوْتِ ، وَكَفَى بِمَا سَلَفَ تَفَكُّرًا ، وَكَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا »<sup>(١)</sup> . قوله عليه السلام : « وَكَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا » ، أي أنه لا يحتاج المرء إلى أكثر من الموت كي يتعظ ويدع السوء والباطل ، وقد ركز القرآن على هذا الطريق ، فإن آيات القرآن اهتمت بعالم الآخرة والمعاد أعظم من اهتمامها بالأمر الأخرى ، بأنها المسألة الأساسية حتى ورد في القرآن أكثر من ألف وسبعمائة آية ، بينما بقية الأمور فيها آيات معدودة ، ويعود السبب إلى أن حياة الإنسان الحقيقية ترتبط بعالم الآخرة ، ولهذا فإنه بمجرد أن يفكر فيه سرعان ما يلتفت ويتنبه إلى رشدته وهدايته .

### وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾

#### السمة الرابعة: التكذيب بيوم الدين

من ينسى الآخرة سوف يكذب بيوم الدين ، والتكذيب عامل أساس للاصطلاء بسقر؛ ذلك أن الإنسان يعلم أنه سيموت ، وهذا أمر قطعي بالنسبة له ، فإذا كان لديه رشد فإنه سيتذكر الموت ، وسيجره ذلك شيئاً فشيئاً إلى الإيقان بالحياة الأخروية ، وحينئذٍ ستتكامل الملكات النفسانية الخيرة في ذاته مع تكامل إيمانه ، وعكسه من يكذب بيوم الدين ، فإنه سيتسافل ، وسيجره إلى المهالك وإلى جهنم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) الكافي: ٢: ٢٧٥ .

(٢) النساء: ٤: ١٤٥ .

إذن من أراد أن ينجي نفسه من العذاب المهول وعذاب سقر فإن عليه أن يعمل ما يقربه إلى الله وإلى الرشد، وسوف يحصل على الرقي والتكامل.

### حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

#### نتيجة السمات الأربع

السمات الأربع السابقة سبب لدخول المجرمين إلى سقر: ترك الصلاة، وعدم إطعام المساكين، والخوض مع الخائضين، والتكذيب بيوم الدين، وقد كانت ملازمة لهم حتى أتاهم الموت ﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾، فُسِّرَ اليقين بتفسيرين: **الأول:** الموت، ويشهد له، قول الإمام الصادق عليه السلام: «مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ أَشْبَهَ بِشَكِّ لَا يَقِينَ فِيهِ مِنَ الْمَوْتِ»<sup>(١)</sup>، ومعناه أن كل الناس يوقنون أنهم سيموتون، ويجزمون بذلك لكنهم يعملون مع الموت عمل الشاك ﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾. إذن يراد باليقين الموت.

**الثاني:** يراد به الحقائق المتيقنة التي تتجلى في عالم الآخرة، يُصدَّق بها الإنسان ويصبح موقناً رغم أنه لم يكن على يقين بها في الحياة الدنيا.

ومن لم يصدَّق بها سوف يبقى في حالة ارتياب وشك، خصوصاً إذا لم يبدأ بتكميل نفسه شيئاً فشيئاً بالأعمال الصالحة وتطهيرها من دنس الذنوب، فإنه إذا جاء الموت واطَّلَعَ على عالم الآخرة تجسدت له الحقائق وأصبحت واقعية، وحينئذٍ سيقول: إنني كنت شاكاً والآن على يقين، غير أن ذلك اليقين لم يفده شيئاً، وقد أشار الحق إلى ذلك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) من لا يحضره الفقيه: ١: ١٩٤.

(٢) سورة ق: ٥٠: ٢٢.

## فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾

### معنى الشفاعة

معنى الشفاعة في اللغة نفس المعنى في العقيدة ، أي أنّ الاستخدام العقديّ هو نفس الاستخدام اللغويّ ، فهي مأخوذة من الشفع وهو يقابل الوتر **﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾** <sup>(١)</sup> ، الوتر هو: كلّ شيء كان فرداً <sup>(٢)</sup> ، أي أنّ المفرد وتر ، والشفع هو ما كان من العدد أزواجاً <sup>(٣)</sup> ، أي المزدوج أو الزوج .

ومعنى الشفاعة هي كون المرء لديه أعمال خيرة ، غير أنّ الأعمال لا تؤهله للحصول على الرضوان الإلهيّ أو الجنة ، وحينئذ يأتي دور الشفيع ، فيشفع له الحقّ تعالى ، أو الأنبياء والرسل ، أو الملائكة ، وأعظم شفاعة الأنبياء هي شفاعة نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله .

قال الإمام الصادق عليه السلام : « مَا أَحَدٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ إِلَّا وَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله يَوْمَ الْقِيَامَةِ » <sup>(٤)</sup> .

وأيضاً هناك شفاعة للأولياء والصالحين وبعض المؤمنين العاديين ، يشفعون لبعضهم ، وقد وردت روايات في شفاعة المؤمن ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « وَفِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَشْفَعُ مِثْلَ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ ، وَأَقْلُ الْمُؤْمِنِينَ شَفَاعَةً مَنْ يَشْفَعُ لِثَلَاثِينَ إِنْسَانًا » <sup>(٥)</sup> .

(١) الفجر ٨٩ : ٣ .

(٢) كتاب العين : ٨ : ١٣٢ .

(٣) كتاب العين : ١ : ٢٦٠ .

(٤) المحاسن : ١ : ١٨٤ .

(٥) بحار الأنوار : ٨ : ٥٨ .

## فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾

### الشفاعة بين الخالق المخلوق

الشفاعة من المسائل الهامة التي تعرّض لها القرآن باستفاضة؛ إذ أنّ بعض الآيات القرآنيّة تبين أنّها لله تعالى، بل أنّ كلّ الشفاعة له تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ (١).

وهناك بعض آي القرآن الكريم تبين أنّ هناك شفاعة لبعض الخلق بعد رضا الله تعالى عن ذلك. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢).

وبعض الآيات الأخرى تبين شرائط للشفاعة فلا تكون لأيّ أحد، وعليه إذا تحققت الشرائط تكون الشفاعة نافعة. قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، ويرجع السبب في عدم انتفاعهم بالشفاعة لأنهم لم يكونوا من المصلّين، ولم يطعموا المسكين، أي لم يؤدّوا الزكاة والواجبات الماليّة، وكانوا يخوضون في الباطل، ويكذّبون بيوم القيامة، وهذه أمور أربعة إذا اتّصف بها امرئ لن تفيد معها الشفاعة.

روى أبو بصير عن أبي الحسن الأوّل (الإمام الكاظم عليه السلام)، قال: «إِنَّهُ لَمَّا حَضَرَ أَبِي الْوَفَاءَ قَالَ لِي: يَا بَنِيَّ، إِنَّهُ لَا يَنَالُ شَفَاعَتَنَا مَنْ اسْتَخَفَّ بِالصَّلَاةِ» (٣). الشفاعة موجودة لكنّها بشروط، منها: أن لا ينكر الإنسان الأصول العقديّة الثابتة، ولا يترك الصلاة، أو يستخفّ بها، وأن يكون مؤدّباً للحقوق الماليّة، وأن لا يدخل

(١) الزمر ٣٩: ٤٤.

(٢) الأنبياء ٢١: ٢٨.

(٣) الكافي: ٣: ٢٧٠.

في الباطل كي لا يتلوّث به ، أمّا إذا كان متّصفاً بهذه الأوصاف ثمّ جاء يوم القيامة ، فلن تنفعه الشفاعة لأنّها لله تعالى ، ولا يشفع غيره من الأنبياء والرسل والملائكة وغيرهم إلاّ بإذنه . قال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾<sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ، والآية بيّنت كيف يحصل الرضا ، بأن لا يكون تاركاً للصلاة ، ولا منكراً للمعاد ، ولا يخوض في الباطل ، ولا يمنع الحقوق والواجبات الماليّة ، وإذا لم يكن كذلك فسوف تكون الشفاعة مفيدة له ونافعة ، غير أنّ بعض الناس قد يسمع آيات الله تعالى تتلى عليه أثناء الليل والنهار لكنّه لا يتأثر بها ، بل تزيده بعداً عن الحقّ تعالى ، ورسوخاً في الباطل . قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾<sup>(٣)</sup> ، وعلى العكس من ذلك ، فإنّ المؤمن يؤثّر فيه القرآن ويزيده إيماناً . قال تعالى : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>(٤)</sup> .

### الشفاعة وترك الواجبات

إذن فمن تتلى عليه الآيات ويزداد بعداً عن الحقّ تعالى لن ينتفع من الشفاعة كما هو واضح ، لذا فإنّ من الأغلاط عند بعض الناس تصوّر أنّ الشفاعة ستدركه حتّى لو ترك الواجبات ، كالصلاة والصوم وغير ذلك ، رغم أنّ الشفاعة هي لمن حقّق شرائطها ، وأمّا من خاض في الباطل ولم يؤدّ الواجبات والحقوق الماليّة فلن تنفعه الشفاعة ، قال تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ

(١) طه ٢٠ : ١٠٩ .

(٢) الأنبياء ٢١ : ٢٨ .

(٣) الإسراء ١٧ : ٤١ .

(٤) الأنفال ٨ : ٢ .

إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١﴾

### سبب ترك الشفاعة

يرجع عدم الاستفادة من الشفاعة إلى أنَّ الأكثرية من العصاة جعلوا أصابعهم في آذانهم ، ولم يستمعوا إلى الحق ، فأصمّوا وأصاب العمى أبصارهم ، وتلوّث فطرتهم ، ولهذا لم يتأثروا بالاستماع إلى الحق ، فمن تتلى عليه آيات القرآن وروايات المواعظ ولا ينزجر ولا يتأثر بها ، فإنّ لديه خللاً في إيمانه ، قال تعالى : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ، ويراد بالتذكرة هنا آيات القرآن الكريم ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ \* فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١) ؛ لأنَّ آيات القرآن تذكر الإنسان بشرط أن تكون له أذن تسمع وتتقبل مع رحابة صدر ، أمّا من كانت الوسائل متاحة له ولم يتذكّر ولم يستفد منها ، بل ازداد بعداً عن الحقّ تعالى ، فهو في خطر كبير ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ، أي أنّهم أعرضوا ولم يقبلوا الحقّ ، هناك كثير من الناس أعرض عن القرآن الكريم وعن القيم والمبادئ ، بل لم يعرض فحسب وإنّما فرّ وابتعد ممّا يربطه بالله تعالى ، وقد عبّر القرآن الكريم عن هؤلاء الذين لا يتذكّرون إذا ذكّروا ، بل يُعرضون هاربين ، بأنّ هروبهم ناشئ من عدم العقل ، ومن التوغّل في الحيوانية في ذاتهم ، وصوّر الحقّ تعالى هذا بتصوير بليغ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ .

### المستفيد من التذكرة

وعلى عكس المعرضين عن التذكرة ، فإنّ هناك من يستمع لها ، قال تعالى : ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ﴾ (٢) ، أي أنّ هناك من يعي ويستفيد من التذكرة ، ومن هنا أكد الإسلام على مطالب في غاية الأهمية ، كالبحث عن

(١) الحديد ٥٧ : ٥٤ و ٥٥ .

(٢) الحاقة ٦٩ : ١٢ .

الحكمة والاستفادة منها ، قال الإمام الصادق عليه السلام : « الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُمَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ضَالَّتَهُ فَلْيَأْخُذْهَا »<sup>(١)</sup> ؛ لأن الاستماع لها يؤدي إلى الإيمان حتى إذا كان مصدرها شخصاً غير ملتزم ، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَلْجُلُجُ فِي صَدْرِهِ حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ »<sup>(٢)</sup> ، وينبغي أن نلتفت إلى هذه التوجيه ونتعرف على خصوصيات كثيرة للاستفادة من الآخرين ، والنظر إلى ما يقولون ، بغض النظر عن القائل ، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « خُذِ الْحِكْمَةَ مِمَّنْ أَتَاكَ بِهَا ، وَأَنْظُرْ إِلَى مَا قَالَ ، وَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ »<sup>(٣)</sup> .

### كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾

#### تشبيه المعرضين عن التذكرة

شبه القرآن الكريم المعرضين عن التذكرة بالحمرة الوحشية عندما تهجم عليها الأسود ﴿كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ \* ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ؛ لأنها تنفر خائفة ، وخوفها يتطلب سرعة فائقة للهروب ، كذلك المعرضون عن التذكرة الذين لا يريدون للتذكرة أن تؤثر في نفوسهم وتقضي على باطلهم ، يعرضون عن الاستماع والإنصات إلى الحق ، ويغلقون منافذ السمع حتى لا يصل الحق إلى عقولهم وأفكارهم فيقضي على باطلهم . إذن النفرة هي الهروب السريع من الشيء ، وكذلك حال من يُعرض عن آيات الحق تعالى فينفر منها ؛ لأنه كلما استمع إليها تغلغلت في وجوده وأثرت عليه وأزهقت باطله ، وهو يخاف من ذلك فيفر منها .

(١) الكافي : ٨ : ١٦٧ .

(٢) نهج البلاغة : ٤ : ١٨ .

(٣) عيون الحكم والمواعظ : ٢٤١ .

## أبعاد تشبيه المعرضين بالحمير

إذن شبهت الآيتان - **﴿كَانَهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾** - المعرضين بالحمير الوحشية الموجودة في الغابات التي تفرّ من الأسد القسورة ، الأسد في حال قوّته يسمّى قسورة ، والتعبير يشير إلى أنّ الأسد قاسر لفريسته بشدّة كأنّه سيقضي عليها قضاءً مبرماً ، رغم فرارها منه ، فإنّ قوّته واقتداره وشدّة انطلاقه في اللحوق بها يمكنه منها ، كذلك الإنسان إذا أراد أن يفرّ من التذكرة ، فإنّ العوامل القاسرة تكون له كالأسد بالنسبة لفريسته ، وهي عوامل متعدّدة كالأزمات والحوادث والمنايا ، فإنّها ترد الإنسان دون توقيت يعرفه فتفسره بقوّتها ، وعليه فإنّ التعبير غاية في اللطف .

**بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً ﴿٥٢﴾**

## احتجاجات واهية

تبيّن الآية أنّ فئة من الناس تظنّ أنّ لنفسها شأنًا كالأنبياء والرسل السابقين ، فكما أنّ الله تعالى أنزل كتباً وصحفاً عليهم فلماذا لا يُنزل عليهم كتاباً كي يؤمنوا ويصلون إلى درجة عالية في عبوديتهم لله تعالى؟! كلّ واحد منهم يريد أن يُنزل الله عليه قرآناً كما أنزله على المصطفى الحبيب ﷺ .

وتبيّن الآية أنّ هذه الفئة من الناس تتذرع بذرائع واهية ، وقد تحدّث القرآن الكريم عن ذلك في آيات أخرى ، قال تعالى : **﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِهٍ وَالْمَلَائِكَةُ قِيَالًا﴾** (١) ، كلّ هذه

(١) الإسراء ١٧ : ٩٠ - ٩٢ .



حجج وذرائع لا قيمة لها؛ لأن الله تعالى أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين حتى يوضح للناس الهداية ويفصح لهم عن الحقائق، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١)، وليس كل شخص يريد أن يصبح رسولاً يكون له ذلك؛ لأن النبوة اختيار من الله تعالى على أساس وجود خصوصيات لمن يتأهل لهذا المنصب الإلهي. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ \* أَهْمُ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٢)، ولهذا توهم بعض أن النبوة للأنبياء اختيار فيها، فقالوا للنبي ﷺ:

لماذا أنزل الله تعالى عليك القرآن، وعلى إبراهيم ﷺ الصحف، وعلى عيسى ﷺ الإنجيل؟ وأنزل الكتب السماوية على بقية الأنبياء؟  
ولماذا لا ينزل علينا هذه الكتب السماوية؟  
ولماذا تكون الخصوصية لك وحدك يا محمد؟

### إنزال الكتب اختيار إلهي

إن إنزال الكتب السماوية من الله شأن الله لا يتدخل فيه أحد، بل هو اختيار منه تعالى، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، والذين يريدون لأنفسهم النبوة لا قابلية لهم بتلقي الوحي من قبل الله تعالى لوجود رجس على قلوبهم وشرك، وليس لديهم قرب منه تعالى كي ينزل عليهم الوحي، وإرادتهم لا قيمة لها. قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً﴾، إنهم يطلبون

(١) النساء ٤: ١٦٥.

(٢) الزخرف ٤٣: ٣١ و ٣٢.

المحال ، وليس محالاً بنظر العقل ، بل من ناحية الواقع ، أي أن كل الناس لا يمكن أن يكونوا رسلاً من قبل الله تعالى ، ولا يمكن أن يكونوا أنبياء وتنزل عليهم كتب من قبله تعالى ، بل أن مقتضى اللطف أن يكون هناك رسول يأتي بالأحكام من قبل الله تعالى والجميع ياتمر وينتهي بأوامره ونواهيته ، لأنها أوامر الحق ونواهيته ، أما أن يطلب كل شخص إنزال الوحي عليه لتكون له صحف منشرة ، فهو محال من الناحية العملية ، ولا يمكن أن نقول : اتركوا الناس كلهم ليصبحوا حدادين أو نجارين أو غير ذلك ؛ لأن الحياة لن تنتظم حينئذ ؛ إذ أنها لا تنتظم إلا بأن يأخذ كل فرد دوره ، ودور النبي ﷺ هو تلقي الوحي الإلهي ، وهو دور أساسي وجوهري ولا يمكن أن يكون أولئك الناس الذين يخاطبون الرسول ﷺ بمرتبته وأن يتاح لهم تلقي الوحي كما أتيح له ﷺ ، وعليه فإن هذه الحجّة والذريعة لا قيمة لها ، وكذلك لا قيمة لقولهم : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعاً \* أَوْ تَكُونَ لَك جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجيراً \* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً \* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١﴾ ، أو لقول بعض بني إسرائيل لموسى ﷺ : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٢﴾ ؛ لأنه لا يمكن رؤية الله تعالى عياناً كرؤية أحدنا للآخر .

إن هذه مجرد ذرائع ؛ لأنهم تصوّروا أن الله تعالى جسم من الأجسام يمكن رؤيته ، وعليه فإنه لن يتحقق كل ما يطلبه الإنسان من أمور ترتبط بإثبات العقيدة . نعم ، قد يستجيب الله تعالى ويحقق بعض المعاجز بعد إقامة الأدلة العقلية وغيرها

(١) الإسراء ١٧ : ٩٠ - ٩٣ .

(٢) البقرة ٢ : ٥٥ .

على صدق الأنبياء، كي يتضح أن من يطلب ذلك لا يخضع للدليل ولا يقبل البرهان، بل يريد المحاجة واللجاج عناداً، وهي طريقة قد نجدها لدى بعض حيث يقول: لن أصبح مؤمناً حتى يُحقّق الله تعالى لي الأمر الكذائي، رغم أن الإيمان لا يرتبط بتحقيق مطلبٍ ما، فلا يمكن أن نشترط على الله شيئاً كي نؤمن لأنّ إيمان الناس وكفرهم لا ينفع الله ولا يضرّه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾<sup>(١)</sup>، بل ينفع من آمن ويكون منشأً لسعادته الدنيوية والأخروية.

### كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾

#### خصائص من ينزل عليهم الكتب

ثمّ تبين الآية التي بعدها أنهم ليسوا مؤهلين لإنزال الرسالة عليهم. قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾، أي أنّ الله تعالى ردهم عن ما يريدونه من إنزال الكتب السماوية على كلّ واحد منهم؛ إذ أنّ الرسالة مؤيدة من لدن الله تعالى بالدلائل والبيّنات والحجج القاطعة التي تدفع الشكّ والريب لدى كلّ شخص، والحجّة تامّة قائمة على الرسول وغيره على حدّ سواء من غير حاجة إلى أن يؤتى كلّ واحد من الناس المدعويين صحفاً منشّرة، ومن الواضح أنّ الرسالة تتطلّب مواصفات خاصّة كطهارة الذات وصلاح النفس، وغيرها من الصفات الكمالية التي لها دخل في حقانيّة الرسالة ونجاحها.

وتبين الآية المائز الأساس والجوهريّ لمن يستفيد من التذكرة، ويتّجه الاتّجاه الصحيح، ويرتدع عن الغيّ والهوى، وهو ذلك الشخص الذي يخاف الآخرة وسوء

(١) إبراهيم ١٤: ٨.

الحساب ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾<sup>(١)</sup>؛ إذ أن تذكر المعاد وخوف الآخرة شيء جوهري في قبول الهداية، وإنكار المعاد وعدم الخوف من الآخرة والعقاب الإلهي الذي ينتظر الإنسان يؤدي به أن لا ياتمر ولا ينتهي ولا يرتدع ولا يتقبل القيم والمبادئ السماوية؛ لأن الواع الديني الناتج عن الإيمان والحساب في عالم الآخرة هو الذي يجعل المتكبر يتواضع، والكافر يؤمن، والفاسق يستقيم، وقد أشرنا -أنفاً- بأن كثيراً من الناس عندما يموت، فإن بعض أعزائه يغيّر مساره ويختلف سلوكه، وقد يتأثر سلبياً في بعض مناحي حياته، نتيجة لتصوّره الخلود الدائم، حيث أن فكرة الخلود تجعله لا يستشعر أنه سوف يموت، وكأن الموت بعيد عنه، وإن كان بعض قد يتأثر عندما يموت أحد أقربائه، لكنّه تأثر وانتباه لفترة مؤقتة ثم يرجع سيرته الأولى.

والأساس الذي يريد القرآن أن يبيّنه أن إنكار المعاد وعدم الإيمان منشأ عدم الخوف من الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾؛ أي لن يستفيدوا من التذكّر أبداً ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾؛ لأنهم ليس لديهم خوف منها.

### الإنسان والخوف من الآخرة

قد يتساءل بعض متى ينبغي أن يخاف الإنسان من الآخرة؟

لا يخاف الإنسان من الآخرة إلا إذا التزم جادة الصواب وطهر ذاته، ولم يرتكب المعاصي؛ لأن ارتكابها ينسي الآخرة، ويشكل طبقة وحاجزاً على قلبه، يسمّى بالرين. قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. إذن فإن أول شيء يجعل الإنسان يتذكّر الآخرة ويتفاعل معها إيجاباً هو نزاهة وطهارة

(١) الإنسان ٧٦: ١٠.

(٢) المطففين ٨٣: ١٤.

ذاته بحيث أنه يجاهد أن لا يصدر منه عمل خبيث أو عمل حرام ، ويسعى لتزكية نفسه ، قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى \* وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (١) ، والآية تبين أمرين هاميين :

**الأول :** أنه لا بدّ من تزكية النفس ، والابتعاد عن الرجس ، حتّى لا يحدث رين على القلب .

**الثاني :** أن لا يربط الإنسان نفسه بالأموار المحدودة ، ولا يقيد بها ، فلا يعلّق قلبه بأموار ماديّة بحيث لا يمكنه التخلص منها ، ونلفت الانتباه هنا أنّه يمكن أن يكون الإنسان فقيراً لكنّه متعلّق بأموار ماديّة ، بينما قد يكون ثرياً إلا أنّ قلبه تعلّق بالله تعالى ، فأنبياؤه وأوليّاؤه -كسليمان وذو القرنين وداود ويوسف عليهما السلام- كانوا ملوكاً وعندهم قدرات كبيرة ، وكانت الأموال تحت أيديهم ، لكنّ قلوبهم متعلّقة بالله تعالى ، وهناك من الفقراء من تعلّق قلبه بسيارته أو بزوجته أو بما يملكه ، فأصبحت تلك الأمور كعبة آماله ، وليس لديه شيء غيرها ليتعلّق قلبه به .

إنّ تعلّق القلب لا بدّ أن يكون بالله تعالى كي يمكنه الارتباط بالآخرة. قال الإمام الصادق عليه السلام : « **الْقَلْبُ حَرَمُ اللَّهِ ، فَلَا تُسْكِنُ حَرَمَ اللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ** » (٢) يرتبط الحديث بالمؤمن الذي يذكر الله ويرتبط به بحيث يتعلّق قلبه به ، فيصبح قلبه حراماً لله لا يوجد فيه غيره ؛ إذ لو استقرّ في القلب غير الله تعالى صعب عليه تذكّر الآخرة والخوف من سوء الحساب لارتباطه بأموار فانية زائلة إلى درجة التعلّق .

### الأمور التي تذكّر بالآخرة

النتيجة التي نصل إليها أنّ الأمور التي تذكّر بالآخرة هي أربعة :

(١) الأعلى : ٨٧ و ١٤ و ١٥ .

(٢) بحار الأنوار : ٦٧ : ٢٥ ، عن جامع الأخبار : ٢٨ .

**الأول:** ترك المعاصي والذنوب حتى لا يكون هناك رجس ونجاسة وريين على القلب .

**الثاني:** أن لا يتعلق قلبه بغير الله تعالى .

**الثالث:** أن يكون لديه علم بانتقاله من هذا العالم وعدم بقائه فيه مهما طال به الزمن واستمر به الأمد؛ وذلك أن العلم بتصرم الأيام جدُّ هامّ، يسرع بالإنسان الخطى إلى الانتقال إلى عالم الآخرة، لذا من المؤسف أن نجد بعضاً رغم كبر سنّه إلا أن لديه آمالاً غير محدودة تشدّه إلى الأرض وكأنّه لن ينتقل عن هذا العالم إلى عالم الآخرة .

إنّ علم الإنسان بأنّ كلّ يوم يتقدّم فيه إلى عالم الآخرة ينقص من عمره له أثره الكبير عليه، فإذا لاحظ الإنسان نفسه مدّة عام من رمضان ماضي إلى رمضان الحال سيجد أنّه نقص من عمره سنة، وهكذا يتقدّم نحو الآخرة بهذا المقدار، فيدرك كم من السنوات سوف يعيش الإنسان؟

إنّ كثيراً من الناس يموت في السّتين والخمسين أو الأربعين، والمتبقي من حياة الإنسان بالقياس إلى ما مضى من عمره قصير جداً، خصوصاً في هذه السنوات المتأخّرة التي كثرت فيها الأوبئة والأمراض وغير ذلك، فإنّ مجموع تلك الأمور تُسرع بالإنسان الخطى إلى عالم الآخرة .

**الرابع:** ملازمة الصالحين .

من الأهميّة بمكان السير مع الصالحين؛ لأنّ العيش مع غيرهم قد يُنسي الآخرة، أمّا العيش معهم فإنّه يجعلك تفكّر كما يفكّرون، وتستذكر الآخرة كما يستذكرون، قال رسول الله ﷺ: « قَالَتِ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى: يَا رُوحَ اللَّهِ، مَنْ نُجَالِسُ؟ قَالَ: مَنْ يُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ رُؤْيَيْتُهُ، وَيَزِيدُ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَيَرْغَبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَمَلُهُ »<sup>(١)</sup>.

(١) الكافي: ١: ٣٩ .

فإذا جالس الإنسان (من يذكره بالله برؤيته) من خلال سيمائه ومهابته وخشوعه وسلوكه بذكره لله قبل أن يتكلم، وبنطقه بالعلم والحكمة والأخلاق والفوائد التي تعود على جلسه بخير الدنيا والآخرة، وعلى المؤمن أن يحذر من مجالسة بعض من إذا نطق أو تحدّث شدّ غيره إلى الأرض، وأبقاه في عالم المادّة. إذن علينا أن نلتفت إلى أهميّة تلك الأمور الأربعة التي تذكّر الإنسان بالآخرة، خصوصاً إذا همّ بالمعصية، فإنّه سرعان ما يؤوب إلى رشده ويرتدع عن غيّه، ويرجع إلى صوابه إذا التفت إلى الأمور الأربعة التي ذكرناها، أمّا إذا لم يلتفت فقد ينسى الآخرة، فلا يخاف منها. قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾، إنّ الخوف من الآخرة حصنٌ يمنع المؤمن من صدور ما يسخط الله تعالى.

### الآخرة تُذكر الإنسان

أشرنا - أنفأ - إلى أنّ سبب تعاسة الإنسان وابتعاده عن الحقّ هو عدم التزامه وترك سيره في الصراط المستقيم المؤدّي به إلى الخوف من الآخرة، والذي يحدث انقلاباً في شخصيّة الإنسان ويحوّل الكافر إلى مؤمن، والفاسق إلى متّق، والتمكبر إلى متواضع، ويغيّر سلوك الإنسان بنحو كليّ. إذن الآخرة تذكّر الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ فذكر الآخرة نعمة في التذكرة للإنسان، وليس لكلّ إنسان، بل لمن يريد أن يتذكّر ويرتدع.

كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾

### وسائل تذكّر عالم الآخرة

فمن أراد أن يتكامل عليه أن يتذكّر عالم القيامة والآخرة، أمّا كيف يتاح للإنسان أن يتذكّر القيامة وعالم الآخرة، فقد أبان الله تعالى ذلك بأساليب مختلفة:

**منها:** البصيرة، قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ \* وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ (١).

**ومنها:** علمه باختياره، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٢).

**ومنها:** الإرادة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾، أي أن تذكر الآخرة وجعلها نصب العين والتوجه إليها يرجع إلى الإنسان ومشئته واختياره، فمن أراد أن يتذكر الآخرة وشاء ذلك، فإن الله تعالى سيمنحه قدرات ونعم كبيرة، فإذا استفاد منها وصيرها في الطريق السوي تهيأت له أسباب الصلاح والفلاح، وحقق الرشد والنجاح في حياته: الدنيوية والأخروية، أما في الدنيا فإنه سيسلك الطريق المستقيم المؤدي به إلى النجاة، والذي أبانه الحق تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٣)، وأما في الآخرة فسوف يرتفع إلى الدرجات العلى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا \* حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا \* وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا \* وَكَأَسَاءَ دَهَاقًا﴾ (٤).

إذن الخير في عالم الآخرة وفي عالم الدنيا، غير أن ذلك يتوقف على مشيئة الإنسان، ولا بد أن يكون لديه إرادة داخلية من خلالها تتهيأ له الأسباب، وإن كان في بداية أمره يصعب عليه أن يجعل إرادته ومشئته تدعوه إلى الخير والرقى منذ البدء، ولهذا نجد في كثير من الأمور أن من يريد أن يرتقي في مجال عمل أو حرفة يشعر بصعوبة عليه في ذلك، لكنه بالتدرج يسهل عليه الأمر شيئاً فشيئاً،

(١) القيامة ٧٥: ١٤ و ١٥.

(٢) الإنسان ٧٦: ٣.

(٣) الأنعام ٦: ١٥٣.

(٤) النبأ ٧٨: ٣١ - ٣٤.



إلى أن يصبح ذلك الأمر الصعب ليس سهلاً فحسب ، بل من الأمور التي يشتاق ويتوق إليها ، لذا نجد عقبات كثيرة ومشاكل متعددة تعترض طريق العلماء ، إلا أنهم في البداية يقومون بتجاوزها عقبة عقبة إلى أن تسهل لهم الأمور ويحصلون على التوفيق في طلب العلم .

وفي هذا المجال نقل أحد الأطباء الذين قاموا بعلاج أحد العلماء الكبار أنه عندما أصيب بمرض شديد في عينه ، قال له الطبيب : إن دواءك في ترك القراءة ومطالعة الكتب ، فقال العالم : إذا مرّ عليّ يوم واحد من دون قراءة ومطالعة للكتب سأموت ؛ لأنّ دوائي هو المطالعة والقراءة والتحقيق ، أي أنه أصبح يشبه السمكة إذا أخرجت من الماء فإنها تموت ، وهو يمثل قمة التعلّق والارتباط بالعلم والقراءة ، وكذلك الحال في كلّ مجال من المجالات ، وقد نبّه الله تعالى على هذا المطلب الجميل ، فقال : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ \* كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ \* فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿ . إنّ التذكرة يمكن أن يستفاد منها بشرط أن يكون لدى المستفيد إرادة ومشينة ؛ لأنّ الله تعالى يهيئ الأسباب ، ويأخذ بيد من أراد إلى الصواب ، بشرط أن يكون قد اجتهد لله تعالى وتقرّب إليه .

### التذكّر العمليّ

حينما يقول الحقّ تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ﴾ \* فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿ ، أي أنّ من يشاء ويريد سوف يصل ، أمّا الذي لا يريد ولا يلتفت ، بل يفر ويتعدّ فلن يصل ، وذلك نراه في العيان ؛ إذ أنّ هناك أناساً يحقّقون إنجازات وتقدّم في أي مجال ، سواء كان مادّيّاً أو روحانيّاً أو قيمياً أخلاقياً أو علمياً أو فنيّاً ، وكلّ ذلك يرجع إلى الإرادة والعزيمة والاستمرار والصبر ؛ إذ أنّ الإنسان إذا صبر ظفر ، وقد يواجه في البداية صعوبات وعقبات فيقف بعض ضده ويحاربه ، وقد يكون ذلك من أقرب الناس إليه ، لكنّه إذا امتلك الإرادة الصلبة سوف يتراجع من يقف ضده عنه ،

والصلابة والإرادة هي التي عبّر عنها الحق تعالى بقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾؛ لأنّ الإشاعة سوف يتذكّرها، وليس في يوم القيامة، بل في الحياة الدنيا، حيث تصبح حاضرة لديه وهذا المضمون ذكره أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة المتقين: «عَظَمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ»<sup>(١)</sup>. هذا هو معنى ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾، وليس كلّ شخص لديه هذا النحو من التذكّر العملي، الذي يمكن للإنسان أن يجريه لاختبار حالة التذكّر للأخريين من خلال عرض الباطل عليهم، وسيرى أنّ هناك من يتجاوب معه ويخوض فيه وهناك من يجتنبه، فإذا كان مؤمناً متذكراً فلن يخوض فيه بل سيسعى للتخلّص منه وعدم الوقوع فيه.

### المشيئة بين الله والإنسان

بقي في الآية شيء هو أنّ المشيئة هنا يمكن أن نجعلها راجعة إلى الله تعالى، أي فمن شاء الله تعالى أن يتذكّر ذكر، ويمكن أن نجعلها راجعة للإنسان، وهذا ما فسّرنا به المشيئة آنفاً، ولا تنافي بين المعنيين؛ إذ يمكن أن تكون راجعة للإنسان ويمكن أن تكون راجعة لله تعالى، ولكن إذا أرجعنا المشيئة لله تعالى تكون بمعنى أنّ جميع الأشياء مرجعها إلى الله تعالى، القدرة والنعم وغير ذلك كلّها من عند الله تعالى ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾<sup>(٢)</sup>، أي لا يوجد شيء في الوجود إلّا ويرجع إليه تعالى، غير أنّ الله تعالى هو الذي يشاء للإنسان، ومشيئته تعالى للإنسان ليست اعتباريّة، بل وفق حكمة يرتبها، كما أنّ هناك أسباباً وأسساً حتّى يشاء الله تعالى للإنسان الهداية،

(١) نهج البلاغة: ٢: ١٦١.

(٢) النساء: ٤: ٧٨.

ويكون متذكراً .

روي عنه ﷺ عن الله تعالى : « مَنْ طَلَّبَنِي وَجَدَنِي »<sup>(١)</sup> ، أي الذي يريد الله تعالى يصل إليه ، ومن يريدته تعالى سيهيئ أسباب الوصول إليه تعالى .

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

### مشيئة الله متعلقة بالموجودات

إن مشيئة الحق تعالى لها دخل في تحقق أي أمر من الأمور في هذا العالم ، ولا يمكن أن يحدث في الكون شيء لا يريدته الله تعالى ؛ إذ الأمور مربوطة بمشيئته تعالى .

وسنوضح هذه النقطة بشيء من البيان ، خلاصته : أن من أراد التذكر للآخرة والاهتداء إلى الصراط المستقيم فإن إرادته ومشيئته وفعله مربوط بإرادة الله تعالى وبمشيئته تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾<sup>(٢)</sup> ، وإذا كان الأمر مربوطاً بإرادة الله تعالى ، فإن تعلق مشيئة الإنسان بفعل فيه خير ومنفعة وآخر فيه سوء وقبح يرجع إلى إرادة الإنسان .

### الإرادة التشريعية والتكوينية

وهنا سؤال هام ، كيف تكون إرادة الله تعالى لها دخل في تحقيق الشيء السيئ

(١) قال أبو الدرداء لكعب الأحبار : أخبرني عن أخص آية في التوراة ؟ فقال : يقول الله عز وجل : طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم لأشد شوقاً . قال : ومكتوب إلى جانبها : « من طلبني وجدني ، ومن طلب غيري لم يجدني » ، فقال أبو الدرداء : أشهد أنني لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا . المحجّة البيضاء : ٨ : ٥٨ و ٥٩ ، ٦١ .

(٢) الإنسان ٧٦ : ٣٠ .

تارة والحسن تارة أخرى ؟

هذا مطلب يحتاج أن نفهمه بدقة ؛ إذ أن الله تعالى لا يشاء للإنسان إلا الخير ولا يريد له إلا الحسن الطيب ، غاية الأمر في بعض الأحيان تكون إرادة الإنسان متعلقة بالشيء الخبيث السيئ ، وحينئذ فإن الله تعالى لا يريد له ذلك الأمر السيئ ، لكنّه تعالى لا يجبره على تركه ، فهو تعالى لا يريد للإنسان شرب الخمر أو الزنا أو عقوق الوالدين أو غيرها من المعاصي والذنوب ؛ لأنه تعالى لا يريد من الناحية التشريعية أن تصدر المعاصي من الإنسان ، أمّا من الناحية التكوينية ، فلا يمكن أن يقع ذلك الشيء ؛ لأنّ الأمور خاضعة لقدرة الله تعالى وهيمنته ومشيئته ، والفعل مربوط بأسبابه والله تعالى أعطى الإنسان القوّة والقدرة ، ومنحه الاختيار في صرفها فيما يشاء .

وكي يتّضح المطلب نقريه بمثال : لو كان هناك والد له ولد ، ويريد أن يوزع المال على أولاده بالسوية ، وهو يعرف أنّ بعض أولاده سيخسر المال ، وسيذهب المال من بين يديه ، لكنّه يعي أيضاً أنّه لو لم يعطه لكان ظلماً في حقّه ، لكونه أعطى إخوانه ومنعه ، والوالد ينهى جميع أولاده عن صرف المال فيما يعود عليهم بالخسران ، ويحضّهم على صرفه فيما يعود عليهم بالنفع ، لكنّه يعلم أنّ أحد أولاده سيصرف الأموال فيما يعود عليه بالضرر ، وهنا طبقاً للحكمة يمكنه منع ولده من المال ، لكنّه لو منعه سيكون قد ظلمه ، وبالتالي سيشعر الابن بعدم المساواة ، كما أنّه لو أعطاه وهو يعلم بتصرفاته لا يقال إنّّه أجبره ، بل يقال إنّّه منحه الخير ونهاه عن السوء ، لكنّه صرف المال الذي أخذه من والده في السوء .

كذلك الأمر هنا ، فإنّ الله تعالى منح الإنسان جميع النعم ونهاه تشريعاً عن صرفها في السوء والمنكر ، وهو تعالى نهاه تشريعاً ، وليس تكويناً ؛ لأنه من الناحية التكوينية إذا لم يرد الله تعالى لأحد أن يفعل شيئاً فلا يمكنه أن يفعل ذلك أو يقوم به ،

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾<sup>(١)</sup> ، لا يستطيع أحد أن يتخلف عن إرادة الله تعالى ، ولهذا عندما نقول : إن الله تعالى لا يريد السوء فذلك يعني أنه لا يريد تشريعاً ، ويريد الخير والصلاح تشريعاً أيضاً ، أما تكويناً فأصل الإرادة والمنحة والقوة والخير والنعم أعطاه الله تعالى للجميع ، قال تعالى : ﴿ كَلَّا نُمَدُّ هُوْلَاءِ وَهُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾<sup>(٢)</sup> ، فعطاؤه تعالى للجميع ، وهو عالم بمن يصرف نعمه في السوء وبمن يصرفها في الخير .

ويمكن تلخيص ما تقدم بأنه تعالى لا يريد من الإنسان الطالح والصالح إلا الخير ، غاية الأمر أن إرادته هذه التشريعية تطابق فعل الإنسان للخير ؛ لأن الله تعالى يريد من تشريعه الإتيان بالعمل الصالح واجتناب العمل الطالح والمعاصي ، والإنسان إذا أتى بالسوء أو المعصية فلا يعني ذلك أنه غلب الله تعالى ؛ إذ أن الله تعالى طلب منه أن لا يأتي بالسوء ، لكن الطلب تشريعي وليس تكوينياً حتى يكون هو غالب في فعله للحق تعالى ، ومن الواضح وجود فرق بين الطالبين التشريعي والتكويني .

### حقيقة المشيئة الإلهية

أبانت الآية المباركة المشيئة الإلهية ، وهي خاتمة لسورة المدثر ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾<sup>(٣)</sup> ، وعليه فلا يمكن لأحد أن يتذكر إلا بمشيئة الله تعالى ؛ لأن جميع القدرات جائية منه تعالى ، وهو تعالى إذا لم يمنح القدرة والنعمة لأحد فلن يستطيع التذكر ؛ لأنه يتذكر بنعم الله تعالى ، ويطيع بنعمه أيضاً ، بل ويعصي بنعمه تعالى .

(١) يس ٣٦ : ٨٢ .

وقد أوضح المقطع الآخر من الآية حقيقة المشيئة الإلهية ، وماهية الأمر المرتبط بها . قال تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ ، فهو تعالى يشاء لك أن تكون من الأتقياء الصالحين ، وهي مشيئة تشريعية لا دخل لها بقسر المكلف وجبره على الفعل ؛ لأنَّ الفعل يرجع إلى اختيار الإنسان ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ، فما يشاؤه تعالى لك هو التقوى ، التي تتعلّق بكلّ ما يوصل إلى الخير والعاقبة الطيبة ، لأنّه المنعم الرحمن الرحيم .

وإذا كان الله تعالى هو ﴿أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فما يشاؤه للإنسان هو التقوى ، أي يكون متّقٍ في كلّ أحواله ، كما أنّه تعالى هو أهل المغفرة ، أي أنّه حتّى بعد أن يُذنب الإنسان فإنّه تعالى يريد منه أن يصرف النعم التي أنعم بها عليه في تقواه وفي وصوله إليه ، وإذا صرف الإنسان بعض نعم الله تعالى في معصيته تعالى يشاء الله تعالى له أن يستغفر وينيب ليغفر له ، بعد أن صرف نعم الله تعالى في السوء والمعصية ، بإرادة الله تعالى للإنسان أن يكون صالحاً وواصلًا إلى درجات عالية ، وإذا عصى ثمّ تاب ورجع إلى الله تعالى غفر له وتاب عليه ، بل سيبدّل سيئاته حسنات ، قال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١) .

### مشيئة الله رحمة إلهية

هناك مطلب جميل ينبغي الالتفات إليه ، وقد ركّز عليه العرفاء وعلماء الأخلاق ، وهو أنّ الله تعالى يشاء للإنسان الخير ، ويشاء له أن لا يقترب من المحظور ولا يرتكب المعصية ، وإذا صدر الخير من الإنسان فيرجع ذلك لكون الله تعالى شاء له فعل الخير ومنحه النعم ، ثمّ إذا صرف الإنسان النعم فيما يرضيه تعالى ،

(١) الفرقان ٢٥ : ٧٠ .

فإنَّ المنة والمحمدة والثناء والشكر كل ذلك يرجع إلى الله تعالى ؛ لأنَّه لا توجد لدى الإنسان قدرة مستقلة بذاته ، والله تعالى هو الذي أعطاه القدرة وهو باختياره يصرفها فيما يرضي الله تعالى ، لكن مصدرها هو الله تعالى وبتوفيق منه ، فهو تعالى امتنَّ على خلقه بذلك ، ومن الضروريّ على جميع من صدر منه عمل صالح أن يثني على الله تعالى أحسن الثناء ، ويشكره تعالى بأبلغ الشكر ؛ لأنَّه لولا التوفيق منه تعالى لما تمكَّن الإنسان من ذلك. قال إمامنا زين العابدين عليه السلام في مناجاته الرائعة المسماة بمناجاة المطيعين : «فَالأُوْكَ جَمَّةٌ ضَعْفٌ لِسَانِي عَن إِحْصَائِهَا ، وَنَعْمَاؤُكَ كَثِيرَةٌ قَصَرَ فَهْمِي عَن إِدْرَاكِهَا ، فَضَلًّا عَن اسْتِقْصَائِهَا. فَكَيْفَ لِي بِتَحْصِيلِ الشُّكْرِ وَشُكْرِي إِيَّاكَ يَفْتَقِرُ إِلَى شُكْرٍ ، فَكَلَّمَا قُلْتُ لَكَ الْحَمْدُ ، وَجَبَ عَلَيَّ لِذَلِكَ أَنْ أَقُولَ لَكَ الْحَمْدُ»<sup>(١)</sup>.

### ارتباط التذکر بمشيئة الله

وقد جاء هذا المعنى للتذکر في سورة الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾<sup>(٢)</sup> ، أي أنَّ الإنسان عندما يُوفِّق للعبادة من الذي وفَّقه لها؟ تبين الآية أنَّ الاستعانة تعني أنَّ ما صرفناه من حولٍ وقدرة وطاقه جاءنا من الله تعالى ، وهو الذي وفَّقنا لصرفه في الطاعة ، لذا فإنَّ على الإنسان المؤمن أن يستعين بالله تعالى حتَّى يصل بالعبادة والاستعانة إليه تعالى ، فالخير من الله تعالى ويرجع إليه تعالى ، وإذا فهمنا هذه المعاني اتَّضح معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ ، أي لا يمكن تذکر الآخرة وتذکر الاتعاط بأي القرآن الكريم ، وتذکر العذاب وجميع ما يعود بالنفع والخير في الدنيا والآخرة إلا إذا شاء الله تعالى ذلك ، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ،

(١) الصحيفة السجادية : ٤٠٩ .

(٢) الفاتحة ١ : ٥ .

فمشيئته تعالى لها ارتباط في تحقق الأمور السابقة ، وهو تعالى يشاء الخير دائماً ولا يشاء السوء ، فكيف إذن يصدر السوء من الإنسان؟! قال تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾<sup>(١)</sup> ، أي أنّ نفس الإنسان هي مصدر السوء ؛ لأنّ الله تعالى لا يريد أن تصدر السيئة من الإنسان ، لكن قد تغلب عليه الشقوة وتغرّه الأمانى ويسؤل له الشيطان ، فيصرف النعم الإلهية في معصية الله تعالى .

### الله تعالى أهل التقوى والمغفرة

الآية الشريفة ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ في غاية البلاغة ؛ لأنها تبين أنّ الله تعالى يريد للإنسان الخير وأن يصل إلى التقوى ، لكونه تعالى أهل لإرادة الخير ، فلا يكون إلاّ آمنه وبتوفيق من لدنه ، والاستعانة بالله تعالى للوصول بنعمه إليه ، وذلك ما يفيدنا في السير التكاملي .

إنّ الاستعانة بالله تعالى في الوصول للتكامل مطلب هام ؛ لما يترتب عليه من آثار كبيرة في حياة الإنسان ، ويتّضح هذا بجلاء فيما جرى بين الله تعالى وبين أيوب النبيّ الصابر ؛ إذ أنّه ﷺ نبيّ وصابر وقد ابتلاه الله تعالى بمرض مدّة طويلة من الزمن ، ورد في رواية طويلة عن الإمام الصادق ﷺ حيث سئل فيها عن بليّة أيوب ﷺ وذكر الحوار بينه وبين الله تعالى : « فَقَالَ أَيُّوبُ: يَا رَبِّ ، لَوْ جَلَسْتُ مَجْلِسَ الْحَكَمِ مِنْكَ لَأَدْلَيْتُ بِحُجَّتِي ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ عَمَامَةً فَقَالَ: يَا أَيُّوبُ ، أَدْلِنِي بِحُجَّتِكَ ، فَقَدْ أَقْعَدْتُكَ مَقْعَدَ الْحَكَمِ ، وَهَذَا أَنَا ذَا قَرِيبٍ وَلَمْ أَزَلْ؟ فَقَالَ: يَا رَبِّ ، إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَعْضُ لِي أَمْرَانِ قَطُّ كِلَاهُمَا لَكَ طَاعَةٌ إِلَّا أَخَذْتُ بِأَشَدِّهِمَا عَلَيَّ نَفْسِي . أَلَمْ أَحْمَدْكَ؟ أَلَمْ أَشْكُرْكَ؟ أَلَمْ أُسَبِّحْكَ؟ قَالَ: فَتَوَدِدِي مِنَ الْعَمَامَةِ بَعْشَرَ آلَافٍ لِسَانَ: يَا أَيُّوبُ ،

(١) النساء ٤ : ٧٩ .



مَنْ صَبَّرَكَ تَعَبُدُ اللَّهَ وَالنَّاسُ عَنْهُ غَافِلُونَ ، وَتَحْمَدُهُ وَتُسَبِّحُهُ وَتُكَبِّرُهُ وَالنَّاسُ عَنْهُ غَافِلُونَ . أَتَمَنَّ عَلَى اللَّهِ بِمَا اللَّهُ الْمَنَّ فِيهِ عَلَيْكَ ؟ ! قَالَ : فَأَخَذَ أَيُّوبُ التُّرَابَ فَوَضَعَهُ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : لَكَ الْعُتْبَى - يَا رَبِّ - أَنْتَ الَّذِي فَعَلْتَ ذَلِكَ بِي « (١) .

هذا حوار يبين صبر الأنبياء ﷺ - خصوصاً أيوب عليه السلام - ومن جهة أخرى فإن الله تعالى نبيه ﷺ إلى مقامه عند الله تعالى لكونه نبياً له درجة عنده تعالى ، ولا ينبغي له أن يعدد أمام الله ما قام به من عمل صالح أو عبادة ، لكون ما يصدر منه بنعمة من الله وبتوفيق منه تعالى ، فهو المنعم حقيقة .

وهو تعالى يريد أن يبين أن الأمور تجري في المجرى الحسن الطيب والخير وما فيه نفع للإنسان ، وذلك لكونه ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ .  
وعندما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أفصح عن جميع ما تقدم من حقائق ترتبط بالإنسان من جهة ، وبمشيئته تعالى وقدرته من جهة أخرى .

(١) بحار الأنوار: ١٢ : ٣٤٣ .



# سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

اِذَا السَّمَاءُ اِنْفَطَرَتْ ﴿١﴾

## أحداث السورة

تتحدث هذه السورة المباركة عن تغيير النظام الكوني والانتقال إلى عالم الآخرة ، وقد أسهب القرآن الكريم في سوره وآياته لتبيان تغيير عالم المادة ، وأن أمدّه محدود سيتلاشى منتهياً في يومٍ ما ، وأبان أن لذلك الانتهاء علامات ، منها انفطار السماء ، ويراد به بداية الانشقاق الذي تشير إليه آية أخرى في قوله تعالى : ﴿ اِذَا السَّمَاءُ اِنشَقَّتْ \* وَاذِنْتَ لِرَبِّهَا وُحُقَّتْ \* وَاذِنْتَ لِرَبِّهَا وُحُقَّتْ ﴾ (١) .

## معاني الانفطار

نعم ذكرت معانٍ أخرى للانفطار :

---

(١) الانشقاق ٨٤ : ١ - ٥ .

**منها:** ما ذكره الراغب في مفردات القرآن في مادة فطر: فقال: «أصل الفطر: الشقّ طولاً»<sup>(١)</sup>، ومعنى كلامه: أن بين الفطر والشقّ عمومًا وخصوصًا مطلقاً: فكلّ فطر شقّ، وليس كلّ شقّ فطرًا؛ لأن الفطر هو الشقّ الذي يكون بالطول، والشقّ يكون على أي جهة.

**ومنها:** أن الانفطار متعلق بإضافة لموضوع الشقّ وهو إعادة الخلق، فشقّ السماء هو تغيير حالها فتفطر خلقًا آخر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾<sup>(٢)</sup>، وشقّها تغيير لها ولشكلها، وهو خلقها بشكل جديد، والسماء يوم القيامة تتشقق، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾<sup>(٣)</sup>.

**ومنها:** أن الانفطار هو شقوق غير منتظمة يختلف سبب حدوثها عن سبب حدوث الشقّ، قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾<sup>(٤)</sup>، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾<sup>(٥)</sup>.

وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفطرت قدماه<sup>(٦)</sup>، وإذا تأملنا أول سورة الانفطار نرى أن الآيات تشير إلى أحداث تدلّ على تغييرات غير منتظمة، قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ \* وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ \* وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ \* وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾<sup>(٧)</sup>، بينما الأحداث في سورة الانشقاق تدلّ على أمور منتظمة، قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ \* وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ \* وَإِذَا الْأَرْضُ

(١) مفردات غريب القرآن: ٣٨٢.

(٢) إبراهيم ١٤: ٤٨.

(٣) الفرقان ٢٥: ٢٥.

(٤) مريم ١٩: ٩٠.

(٥) الشورى ٤٢: ٥.

(٦) الغدير: ٥: ٢٦. عمدة القاري: ١٩: ١٧٧.

(٧) الانفطار ٨٢: ١ - ٤.

مُدَّتْ \* وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ \* وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿١﴾ .

ونلاحظ هذا أيضاً في قوله تعالى : ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١) ،  
وفي قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (٢) .

ولعل القرآن الكريم يشير إلى المعاني المتقدمة كلها . نعم ، قد يكون بعضها أقرب من بعضها الآخر لدى سماع الكلمة ، من هنا ذكر المفسرون أن الانفطار يراد به الانشقاق ، فيكون له نفس المعنى ، وذلك لتبادره التلقائي عند سماع كلمة الانفطار .

## وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾

### نهاية الرتبة الكونية

تقدم بيان المراد من الانفطار عند جمهور المفسرين (٣) واللغويين (٤) ، وبيان التقارب بينه وبين الانشقاق ، وقد بيننا أنه يمكن القول بالتطابق بينهما على أن المراد من لفظة الانفطار المنسوبة للسماء هو الانشقاق والتقطع .

### موت الكواكب

التبدل والتحول الذي يعتري السماء بعد السمك (٥) والتسوية ، قال تعالى :  
﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ (٦) سيؤول إلى التصدع والانشقاق والتقطع ، ويمثل تحولاً

(١) القمر ٥٤ : ١ .

(٢) الفرقان ٢٥ : ٢٥ .

(٣) أي تشققت وتقطعت . تفسير مجمع البيان : ١٠ : ٢٨٣ .

(٤) انشقت . لسان العرب : ٥ : ٥٥ .

(٥) السمك مقابل للعمق ، وهو ذهاب الجسم بالتأليف في جهة العلو . التبيان : ١٠ : ٢٥٩ .

(٦) النازعات ٧٩ : ٢٨ .

لما هيّة السماء، وهذا نذير على بداية أفول<sup>(١)</sup>، وانتهاء الرتبة الكونية، والانتظام بين أجزاء الوجود المادّي، فيسود بينها الفوضى والاضطراب، وهو ما يعبر عنه بموت الكواكب والأجرام السماوية الأخرى، واصطدام الكواكب بعضها ببعضها الآخر، وتفتتها فناءً لها، وعليه فإن موت كل شيء بحسب شأنه اللائق به.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَبَرَتْ﴾<sup>(٢)</sup>، والاستعارة الواردة في الآية المباركة تضيي بظلال الجمال الذي تميّز به الأسلوب القرآني؛ إذ أنّ الكواكب التي يعجّ بها الكون الفسيح تمثّل نوعاً من الانتظام فيما بينها كما تمثّل الخرزات المكوّنة لعقد يوضع على جيد فتاة، إلاّ أنّه بعد انقطاع الخيط المؤلّف بينها يتناثر وتهوي على الأرض حباته متبعثرة ومشتتة، كذلك حال الكواكب التي تحتضنها السماء في رحمها، فهي بمثابة العقد مألها إلى التبعثر والتشتت بعد انتظام وتناسق.

### انهيار الانسجام الكوني للنجوم

قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾<sup>(٣)</sup> تشكّل النجوم<sup>(٤)</sup> سلسلة من الانسجام التام فيما بينها، الدالّ على إتقان الصنع وعظمة الخلق، ومن الملاحظ أنّ النجوم تكون على مسافات شاسعة في الكون، تارة يكون توأجدها على شكل تكتلات نجمية، وتكون المسافات بينها متقاربة، إلاّ أنّ هذا النظام الرتيب والانتظام الدقيق ينفرط عراه ويختل بعد الأمر الإلهي بنهاية الكون، فيؤول نظامها إلى زوال وتبدّد، وقد أورد ذلك سبحانه في معرض تعداد العلامات السماوية للقيامة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾<sup>(٤)</sup>، من البديهيّات العلميّة أنّ النجوم تتميّز

(١) لكلّ طالع أفول، أي غيبوبة. محاسبة النفس للشيخ الكفعمي: ٨٦.

(٢) الواقعة ٥٦: ٧٥.

(٣) النجم هو الكوكب الطالع. تاج العروس للزبيدي: ١٧: ٦٧٧.

(٤) المرسلات ٧٧: ٨.

بالإضاءة واللمعان ، والطمس هو أفول ضوء النجوم وتلاشيها .

### انتثار الكواكب

من علامات القيامة والإذن الإلهي بانتهاء عالم الخليقة انتشار الكواكب ذات المسارات الكونية والمدارات السابحة في الكون الشاسع بانتظام ودقة متناهية وعلى أبعاد كوكبية معلومة ، وإذا بهذا النظام يختل وينفطر عقد انتظامه ومع رتابة هذه الكواكب ، إلا أنها تنطلق بسرعات عالية في عمق الكون بلا انضباط في حركتها ، وبما أن الكون مليء بالأجرام السماوية المتنوعة في الشكل والمتباينة في التسمية ، فإن هذه الكواكب يؤول بها الأمر إلى الاصطدام بعضها ببعضها الآخر ، مما يؤدي إلى تحطمها وتلاشيها ، وهو ما يسمّى في علم الفلك الحديث بنهاية الكون .

### انعدام قوّة الجذب الكونية

قال تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ \* وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾<sup>(١)</sup> .

الشمس بقياسها مع أعضاء المجموعة الشمسية الموجودة في مجرة درب التبانة هي أكبر الكواكب لهذه المجرة على الإطلاق ، وأشدّها جاذبية ، وتمثل مركز الإشعاع الحراري لهذه المجموعة ، ومن ناحية ثانية فإنها بالقياس إلى جملة الكواكب السابحة في الكون المترامي الأطراف فإنها من النجوم لشدة لمعانها وتوهجها ، كما أن الشعري اليمانية<sup>(٢)</sup> والنسر الواقع<sup>(٣)</sup> من النجوم التي تتفوق على

(١) التكوير ٨١ : ١ و ٢ .

(٢) الكوكب الذي يطلع بعد الجوزاء وطلوعه في شدة الحر ، ومنها الشعري العبور التي في الجوزاء ، والشعري الغميصاء التي في الذراع ، تزعم العرب أنّهما أختا سهيل . الصحاح للجوهري : ٢ : ٦٩٩ .

(٣) والنسران كوكبان في السماء معروفان على التشبيه بالنسر الطائر ، يقال لكل واحد منهما : «

الشمس من ناحية الحجم واللمعان ، كذلك هي فرد من أفراد النجوم المتوهجة في الكون ، ومن القوانين العلمية في الفلك أنّ الشمس لها قدر كبير في جذب الكواكب في المجموعة الشمسية بقدر ما لها من القرب والبعد عنها ، وهذا ما يجعل الكواكب التي تدور حولها على شكل أهليلجيّ ، تسير بانتظام وعلى مسافات ذات قدر متناسب مع البعد الشمسيّ وسرعة الكوكب نفسه ، فإذا آلت الشمس إلى الزوال وتلاشت فسيؤدّي ذلك إلى انعدام قوى الجذب لهذه الكواكب ، ممّا يجعلها تنطلق مسرعة في جوف الكون الفسيح من غير نظام ، وبهذا ينتهي الكون والمجموعات الكوكبية السابحة فيه .

### وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾

#### طغيان البحار

نتائج تفجّر المياه البحريّة

من جملة التغيّرات الكونيّة المترافقة مع التغيّرات السماويّة تفجّر البحار وزيادة المنسوب المائيّ في الأنهار ، ممّا يسبب طغيانها على اليابسة ، ويترتب على هذا الأمر من زيادة درجة الحرارة الباطنيّة للأرض ، وإهلاك مساحات واسعة من اليابسة ، وإغراقها تحت مياه البحار والمحيطات ، وقد ورد في الموسوعات العلميّة أنّ حرارة الشمس تقوم بتبخير كمّيّة من مياه البحار والمحيطات ثمّ يحصل التكتّف<sup>(١)</sup> لهذا البخار عند تعرّضه لتيّارات من الهواء البارد في طبقات الجوّ العليا ،

﴿ نسر أو النسر ، ويصفونهما فيقولون : النسر الواقع ، والنسر الطائر . لسان العرب : ٥ : ٢١٠ .

(١) التكتّف هو العمليّة التي يتحوّل بها غاز أو بخار إلى سائل أو جامد ، ويطلق أيضاً على الناتج من هذه العمليّة ، ينتج الندى عن تكتّف بخار الماء على أجسام باردة . المعجم العلمي المصوّر : ١١٨ .



وهو ما يؤدي إلى تكوين السحب<sup>(١)</sup> المحملة بالمياه، ومن ثم تسقط على شكل مطر، هذا من ناحية الفيزياء الطبيعية، أما من ناحية الآثار الأخرى للأمطار - والتي غالبها من الآثار الموضوعية - فإن هناك العديد من الروايات الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام تخبر بوجود علاقة بين نزول المطر ورخص الأسعار وإدراك الأرزاق<sup>(٢)</sup> وزوال الأضغان<sup>(٣)</sup>، إلى غير ذلك من الآثار.

### كيفية زيادة المنسوب المائي

يتضح من خلال ما تقدم أن التغيرات الكونية التي ستحل بكوكب الأرض لها العديد من المظاهر، التي منها: انهيار مياه الأمطار مما يؤدي إلى طغيان مياه البحار والمحيطات على مسطحات اليابسة، المؤدي إلى غرق أغلبها وانغماره تحت الماء. وقد يكون ازدياد المنسوب المائي راجع إلى تفجر الحواجز الفاصلة بين البحار والمحيطات، مما يؤدي إلى ارتفاع المنسوب المائي إلى حد كبير، فيؤدي إلى طوفان هائل يغرق كل ما تناله تلك الموجات المدية<sup>(٤)</sup>، وقد عبر القرآن الكريم

(١) السحاب هو تجمع قطرات مائية دقيقة، أو بلورات جليدية تنشأ من تكاثف بخار الماء في الجو، وذلك حين يبرد الهواء إلى درجة تشبّهه، والسحاب إما ركامي ينشأ عن التيارات الهوائية الصاعدة، وإما طبقي ينشأ عن طبقة هوائية بردت إلى حد يحدث معه التكاثف. المعجم العلمي المصور: ١٠٣.

(٢) «اللَّهُمَّ اسْقِنَا عَيْنًا مُغِيثًا، مَرِيحًا مُمْرِعًا، عَرِيضًا وَسِعًا عَزِيْرًا، تَرُدُّ بِهِ النَّهِيْضَ، وَتَجْبُرُ بِهِ الْمَهِيْضَ. اللَّهُمَّ اسْقِنَا سَقِيًّا تُسِيلُ مِنْهُ الظَّرَابَ، وَتَمَلُّا مِنْهُ الْجِبَابَ، وَتُفَجِّرُ بِهِ الْأَنْهَارَ، وَتُنْبِتُ بِهِ الْأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ بِهِ الْأَسْعَارَ فِي جَمِيْعِ الْأَمْصَارِ، وَتَنْعَشُ بِهِ الْبِهَائِمَ وَالْخُلُقَ، وَتُكْمِلُ لَنَا بِهِ طَيِّبَاتِ الرُّزْقِ» الصحيفة السجادية - دعاء الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في الاستسقاء: ٩٨.

(٣) الأحقاد. شرح نهج البلاغة: ١٥: ١١٢.

(٤) الموجة المدية الجزرية هي ارتفاع سطح المحيط وانخفاضه بسبب جاذبية الشمس «

عن هذا المآل الرهيب بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ، فالفجور المنسوب إلى البحار المراد منه الثقب الصغير الذي يتدفق منه الماء بشكل تدريجي حتى يصل به الأمر إلى اضمحلال الفاصل بين البحار وامتزاج مياهها مع المحيطات .

كما أن الفجر هو تسرب الضياء من بين ستار الظلمة شيئاً فشيئاً حتى يشمل الضياء كل الظلمة فيحيلها إلى ضياء .

وقد يستعمل الفجور<sup>(١)</sup> في المقام الأخلاقي المقابل للتقوى ، فإن ارتكاب الكبائر واجتراح الصغائر من غير رادع ولا خجل من حياء أو عفة ، وخرق مجمل القوانين والدساتير العامة ، سواء كانت من القوانين الإلهية أو الوضعية ، يعد من الفجور المقابل للحياء .

### سبب ازدياد حرارة الأرض

الماء من السوائل التي لها قيمة حياتية كبيرة للإنسان ، ويتكوّن من عنصرين هما : الأوكسجين والهيدروجين<sup>(٢)</sup> ( $H_2O$ )<sup>(٣)</sup> ، وكل من هذين العنصرين من العناصر

» والقمر ، وقد يستعمل هذا المصطلح مرادفاً للموجة السنامية نلاحظ الموجة المدية الجزرية أكثر ما تلاحظ على طول شواطئ البحار اللطيفة الانحدار عند ما ينتقل خط الشاطئ تجاه البر عند المد ، وتجاه البحر عند الجزر . المعجم العلمي المصوّر : ٥٥٩ .

(١) الزنا . معالم التنزيل للبغوي : ٣ : ٥٤٤ .

(٢) الهيدروجين عنصر كيميائي لا لون له ولا رائحة ، يكون غازاً في درجات الحرارة والضغط العاديين ، وهو شديد الفعالية؛ إذ يتحد مع جميع العناصر ما عدا الغازات الخاملة ، ويوجد في الماء ، وفي جميع المواد العضوية ، وجميع الأحماض ، وله ثلاثة نظائر وهي : البروتيوم ، والديوتريوم ، والتريتيوم ، ورقمه الذري ١ ، ووزنه الذري ١.٠٠٧٩٧ . والهيدروجين أخف العناصر جميعاً . المعجم العلمي المصوّر : ٢٩٥ .

(٣) هو سائل لا لون له ولا طعم في حالة النقاء فيما بين درجتي حرارة الصفر والمائة «

المساعدة على الاشتعال ، ومن الأمور المسلّمة أنّ هناك ثَمّة علاقة بين ارتفاع المنسوب العامّ للبحار والمحيطات<sup>(١)</sup> والحرارة الباطنية للأرض ، فإنّ هذا الارتفاع كاشف على أنّ درجة الحرارة الأرضيّة مرتفعة ، وعليه فإنّ اللابة البركانيّة<sup>(٢)</sup> المستعرة تحاول أن تجد لها متنفساً حتّى تتسرّب إلى الخارج مصحوبة بكميّة من الغازات السامّة سريعة الاشتعال مع ضغط عالٍ ممّا يؤدي إلى ذوبان الصخور الباطنيّة<sup>(٣)</sup> التي تواجهها اللابة البركانيّة ، وعند خروجها إلى الخارج تتفجّر انفجارات

» المئويّتين ، وهو مركّب من الهيدروجين والأكسجين ، ويذوب الكثير من الموادّ ، ونقطة تجمّد الماء هي درجة الصفر المئويّ ، ونقطة غليانه هي درجة المائة مئويّة ، ويزن الستيمتر المكعّب منه في درجة ٤ مئويّة جراماً واحداً ، ويوجد على الأرض سائلاً وغازاً وجامداً . المعجم العلمي المصوّر : ٦٠٠ .

(١) الموجة السناميّة هي موجة عاتية تنشأ عن زلزال أو انفجار بركانيّ في قاع المحيط ، ويكون ارتفاع جبهة الموجة بضعة أمتار في البحر ، ولكنها قد ترتفع إلى ثلاثين متراً عندما تجتاز الماء الضحل إلى الشاطئ ، وقد يسمّى موجة مدّيّة ، من الملاحظ أنّ هذه الموجة قد تبلغ سرعتها من ٥٠٠ إلى ٨٠٠ كيلو متر في الساعة . المعجم العلمي المصوّر : ٥٧٢ .

(٢) اللابة البركانيّة هي الصخر المنصهر الذي يخرج من باطن الأرض خلال شقوق في سطحها ، وكذلك الصخر الذي يتكوّن عندما تتجمد هذه المادّة المنصهرة . المعجم العلمي المصوّر : ٣٣٥ .

وهي تنقسم إلى نوعين هما :

١ - لابة الباهوهو : وهي لابة بازلتيّة تنساب ثمّ تتجمّد في سطوح متموجة أو حبليّة الشكل أو متجمّعة ، وهي أحد الأنواع التي توجد في جزيرة هاواي . المعجم العلمي المصوّر : ٤١٨ .

٢ - لابة وساديّة : وهي فيض من اللابة انتشر في البحار والبحيرات فتجمد فيها على هيئة كتل كالوسائد . المعجم العلمي المصوّر : ٤٣٦ .

(٣) هي نوع من الصخور الناريّة ، وهي صخور تتكوّن عندما تبرد ثمّ تتجمّد مادّة الصهارة »

عالية<sup>(١)</sup> مترافقة مع نيران كبيرة ناجمة من اشتعال الغازات السامة بواسطة حرارة اللابة وبمساعدة الأوكسجين الجوّي، وللضغط أثر كبير في حدوث دوي الانفجار، وقد حكى الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾<sup>(٢)</sup>، وتوفّر هاتين الظاهرتين - وهي مرحلة التفجر، وازدياد منسوب المياه على سطح الكرة الأرضية - سيكون السبب في التهاب جوف الأرض المؤدّي إلى اشتعال مياه البحار والمحيطات بخروج الصهارة الأرضية، فتحوّل المياه إلى مياه كبريتية شديدة الحرارة لا تستقيم معها الحياة، وبذلك تكون نهاية الحياة على وجه هذا الكوكب الأخضر.

وفي العصر الحاضر جاءت النظريات العلميّة مؤيدة لما ستؤول إليه الأرض في المستقبل، وهذا من الشواهد العلميّة على صدق ما جاء به القرآن الكريم وصدق نبوة المصطفى محمد ﷺ.

## وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ

### بعث الأموات

من المظاهر العامّة التي يستعرضها القرآن الكريم للتغيّر الذي يطرأ على الكون

» في باطن الأرض أو على سطحها، كلّما زادت برودة الصخر الناري صغرت بلوراته ودقّ نسيجه. المعجم العلمي المصوّر: ٣٠٠.

(١) هو زيادة سريعة في الضغط تحدث في حيز مغلق كما يحدث في التفاعلات الكيميائيّة المأجّة للحرارة، وتكون مصحوبة بانطلاق فجائيّ لكميّات كبيرة من الغازات، ويعني أيضاً انطلاقاً فجائياً لغاز تحت ضغط كبير، وكذلك الصوت الذي يصحب هذا الانطلاق. المعجم العلمي المصوّر: ٢٢٥.

(٢) التكوير ٨١: ٦.

هو إخراج أهل القبور من قبورهم بعد حياة برزخية، قد تكون مُلئت بالنعيم أو بالجحيم الذي لا يطاق، أو تُترك الميت على حاله لم يمر عليه نعيم ولا جحيم، وذلك لعدم استحقاقه لهما بأعمال تؤهله، وقد عبّر عن هذا في بعض الروايات بأنه يُلهى عنه، أي يُترك دون إثابة، إلى أن ينادي المنادي بالبعث والصحوة من تلك النومة، وقد تكرر هذا المشهد في آيات عديدة من الكتاب الكريم، قال تعالى:

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

البعث هو نهاية قنطرة<sup>(٢)</sup> الآخرة، ولا بد لصاحب هذا السفر من الانتباه من نومته بعد طي رحلته البرزخية المفضية به إلى آخرته.

### كيفية البعث

لم يغفل القرآن الكريم هذه الحقيقة، بل أوضحها بأجلى صورة، قال تعالى:

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، أي إذا صدر الأمر بالبعث ونفخت نفخة الإحياء بعد طول سبات سينجلي تراب الأجداث<sup>(٣)</sup>، فتتنشز<sup>(٤)</sup> تلك العظام الرميم لحماً، كل قطعة منه تتلو الأخرى، فينهض الميت من مسكنه ينفخ التراب عن رأسه، وقد أفصح الوحي عن هذه الحقيقة التي إليها المآل بقوله: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، فلا يبقى قبر إلا وقد كشف بريح النفخة الثانية؛ لأن البعثة هي تبديد التراب بالريح القوية، وقد ورد لفظ البعثة في موضعين من الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾.

(١) يس ٣٦: ٥٢.

(٢) القنطرة ما يبني على الماء للعبور عليه. الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: ١٦٣.

(٣) الجذث هو القبر. الصحاح للجوهري: ١: ٢٧٧.

(٤) التنشز هو المكان المرتفع. الصحاح للجوهري: ٣: ٨٩٩، ونشزها لحماً: نرفع بعضها على

بعض. وقال الفراء: الإنشاز: تركيب العظام بعضها على بعض. لسان العرب: ٥: ٤١٨.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾<sup>(١)</sup>، ومن الوسائل المحققة للتبعثر النفخ في الصور، أما النفخة الثانية المسماة بنفخة الإحياء فإن القرآن الكريم استعرضها بشيء من البيان، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾<sup>(٤)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾<sup>(٥)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾<sup>(٦)</sup>.

وعليه فإن العظام الرميم<sup>(٧)</sup> التي صارت تراباً أعيدت كهيتها الأولى، والذي صنعها بشراً سوياً ولم تكن شيئاً قادر على إرجاعها من عالم تبعثها إلى صورتها الأولى التي كانت عليها في عالم الابتلاء، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ

(١) العاديات ١٠٠: ٩.

(٢) الأنعام ٦: ٧٣.

(٣) الكهف ١٨: ٩٩.

(٤) طه ٢٠: ١٠٢.

(٥) النمل ٢٧: ٨٧.

(٦) الزمر ٣٩: ٦٨.

(٧) بالية. لسان العرب: ١٢: ٢٥٣.

قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ \* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾

### البعث في القرآن

البعث الوارد في الاصطلاح القرآني على معنيين ، قدّم سبحانه وتعالى لكل واحد منهما مثلاً على قدرته عليه .

**أحدهما:** إرجاع الروح إلى جسدها بعد انقطاع علائق الحياة بينهما مع بقاء أبدانهم لم تنالها الأرض بتبديل ولا تغيير ، وقد ضرب سبحانه هذا المثل بأصحاب الكهف<sup>(٢)</sup> الذي شاع في مجتمعهم كيف تعاد الروح المحركة للبدن بعد مفارقتها له ، وهذا أعمّ من كون البدن أصابه التبعض أم لا ، قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿٣﴾ .

وأما الأخرى فهي الإمامة بالنفخة الأولى ، وبعدها الاندراة والتصيير ، ثمّ تتلوها النفخة الثانية ، وهي نفخة الإحياء ، وقد وردت العديد من الآيات القرآنية الدالة على ذلك ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤﴾ ، وقد ضرب الله في ذلك من كلّ مثل لتحصل البرهنة على قدرة الإحياء ، كما أنّ له

(١) يس ٣٦ : ٧٨ و ٧٩ .

(٢) أصحاب الكهف هم : مكسميلينا ، يمليا ، مرطولس ، ذنونس ، ديودنس ، سار بيونس ، كشفوطديوس ، بطينوسوس والكلب قطمير . كتاب المحبر لمحمد بن حبيب البغدادي :

.٣٥٦

(٣) الكهف ١٨ : ١٩ .

(٤) البقرة : ٥٦ .

قدرة الإماتة في أمثلة حيّة حفظها لنا كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ويتضح هذا الأمر جلياً في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾ .

وقال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعٌ الْعُرُورِ ﴿٣﴾ .

وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٤﴾ .

وقال تعالى : ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٥﴾ .

(١) البقرة ٢: ٢٤٣ .

(٢) البقرة ٢: ٢٥٩ و ٢٦٠ .

(٣) آل عمران ٣: ١٨٥ .

(٤) الأنعام ٦: ٣٦ .

(٥) الأعراف ٧: ٢٥ .



وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ (٤).

وهذه قاعدة قرآنية مؤسّسة في المنهج القرآني بأن القادر على الإماتة قادر على الإحياء، وفي كلا شقّي القاعدة إثبات للقدرة المطلقة لله تعالى.

### عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

#### الإدراك الذاتي للنفس بعد التخلص من البدن

قامت الآيات المتقدّمة بدور التمهيد للوصول إلى تحصيل الحقيقة التي نطقت بها الآية الثانية من حصول العلم والتوصّل إلى مرتبة اليقين الجازم، الذي لا ريب فيه ولا شكّ يعترّيه، من إدراك النفس لذاتها، وهو نوع من الإدراكات الأوّلية، وبما يصدر منها من البواعث والأفعال في عالم الدنيا أو عالم العمل.

#### مرتبة الإدراك الذاتي للنفس

ومرتبة الإدراك الذاتي للنفس هي ما يسمّى بالأنا، وليس المقصود به الأنا

(١) العنكبوت ٢٩: ٥٧.

(٢) السجدة ٣٢: ١١.

(٣) الأحقاف ٤٦: ٣٣.

(٤) القيامة ٧٥: ٤٠.

الأسفل المختصّ بعالم المادّة، بل الأنا الأعلى المختصّ بعالم المعنى أو عالم ما وراء الطبيعة؛ لأنّ المادّة مألها إلى التصيير والتغيير والاندراس والتحلّل والفاء والتلاشي، أمّا الروح فلا فناء يعترئها، بل هي سابحة خالدة في عالمها المسانخ لها وهو عالم المجردات أو عالم العقل الأول بعد إفلاتها من سجن الجسد المادّي الكثيف بكسر عرى أغلال المادّة، وبالموت تسبح الروح كمجرد في عالمها اللائق بها، فتكون قادرة على العلم والإحاطة بما لا يمكنها الإحاطة به وهي حبيسة مادّيّة في جسدها.

### إدراكات النفس قبل الموت

وقد ورد في آي القرآن الكريم وكلمات الأئمّة ؑ ما يدلّ على حصول العلم التامّ للنفس بعد مفارقتها البدن، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾<sup>(١)</sup>، العين الباصرة في الجسد المادّي لا يمكنها إدراك إلا ما هو مادّي، وما هو مسانخ لعالمها، أمّا النفس بعد تحقّق التخلص من البدن وانقطاع علائقها به فإنّها تدرك الأمور والحقائق التي كانت خافية عليها حين اقترانها بالجسد<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة ق ٥٠: ٢٢.

(٢) النفس ما دامت ملابسة للهيولى لا تعرف مجرد ذاتها، ولا شيئاً من صفاتها التي تكون لها وهي مجردة، ولا شيئاً من أحوالها عند التجرد؛ لأنّها لا يمكنها الرجوع إلى خاصّ ذاتها والتجرد عمّا يلبسها، وهذا يكون عائقاً لها عن التحقّق بذاتها، وعن مطالعة شيء من أحوالها، فإذا تجردت وزال عنها هذا العوق فحينئذٍ تعرف ذاتها وأحوالها وصفاتها الخاصّة بها، وأنّها تدرك الأشياء بلا آلة بدنيّة، وإنّها مستغنية عنها، وأنّ ما يتخيّل لها الآن من أنّ لا حقيقة إلا للجسم المحسوس، وأن لا وجود لشيء سواه، كلّه باطل. التعليقات للشيخ الرئيس أبي علي سينا: ٢٣.

## الماديات وتعذر الإحاطة العلمية للنفس

والآية المباركة تبين هذه الحقيقة بأجمل وأدق تعبير، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا»<sup>(١)</sup>، أي أنّ الغالبية العارفة ترتع في الدنيا الفانية كما ترتع البهائم والأنعام، وهم نيام في غفلة، لا يحاسبون أنفسهم على ما اجترحوه في ليل أو نهار، وقد أغوتهم الدنيا، فأخذوا يلهثون ورائها كالبهيمة الضالّة همّها علفها، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا»<sup>(٢)</sup>، أمّا المستضيئون بنور ربّهم، والذاكرون له في خلواتهم، فهم المستأنسون به في غربتهم، قد وصلوا إلى أعلى سموّ للنفس عن النقائص والردائل، وإلى أعلى درجات الكمال، وقد عبّر عنهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾<sup>(٣)</sup>، ولهذا ورد في الرواية عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «ليس منّا من لم يحاسب نفسه»<sup>(٤)</sup>، والمقصود أنّه ليس معنا من لم يحاسب نفسه على ما اجترحت في نهاره، وقد يكون المراد ليس سائراً في طريقنا، وليس من شيعتنا، من لم يحاسب نفسه، يوم الحساب وعلى رؤوس الأشهاد؛ إذ تنشر الصحف، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾<sup>(٥)</sup>، وينظر كلّ إلى صحيفته وما كتب فيها، فيا هول ما يرى! قال تعالى حكاية عن هذا الاستغراب والدهشة

(١) بحار الأنوار: ٤: ٣٩.

(٢) أعلام الدين للدبلي: ٢٤٩.

(٣) سبأ: ٣٥: ١٣.

(٤) قال الإمام الكاظم عليه السلام: «يَا هِشَامُ، لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ، فَإِنْ عَمِلَ حَسَنًا اسْتَزَادَ مِنْهُ، وَإِنْ عَمِلَ سَيِّئًا اسْتَعْفَرَ اللَّهُ مِنْهُ وَتَابَ إِلَيْهِ» تحف العقول عن آل بيت

الرسول لابن شعبة الحراني: ٣٨٣.

(٥) التكوير ٨١: ١٠.

التي علت الوجوه: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾<sup>(١)</sup>. إذن هناك علم للنفس الإنسانية حاصل لها بكل من كبائر الذنوب وصغائرها وما يصدر عنها من أعمال صالحة، كبرت أم صغرت، لا بد لها من الإحاطة به.

ويتلخص مما تقدم: أن الإنسان بما هو كذلك يستطيع الوصول إلى مرتبة من مراتب العلم، إلا أن ارتباط النفس بالجسد المادي وارتهاؤها به يجعل الإحاطة العلمية بما صدر منه، وإدراك الحقائق كما هي عليه، متعذر لحيلولة المادة دون ذلك.

### الوصول لمرتبة النفس المطمئنة

أما إذا تحررت النفس من كثافة البدن وأرضيته وظلمانيته فإنها تكون قادرة على إدراك الحقائق كما هي عليه، وتعرف عواقب الأمور الخافية، وتدرك كل ما لم يكن مدرك في عالم المادة<sup>(٢)</sup>، وما قوله تعالى: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾<sup>(٣)</sup> إلا تعبيراً عن هذا المعنى، والسير العلمي في عالم المادة هو نحو من السير الناقص، لا يتكامل ولا يبلغ ذروته إلا في مرحلة التخلص من ظلمانية المادة وعوائقها التي تكون مانعاً من الإحاطة وإدراك حقائق الأشياء بما هي عليه.

ولهذا عبر الله تعالى عن رسوله الأكرم ﷺ بالنفس المطمئنة التي تدرك حقائق الأشياء من غير زيادة في العالمين المادي والماورائي، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ \* ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً \* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي \* وَاَدْخُلِي

(١) الكهف: ١٨: ٤٩.

(٢) التعليقات للشيخ الرئيس ابن سينا: ٢٣.

جَنَّتِي ﴿١﴾ .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا أزدَدْتُ يَقِيناً» ﴿٢﴾ .

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾

### التحذير من الغرور

الآية المباركة تخاطب الإنسان وتحذره من الاغترار والانخداع وتنبئ الطريق السوي إلى ما يخالفه، ومن الميل عن طريق الحق إلى الضلال، ثم تنتقل لتضفي صفة الكرم على الذات المقدسة، وهو الإغداق بالعطاء من غير مئة، ودون مقابل يرتجى من هذا الإعطاء إلا إلفاتاً للعبد إلى ما فيه النجاة من التوجه إلى مقام الربوبية ولحاظ كرمه تعالى، ليكون ذلك داعياً إلى صياغة شخصية إيمانية متحلية بالتقوى والتزام الطريق المستقيم وعدم إبداله بالمعوج من السبيل.

### الاغترار بكرم الله

إلا أن بعض الناس يستدرج إلى هاوية الاغترار، وتصرف أنظارهم عن مقام الربوبية، ويعتبرون الكرم الإلهي مدعاة إلى التضييع، ويستعملون ما وهبوا من عظيم النعم والآلاء في صنوف المعصية والإغواء، وبذلك يعصون الله بنعمه، غافلين أو متغافلين، عن أن النعم والحباء طريق إلى الطاعة والامتثال، وبها يتم تجنب المعصية والتحرز من اتباع خطى الشيطان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٣﴾ .

(١) الفجر ٨٩: ٢٧ - ٣٠ .

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٢: ٣٨. كشف الغمة: ١: ١٧٠ .

(٣) البقرة ٢: ١٦٨ .

إِنَّ الْمُتَعَلِّلِينَ يَدْرُؤُونَ اللَّوْمَ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ الْإِلَهِيِّ النَّابِعِ مِنْ كَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، إِلَّا أَنْ هَذَا التَّسْتَرُّ وَالتَّعَلُّلُ غَيْرُ مَجْدٍ وَلَا مَعْذِرٍ مِنْ اسْتِحْقَاقِ الْعِقَابِ وَاللَّوْمِ الْإِلَهِيِّ بِصُدُورِ التَّقْرِيعِ الصَّادِرِ فِي آيَاتِ أُخْرَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى \* وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا \* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٢).

إذن جموح النفس وخروجها عن مقام الاعتدال يجعلها مورداً من موارد العذاب والشقاء، أمّا الكريم فإنّ كرمه شامل للمحسنين الصالحين، وينأى عن الفاسقين المعاندين المتبعين لأهوائهم، كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (٣)، الرحمة الفائضة من مقام الرحيمية (٤) الإلهية الخاصة والرحمانية الشاملة لكل ما يصدق عليه أنه شيء بلا تخصيص لصالح دون غيره، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ \* يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ \* وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ (٥).

### لا تغترّ بكرم الله في الدنيا

الكافر بالله تعالى لا يمكنه بحال من الأحوال الاتكال على كرمه تعالى، وإن كان يشمل في دار الدنيا، إلا أنه بعيد عنه يوم الحساب؛ لأنه من الرحمة الرحيمية،

(١) إبراهيم ١٤: ٧.

(٢) النازعات ٧٩: ٣٧ - ٣٩.

(٣) الأعراف ٧: ١٥٦.

(٤) الرحيمية تقتضي إفاضة الرحمة وتخصيصها بالمؤمنين خاصة. نور البراهين للسيد نعمه

الله الجزائري: ٢: ١٧٣.

(٥) الانفطار ٨٢: ١٤ - ١٦.

ولهذا نجد الأئمة من آل البيت عليهم السلام يؤكدون على عدم الاغترار بالدنيا وزخرفها، فإن ورائها حساب شديد، والغرض الإلهي من إضفاء النعم على العباد اتّخاذها طريقاً لمرضاته، وسبيلاً إلى رضوانه، وتحقيقاً للعدل بين العباد، وزاداً معدداً للتزود به في طريق الآخرة، قال الإمام السجّاد عليه السلام بعد أن أتاه سائل: «مَرْحَباً بِمَنْ يَحْمِلُ لِي زَادِي إِلَى الْآخِرَةِ»<sup>(١)</sup>، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كم مغرور بالستر عليه، ومستدرج بالإحسان إليه»<sup>(٢)</sup>؛ إذ أن الله سبحانه وتعالى قد أرخى الستر على المخطئين فانخدعوا بذلك، وتغافلوا عن كونه استدرجاً وإمهالاً يليه حساب وانتقام، وأن الستر يدعو إلى العود عن الخطيئة، والكرم يدعو إلى الشكر.

### التحذير من عواقب الأعمال غير الصالحة

أمّا في مقام تأسيس قاعدة عامة، وفي مقام الركون والاتكال على كرم الله وعفوه عن المخطئين، فإن الإمام السجّاد عليه السلام ينبري بطلاقة البيان، وصدق الجنان، ونمير علم لا ينضب في مناجاته، فيقول: «الْهِيَ لَمْ أَعْصِكَ - حِينَ عَصَيْتُكَ - وَأَنَا لِرُبُوبِيَّتِكَ جَاحِدٌ، وَلَا بِأَمْرِكَ مُسْتَخِفٌّ، وَلَا لِعُقُوبَتِكَ مُتَعَرِّضٌ، وَلَا لِعِيدِكَ مُتَهَاوِنٌ، وَلَكِنْ خَطِيئَةٌ عَرَضَتْ، وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، وَغَلَبَنِي هَوَايَ، وَأَعَانَنِي عَلَيْهَا شِقْوَتِي، وَغَرَّنِي سِتْرُكَ الْمُرْخِي عَلَيَّ»<sup>(٣)</sup>. في مقام الابتغال والثناء على الله يمكن للإنسان أن ينطلق صادقاً بالمدحة لله والإقرار بكرمه بلسانه وعمله ببرهان.

إن أهل الخطايا والغارقين في بحر الرذائل لا يمكنهم الاتكال والاعتماد على كرم الله وصفحه ورضوانه؛ لأنه صدر منه تعالى الوعيد والعذاب الشديد، قال تعالى:

(١) إحقاق الحقّ للتستري: ٢٨: ٩٧. كشف الغمّة: ٢: ٧٦.

(٢) مجمع البيان للشيخ الطبرسي: ١٠: ٢٨٦.

(٣) الصحيفة السجّادية: دعاء أبي حمزة الثمالي.

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى \* وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا \* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾<sup>(٢)</sup>، والآيات الكريمة لها مساق واحد هو التحذير من عواقب الأعمال غير الصالحة، والإغراق في تعاطي الذنوب والموبقات<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؛ لأن الغرور يورد صاحبه موارد المهانة والذل والخزي، وتخيب السعي، والخلود في العذاب الشديد، وإذا غفل عن الاستدراج الإلهي له<sup>(٤)</sup>، وأوكل إلى خبث عمله، سيزداد ضلالاً بعد ضلال، وبذلك يكون قد ظلم نفسه وأهلكها بعلمه وسوء اختياره.

## الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾

### نعم الله على الإنسان في خلقه

بعد الفراغ من التحذير الإلهي المستمر، والتأكيد الرباني بعدم الإغترار بالكرم الإلهي، والاستمرار في ارتكاب المعصية واجتراح السيئة، ينتقل بعدها إلى بيان المنعم على الإنسان بالتسوية لاستقامة خلقته واستقامة مرته، بأن ذلك الموصوف بالكرم والمعروف به هو الذي خلقك بقدرته، وعدلك في أحسن خلقه

(١) إبراهيم ١٤: ٧.

(٢) النازعات ٧٩: ٣٧ - ٣٩.

(٣) قال النبي ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : الشُّرْكَ بِاللَّهِ ، وَالسُّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ » الخصال : ٢ : ٣٦٤ .

(٤) روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : « إِذَا أَحْدَثَ الْعَبْدُ ذَنْبًا جَدَّدَ لَهُ نِعْمَةً ، فَيَدْعُ الْاسْتِعْفَارَ ، فَهُوَ الْاسْتِدْرَاجُ » قال تعالى : ﴿سَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مجمع البيان : ١٠ :

٩٨ . والآية في سورة الأعراف ٧ : ١٨٢ .



طبعاً وطبيعة ، فجعل طبعك باعتدال المزاج ، وانبساط النفس ، وجعل طبيعتك باكتمال الأعضاء من غير نقص أو زيادة ، واعتدال منظر العام بما يناسب استواء الخلقه وعظيم الصنع ، ولهذا قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (١) .

وقد أوسع الباحثون في علم الأجنّة (*Embryology*) (٢) وعلم التشريح (٣) أو تشريح الأعضاء (*Anatomy*) (٤) بأنّ الكروموسومات (٥) بأعدادها حين انقسام الخلايا الجرثومية المكوّنة للجنين لها الأثر الرئيسي في استواء أو عدم استواء خلقه الجنين ، وبعبارة أخرى : أنّ انقسام الكروموسومات (*Y*) و (*X*) (٦) حين انقسام الخليّة لكلّ قسم (٤٦) كروموسوم من غير زيادة أو نقصان يؤدي إلى خروج الطفل من رحم أمّه مستوي الخلقه ، وهذه هي الشفرة الإلهية في خلق الأجنّة ، مع العلم أنّ المورثات من الجينات (٧) المختلفة يحملها الحيوان

(١) التين ٩٥ : ٤ .

(٢) هو فرع من فروع علم الأحياء يتناول دراسة أطوار تكوين الجنين ونموه في النبات والحيوان ، وعلم الأجنّة عادة مقصور على ذلك الجزء من تاريخ حياة الفرد ما بين اتّحاد الخليتين الجرثوميتين وإكمال بنیان الجسم . المعجم العلمي المصوّر : ٢١١ .

(٣) هو علم دراسة بنیان الحيوان والنبات ، وكذلك بنیان كائن حيّ بعينه ، وتدلّ أوراق البردي القديمة على أنّ المصريين القدماء كانوا يهتمون بالتشريح قبل الميلاد بستّة عشر قرناً . المعجم العلمي الحديث : ٢٠ .

(٤) معجم المصطلحات الطبية والعلمية الحديث للدكتور ميلاد بشاي : ٧٠ .

(٥) هي عبارة عن خيوط من المادّة الحية تحمل المورثات وهي الجينات . علم نفس النموّ للدكتور حامد عبد السلام زهران : ٩٩ .

(٦) الكروموسوم الأثوي والذكريّ على الترتيب . علم نفس النموّ : ١٠٩ .

(٧) هي وحدات دقيقة من المادّة الحية تشبه الخرز ، حيث يحمل كلّ كروموزوم أكثر من «

المنوي<sup>(١)</sup>، وقد ذكر علماء تشريح الأعضاء أنّ التشوهات الخلقية الدقيقة أو الظاهرة إنّما هي بفعل زيادة أو نقص أحد الكروموسومات الموجودة داخل الخلية، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾<sup>(٢)</sup>، والسياق القرآني يستفاد منه أنّ بقية المخلوقات المغايرة للإنسان لم تكن في مستوى الخلقة التي حظي بها الإنسان، ولهذا ورد قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾، فالتسوية تأتي بعد ترتيب وتهيئة واستكمال العديد من التخليق من طور<sup>(٣)</sup> إلى طور، وفي كلّ طور من أطوار التكوين يكون الله تعالى مستوى من التسوية أكثر تطوراً من المرتبة التي قبلها، وفي نهاية فترة الحمل يصل إلى نهاية فترة التكوين<sup>(٤)</sup>

» ١٠٠ جين، وتحمل المورثات جميع الصفات التي تحدّد خصائص الفرد. علم نفس النمو: ٩٩.

(١) الحيوان المنوي هو الخلية التناسلية الذكرية التي تتحد بالبويضة، أي الخلية التناسلية الأنثوية لتكون الويجوت؛ إذ يمكن عادة تمييز الحيوان المنوي عن المشيج الأنثوي - أي البويضة - بما يحويه بنيانه من تراكيب خاصة كالأهداب أو السوط، وتتولد هذه الحيوانات المنوية في النسيج الجرثومي للذكر فيكون الناتج النهائي لعملية تكوين الحيوانات المنوية هو الخلايا المنوية المتحركة. المعجم العلمي المصنوع: ٥٢٢.

(٢) الإنسان ٧٦: ١.

(٣) الطور الحال، ومن طور إلى طور: أي من حال إلى حال. شرح أصول الكافي للمازندراني: ٤٢: ٣.

(٤) في الشهر الثامن والتاسع. ومن أبرز مظاهره هو الآتي: تزداد التفصيلات التشريحية، اكتمال كلّ أعضاء الجسم وإمكاناتها الوظيفية، تكوين الشحم في كلّ الجسم ممّا يعدّل الجلد ويعدّل حدود شكله، يفتح لون الجلد، النشاط والحركة أكبر وأكثر استمراراً، يمكن تغيير موضعه في الرحم المزدحم، إسراع دقات القلب، عمل أعضاء الهضم وإفرازها، تكوّن الرأس ربع الجسم، يصل الطول إلى حوالي ٥٠ سم، والوزن إلى حوالي ٣ كيلوجرام، استعداد الجنين للحياة. علم نفس النمو: ١٠٨.

وكمال التسوية والإبداع الإلهي بحيث يجسد أرقى كمالات الخلق، قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (١) (٢).  
وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ \* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ \* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (٣).

### فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

#### نعم الله على الإنسان بعد خلقه

أغدق الله تعالى على الإنسان بعد خلقه سوايح النعم المتتابعة جيلاً بعد جيل، وطوراً بعد طور، حتى يخرج تام الخلق، مستوي القامة، وأتبعها باختلاف صور المخلوقين لحكمة في الصنعة.

(١) المؤمنون ٢٣: ١٤.

(٢) محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن فضال، عن الحسن بن الجهم، قال: «قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ النُّطْفَةَ تَكُونُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَصِيرُ عَلَقَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَصِيرُ مُضْغَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَإِذَا كَمَلَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ بَعَثَ اللَّهُ مَلَكَينِ خَلَائِقِينَ فَيَقُولَانِ: يَا رَبِّ مَا تَخَلَّقُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى؟ فَيُؤْمَرَانِ. فَيَقُولَانِ: يَا رَبِّ شَقِيحًا أَوْ سَعِيدًا؟ فَيُؤْمَرَانِ. فَيَقُولَانِ: يَا رَبِّ مَا أَجَلُهُ؟ وَمَا رِزْقُهُ؟ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ حَالِهِ؟ وَعَدَدَ مِنْ ذَلِكَ أَشْيَاءَ، وَيَكْتَتِبَانِ الْمِيثَاقَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ.

فَإِذَا كَمَلَ اللَّهُ لَهُ الْأَجَلَ بَعَثَ اللَّهُ مَلَكَاً فَرَجَرَهُ رَجْرَةً، فَيَخْرُجُ وَقَدْ نَسِيَ الْمِيثَاقَ. فَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ الْجَهْمِ: فَقُلْتُ لَهُ: أَفَيَجُوزُ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ فَيَحْوِلَ الْأُنْثَى ذَكَرًا، وَالذَّكَرَ أُنْثَى؟

فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ «الكافي» ٦: ١٣.

(٣) البلد ٩٠: ٨-١٠.

## الإتقان في خلق الصورة الإنسانيّة الظاهريّة

إذ جعل سبحانه وتعالى ألوانهم مختلفة ، وصورهم متفاوتة ، بين الطويل والقصير ، والنحيف والسمين ، والأسود والأبيض ، وما إلى ذلك من مظاهر الاختلاف ، إلا أنّ التركيب الهيكلي للإنسان على تناسق تامّ مع المهام الوظيفيّة التي تقوم بها الأعضاء المكوّنة له ممّا يتفوّق به على سائر المخلوقات ، ولهذا فإنّ المصوّر العظيم تعالى قال في محكم كتابه : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

إذ الهيكل العام للإنسان واحد ، إلا أنّ المشخّصات العامّة التي يقع فيها الاختلاف - لو اتّفقت - لوقع الخلط بين أفراد الإنسان ، ولصعب التعامل معهم ، ممّا يجعل في هذا الأمر نوعاً من الصعوبة في التعايش والتأقلم الاجتماعيّ في المجتمع الواحد أو بين المجتمعات المتعدّدة ، هذا من ناحية الاختلاف في المظهر الخارجيّ العام<sup>(١)</sup> .

## الإتقان في خلق الصورة الإنسانيّة الباطنيّة

إلا أنّ الأمر لا يقف عند هذا ، بل يتعدّاه إلى الاختلاف في المؤهّلات المقوّمة للشخصيّة الإنسانيّة ، والقدرات الكامنة في الفرد الإنسانيّ ، وهي الصورة الباطنيّة التي يختلف فيها أفراد الجنس البشريّ ، فكما أنّ الإنسان يتّصف بالحسن والقبح في الظاهر فإنّه يتّصف بهما في الباطن كذلك ، والصورة الباطنيّة للإنسان تتشكّل على وفق عناصر ومعطيات لا بدّ من توفرها ، فلا بدّ من وجود متشخص نافياً بوجوده عن ذاته العدم ، وسيرة لهذه الشخصية تتبلور من خلالها الشخصية ، وعلى هذا فإنّ الصفاء الباطنيّ والشفافيّة الروحيّة وليدة الأعمال الحسنة التي تصدر

(١) نشأ جزاء هذا نشوء فرع علميّ جديد يسمّى بعلم الشكل (*Morphology*) ، وهو العلم الذي يتناول دراسة النبات والحيوان شكلاً وبنياً ، ويشمل ذلك الأجهزة والأعضاء والأنسجة والخلايا . المعجم العلمي المصوّر : ٣٨٠ .

من تلك الشخصية، كذلك الكدورات النفسية والشقاء الروحي نتيجة للأعمال السيئة التي تصدر منه، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ \* فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، والصورة الواردة في الآية المباركة عامة لكل ما يكون صالحاً، لأن يكون مصداقاً لهذا اللفظ العام، وبإمعان النظر نجد أن الإنسان بعالميه المادّي والروحي له صورتان متناسختان لهذين العالمين، فهو في العالم المادّي متناسب هيئته مع الصورة المادّيّة الظاهريّة، وفي العالم الروحي له صورة باطنيّة متناسبة معه ومسانحة لحقيقته.

### نعمة الاختلاف في صورة البشر

وعلى الرغم من كثرة البشريّة إلا أن الاختلافات بين أفرادها كثيرة لا يمكن إحصائها، ولهذا فإن العلم الجنائي في العصر الحديث جعل ما تدلّ عليه البصمة البشريّة دليلاً من الأدلة الجنائيّة التجريميّة المادّيّة المعمول بها في جميع المحاكم المحليّة والدوليّة، والسبب في ذلك قيام الدليل العلميّ التجريبيّ القاطع أن البصمات من مميّزات الشخصية، ولا يوجد شخصان في العالم لهما البصمة ذاتها، ومن الاكتشافات الحديثة في العلم الجنائي في الولايات المتّحدة الأمريكيّة أن البصمة البصريّة هي من الدقّة بحيث لا ترقى إليها بصمة الإصبع، وقد جعل القانون الجنائيّ الأمريكيّ هذه البصمة في مقدّمة أدلة الإدانة الجنائيّة، ولها المقدّمة والاعتبار القانونيّ على بصمة الإصبع.

هذا بعض ما توصل إليه العلم الحديث من الأدلة، وقد وجد الكثير ممّا يعتبر صالحاً كدليل لتمييز الشخصية، كنبرة الصوت، والبصمة الفكرية، والبصمة

(١) هود ١١: ١١٤.

السلوكية ، وغيرها الكثير الذي لا زال خاضعاً للتجربة ، ولعلّ من أعظمها البصمة الوراثية ( DNA ) فإنّ فيها العجب العجاب ، حيث يمكن التوصل بها إلى معرفة أدقّ الأدلة الجنائية من خلال أي جزء من الإنسان ، فسبحان الخالق المتعال .

### الاختلاف الروحي بين المخلوقات

ينبغي التنبيه على أنّ الله تعالى لا يريد نفي الاستقامة في الخلقة عن غير الإنسان ، بل المراد الإلهيّ أنّه قد جعل الإنسان في أكمل مراتبها وأعلى مستوياتها؛ إذ أنّ الكمال الجسمي في أي مخلوق يتناسب مع المهام التي يريد الله سبحانه وتعالى له أن يؤديها بحيث تؤهله للقيام بشؤونه ومصالحه .

والاختلاف الموجود بين أفراد عالم المادة هو السبب الرئيس في تفاعل بعض أجزائه مع بعضها الآخر على جميع المستويات ، وجميع الأبعاد المكوّنة لذاته ، بما في ذلك مرحلة الاستعداد والقابلية ، فإحداث نوع من التشابه الظاهريّ المخبري لبعض الحيوانات ، أو بعض أفراد الإنسان ، كما هو الحال في عملية الاستنساخ البشريّ في بعض الدول الأوروبيّة ، الناشئ من زرع خلية مستنسخة داخل الجسم البشريّ بعد تمام الانقسام يحدث وجود فردين متشابهين من الفرد ذاته ، ولكنّ هذا التشابه من ناحية المظهر الخارجيّ فقط ، أمّا من الناحية الروحية والنفسيّة فلا دلالة أصلاً على وجود التطابق من هذا النوع ، بل قد يحدث تباين وتقابل بين الطرفين المنتجين من السلالة الواحدة .

إذن وقوف العجلة العلميّة حائرة عن تخطّي التشابه في المادة الخلقية الخارجيّة إلى مراحل من التشابه النفسي السيكولوجيّ لهو دليل على عظيم الصنعة وبالغ الحكمة لله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

والتركيب المنسجم بين العالمين الماديّ والروحيّ دالّ على حكمة الصانع لما في هذا الاختلاف من إيجابية التفاعل بين أفراد المجتمع الواحد أو المجتمعات

المتعدّدة، والاختلاف الواضح في مستوى التفكير بين الأفراد يؤثر بشكل واضح على درجة التفاعل الاجتماعيّ بينهم في الخارج .

### اهتمام الشارع المقدّس بالاختلاف

وقد أولى الشارع المقدّس الاختلاف في المظهر المادّي والروحيّ المزيد من العناية، فالزواج من الظواهر الاجتماعيّة الشائعة بين الناس منذ بداية الخليقة، وقد جاءت الأديان - بما فيها الدين الإسلاميّ - مشجّعة لهذه الظاهرة وحائّة عليها، ومع أنّ الإسلام أولى هذا الأمر العناية والرعاية إلّا أنه لم يغفل الفروق الفرديّة في المجتمعات، فالدواعي للزواج قد تختلف، ولهذا فإنّ الرسول الأعظم ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»<sup>(١)</sup>، أي أنّ الدواعي المحرّكة للرجل نحو نكاح المرأة تختلف بين فرد وآخر، وهذا نوع من أنواع الاختلاف الساري في المجتمعات، ولا يخلو من حكمة تدلّ على أنّ الاختلاف ركيزة من الركائز الاجتماعيّة.

### كَلَّا بَلْ تُكَدِّبُونَ بِالَّذِينَ

#### آثار الانخداع بكرم الله تعالى

﴿كَلَّا﴾ في اللغة العربيّة وعند أهل اللسان من النحاة إمّا للنفي أو أن تكون (الكاف) للتنبيه و (لا) للنفي .

أمّا عند فقهاء اللغة في محاوراتهم فقد يكون مفادها الزجر والردع عن فعل أو قول معيّن، فيكون المعنى في الآية المباركة الردع والزجر من الانخداع والإغترار بالكرم الإلهيّ؛ إذ قد يجرّ هذا الأمر إلى ارتكاب العديد من الموبقات والجرائم

(١) صحيح البخاري: ٦: ١٢٣.

الأخلاقية والاجتماعية، والغفلة عن الرقابة الإلهية، والتكذيب بيوم الدين لتوهم شمول الرحمة له بداعي الكرم والتفضل الإلهي، وعلى طبق ما تقدم يكون التكذيب بيوم الدين منشأ الطغيان والانحراف السلوكي المنافي لطريق الاستقامة، وعلى النقيض تماماً يكون الإيمان بيوم الدين أساساً للسير في طريق الهداية وانتهاج الطريق القويم، ومن الآثار المتوقعة للتكذيب بيوم الجزاء انبثاق الشعور بالألمة، والانفلات السلوكي غير المتزن، والركون إلى الدنيا وجعلها الغاية التي ترجى، فيتخذ لنيلها جميع الوسائل المتاحة، المشروعة وغير المشروعة، وهذا الانجراف وراء إغواء الدنيا ينسي الآخرة، ويبعد عن المبدأ المتعال الذي هو الغاية الحقيقية المنشودة، والمنتهى الذي لا بد من العود إليه، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ﴾

### الغرور بالله ضد الإيمان بالمغيبات

إن الإقرار بالمعاد أصل من أصول الدين، وشرط الإيمان به عدم الإغترار بالله تعالى؛ لأنهما ضدان لا يجتمعان، وقد كان الأساس لرسالة الأنبياء ﷺ التوحيد الخالص لله تعالى والعمل بمقتضاه لعمارة أرضه، والإيمان بعد ذلك بالعود بعد انقضاء الأجل إليه تعالى ليوفي الشاكرين أجورهم على ما عملوه في الدنيا، والتأكيد على هذا الأمر منهم ﷺ، وقد خاض غمار هذا الإنكار العديد من الأمم، والاستسلام للتشكيك أو طلباً للاستيثاق كما كان هذا الأمر عند نبي الله إبراهيم عليه السلام الذي طلب من الله تعالى أن يريه إحياء الموتى، فأتى له الإثبات الإلهي بإحياء أربعة من الطير، وكذلك إثبات الأمر ذاته عند نبي الله عزير عليه السلام الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه الله ولم يتسنّ طعامه وشرابه، أمّا لو كُذّب بيوم الدين فإن هذا الأمر يشكّل انحرافاً وخروجاً عما جُبلت عليه الفطرة من أصل التوحيد والعدالة التي لا تتحقق إلا بالجزاء على كلّ فعل صدر في دار الدنيا، قال تعالى: ﴿الْمَ \* ذَلِكَ



الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ \* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿١﴾ .

وقد أشار الله سبحانه إلى أنّ الكتاب المنزل على رسوله ﷺ من لدنه لا ريب في نزوله عليه ، ولا ريب فيما جاء به من أخبار وتعاليم وتشريع وقصص ومواعظ ، وأنّ بين دفتيه هدى لكل من رام التقوى سبيلاً له وطريقاً يسلكه ، ثمّ وصفهم تعالى في الآية الثالثة من السورة نفسها بأنهم مؤمنون بالغيب ، والمراد من الغيب هنا هو مطلق ما غاب عن الحسّ ومصادر الإدراك ، إمّا لتعالى المحسوس عن المادّة أو لعدم الشهود ، وهو الكينونة المكانية والزمانية للوقائع الواردة في القرآن الكريم ، إلّا أنّه بسبب ورودها في الكتاب الكريم الذي لا ريب في أنّه منزل من عند الله تعالى يكون الإيمان بكلّ ما جاء فيه من الأمور الغيبية ، كالملائكة والجنّ والجنّة والنار والصحف وحضرة القدس ، وغيرها من المغيّبات المترفّعة عن عالم المادّة ، وكذلك ما جرى على الأنبياء من الأحداث السابقة من آدم ﷺ إلى محمد ﷺ ، وما جاءت به كتبهم من التشريعات والتعاليم والوصايا ، وما سيحدث في المستقبل على خاتمة الأمم بعد رحيل نبيهم ﷺ إلى بارئه ، فهو إيمان بالمغيّبات لعدم شهوده وحضوره في زمانهم ، ولم يكن معاصراً لهم ، وما سيؤول إليه هذا العالم ويصير إليه مصير الأحياء ، من قيام القيامة الكبرى ، والحساب في المجمع العظيم والملتقى الكبير بمحضر القدس ، وقيام الحجج ، وما إلى ذلك من المغيّبات الواردة في الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴾ ، والمراد من ﴿ كَلَّا ﴾ الواردة في الآية الكريمة نفي لما قبلها ، وإثبات لما بعدها ، وبيان لحقيقة القوم من أنّهم يكذبون بيوم الجزاء والحساب بعد يوم العمل في دار الدنيا دار الإغترار والفتنة<sup>(٢)</sup> والغناء .

(١) البقرة ٢ : ١ - ٣ .

(٢) الفتنة . جامع البيان لابن جرير الطبري : ٢٩ : ٢٥ .

## سبب تكذيب الأتوام السابقة

مضت الأتوام السابقة على التكذيب بيوم الدين لعدم إدراك ماهية الموت ،  
وكيفية إعادة المعدوم وإمكانه ، ولهذا ورد في القرآن الكريم ما يدل على هذا  
كقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا  
لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (١) .

ويسمى هؤلاء القوم في اصطلاح المتكلمين بالدهرية (٢) لنسبة الإحياء والإماتة  
إلى الدهر ، وبتتبع الحوار القرآني نجد التساؤل الجاد والملح من المؤمنين -فضلاً  
عن الكافرين المعاندين - حول البعث والنشور كقوله تعالى : قوله تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي  
مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ  
اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ  
عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ  
وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَّأْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَّأْنَا  
لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٥) .

(١) الجاثية ٤٥ : ٢٤ .

(٢) «الدهرية» ، وهُم الَّذِينَ يَقُولُونَ : ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ الكافي : ٢ : ٣٨٩ .

(٣) البقرة ٢ : ٢٥٩ .

(٤) الإسراء ١٧ : ٤٩ .

(٥) الإسراء ١٧ : ٩٨ .

- وقوله تعالى: ﴿أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ (١).
- وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءَأَنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٢).
- وقوله تعالى: ﴿وَضْرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٣).
- وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (٤).
- وقوله تعالى: ﴿ءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ (٥).

وقد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام ما يكشف القناع عن ماهية يوم القيامة وعن الحياة الآخروية:

- منها:** عن عبد الرحمن بن زيد (٦) عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرْضُ الْقِيَامَةِ نَارٌ مَا خَلَا ظِلُّ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّ صَدَقْتَهُ تَطَّلُهُ» (٧).
- ومنها:** عن عبد الله بن القاسم الجعفرى عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «الْقِيَامَةُ عُرْسُ الْمُتَّقِينَ» (٨).

(١) المؤمنون ٢٣ : ٣٥ .

(٢) المؤمنون ٢٣ : ٨٢ .

(٣) يس ٣٦ : ٧٨ .

(٤) القيامة ٣ : ٧٥ .

(٥) النازعات ٧٩ : ١١ .

(٦) هو عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بن نفيل ، وأمه لبابة بنت أبي لبابة . ولد في حياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسمي محمداً حتى غيره عمر . روى عن أبيه وعمر وابن مسعود ورجال من الصحابة ، وقال البخاري : مات قبل ابن عمر ، وقال ابن حبان في الصحابة : ولد سنة هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة . الإكمال في أسماء الرجال للخطيب التبريزي : ١٤١ .

(٧) الكافي : ٤ : ٣ .

(٨) الخصال : ١٣ .

ومنها: قول أمير المؤمنين عليه السلام: «حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ الْأُمُورُ، وَتَقَضَّتِ الدُّهُورُ، وَأَزَفَ النُّشُورُ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ الْقُبُورِ، وَأَوْكَارِ الطُّيُورِ، وَأَوْجِرَةَ السَّبَاعِ، وَمَطَارِحِ الْمَهَالِكِ، سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ، مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ، رَعِيلاً صُمُوتاً، قِيَاماً صُفُوفاً، يَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، عَلَيْهِمْ لُبُوسُ الْإِسْتِكَانَةِ، وَضَرَعُ الْإِسْتِسْلَامِ وَالذَّلَّةِ. قَدْ ضَلَّتِ الْحَيْلُ، وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ، وَهَوَتْ الْأَفْنِدَةُ كَاطِمَةً، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ مُهَيِّمَةً، وَالْجَمُّ الْعَرَقُ، وَعَظُمَ الشَّقَقُ، وَأُرْعِدَتِ الْأَسْمَاعُ لِزَبْرَةِ الدَّاعِي إِلَى فَضْلِ الْخِطَابِ، وَمُقَايَصَةِ الْجَزَاءِ، وَنِكَالِ الْعِقَابِ، وَنَوَالِ الثَّوَابِ»<sup>(١)</sup>.

فالانقطاع إلى الدنيا لنيل زخرفها وحياسة الفاني من نعيمها يورث طول الأمل وتلقف<sup>(٢)</sup> العاجل من زيرجها<sup>(٣)</sup> مشوب بظلم المحتاج إلى النصفة<sup>(٤)</sup>، وإغراق في الأمل المؤدي إلى التيه في بحر الغفلة، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا»<sup>(٥)</sup>.

وللسلامة من المسائلة لا بد من تعجيل محاسبة النفس قبل يوم الحساب، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا»<sup>(٦)</sup>؛ ذلك أن المحاسبة تجعل الإنسان في غير غفلة عن المعاد، والمنتظر من الحساب وهول المطلع، أما الغافل في ظلمات الأمل فقد أنسته الدنيا ما هو صائر إليه أمره، فتراه في سكرة تغشاه لا فواق منها إلا إذا نشبت المنية فيه أظفارها، وانقطعت عنه علائق المادة

(١) نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ١ : ١٣٥.

(٢) تلقفها: أخذها باليد أو بالقم. تاج العروس: ١٢ : ٢٥٤.

(٣) الذهب. كتاب العين: ٦ : ٢٠٢.

(٤) اسم من الإنصاف. الصحاح للجوهري: ٤ : ١٤٣٢.

(٥) بحار الأنوار: ٤ : ٣٩.

(٦) أعلام الدين للديلمى: ٢٤٩.

في وقت لا تدارك فيه ؛ لأنَّ الروح منه بلغت التراقي ، واحتبس اللسان عن النطق بما يجول في طبّات الجنان ، والحسرة قد أحاطت به من كلِّ مكان ، وحفّ به الأحبة للتوديع بين ناعٍ ومعولٍ<sup>(١)</sup> من غير نفع يرتجى ، ولا مخلص ينتظر ، إلا ما سلف من عمل صالحٍ ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾<sup>(٢)</sup> .

وعن هشام بن الحكم<sup>(٣)</sup> عن الكاظم عليه السلام ، قال : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، فَإِنْ عَمِلَ حَسَنًا اسْتَزَادَ اللَّهَ ، وَإِنْ عَمِلَ سَيِّئًا اسْتَغْفَرَ اللَّهُ مِنْهُ ، وَتَابَ إِلَيْهِ »<sup>(٤)</sup> .

وقد صوّرت الآيات القرآنيّة حال الإنسان بأدقِّ وصف في حال النزاع للخروج إلى عالم البرزخ انتهاءً بعالم البعث من القبور ، وما هم عليه من الحال إلى حين ورود الموقف ونصب الموازين وبدأ الحساب ، قال تعالى : ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ

(١) العول رفع الصوت بالبكاء . الصحاح للجوهري : ٥ : ١٧٧٦ .

(٢) آل عمران ٣ : ١٨٢ . الأنفال ٨ : ٥١ . الحج ٢٢ : ١٠ .

(٣) هشام بن الحكم الكندي : مولاهم البغدادي ، يكنى أبا محمّد وأبا الحكم ، بقي بعد أبي الحسن (الكاظم) عليه السلام . رجال الطوسي لشيخ الطائفة الطوسي : ٣١٨ .

(٤) الكافي : ٢ : ٤٥٣ .

(٥) الصافات ٧٣ : ٢٤ .

(٦) الرعد ١٣ : ١٨ .

سوء الحِساب ﴿١﴾ .

وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيََ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢﴾ .

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ﴿٣﴾ .

### معنيان في التكذيب بيوم الدين

وبناءً على ما تقدّم من بيان حول قوله تعالى: ﴿كَأَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾

فإنّ التّكذيب الصادر من العبد بيوم الدين على معنيين:

**الأول:** أن يكون التّكذيب بالبعث بعد الموت، وهذا نظير ما حصل في الأمم السابقة، والحادث في صدر الدعوة من مشركي العرب.

**الثاني:** أن يكون المراد من التّكذيب هو التّكذيب بالشريعة التي جاء بها النبي ﷺ من ربّه والتي من ضمن معطياتها الكبرى الإيمان بالمعاد بعد انقضاء الدنيا ومجيء الآخرة.

### خصائص الملائكة الذين يكتبون أعمال الإنسان

بيّن سبحانه فيما تقدّم من الذكر أنّ التّكذيب بالدين ومحاربهته هو أساس الانحراف والزيغ<sup>(٤)</sup> عن الطريق المستقيم، وتنكّب الحائدين عن طريق الحقّ، وسيفضي

(١) الرعد ١٣ : ٢١ .

(٢) إبراهيم ١٤ : ٥١ .

(٣) سورة ص ٣٨ : ٢٦ .

(٤) الميل . كتاب العين : ٤ : ٤٣٤ .

بصاحبه في نهاية المطاف عند حلول أجله ، وانتقاله من الدنيا إلى الآخرة ، إلى الشدائد عندما يُؤمر الملك الموكل بنزع الروح ، وسوف تتفتح له أبواب الذكرى ، وستذرف على التقصير والعناد العبرة عندما يتصفح وجوه الأهل والأحبة ، ويكل اللسان عن النطق ، ويتغير الجسم من شدة النزاع وذنو الفراق ، وقد عبرت بلاغة القرآن عن ذلك بأدق تصوير ، قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (١) ؛ ذلك أن الموت حق يدرك صاحبه مهما صعب مناله ، وعنى (٢) على الطالبين نواله ، قال تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (٣) .

نعم ، إن الأعمال الصادرة من العبد قد تُنسبه ذلك ، إلا أنها محفوظة عند الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ (٤) لكونها السبب في الحساب ، والأمر بالعقاب ؛ إذ لا حساب ولا عقاب إلا عن بينة ، ولهذا نطق الوحي بجلي البيان ووضوح البرهان بحفظ صغار الأعمال وكبارها ، وقليل القول وكثيره ، سليمه وسقيمه ، صالحه وطالجه ، قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيَلَّتْنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ (٥) .

(١) سورة ق ٥٠ : ١٩ .

(٢) هو المتمرد الذي لا يقع منه الوعظ والتنبيه موقعا . مختار الصحاح لمحمد بن عبد القادر :

. ٢١٨

(٣) النساء ٤ : ٧٨ .

(٤) طه ٢٠ : ٥٢ .

(٥) الكهف ١٨ : ٤٩ .

## وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾

### الخاصية الأولى: ملائكة كرام حافظين

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾<sup>(١)</sup>؛ إذ أن الله تعالى وكل ملائكة حفظة يحفظون على عباده ما يفعلون من الأعمال، وما هم قائلون من الألفاظ، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾<sup>(٤)</sup> وَمَا تُوخِّي الصُّدُورِ<sup>(٥)</sup>.

وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ﴾<sup>(٦)</sup> صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينٍ يَسْتَعْشُونَ<sup>(٧)</sup> ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ<sup>(٨)</sup>﴾<sup>(٩)</sup>.

(١) سورة ق ٥٠: ١٨.

(٢) اسم من المناجاة. مختار الصحاح: ٣٣٢.

(٣) الزخرف ٤٣: ٨٠.

(٤) قال ثعلب: أن ينظر نظرة بريية. لسان العرب: ١٣: ١٤٥.

وعن عبدالرحمن بن مسلمة الجريري، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ - غافر ٤٠: ١٩ - فقال: أَلَمْ تَرِ إِلَى الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْءِ وَكَأَنَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَذَلِكَ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ «معاني الأخبار: ١٤٧».

(٥) غافر ٤٠: ١٩.

(٦) أي يطونها على ما هم عليه من الكفر. تفسير مجمع البيان: ٥: ٢٤٢.

(٧) قال الراغب: استغشوا ثيابهم: أي جعلوها غشاوة على أسماعهم، وذلك عبارة عن الإمتناع من الإصغاء. تاج العروس: ٢٠: ١٨.

(٨) ذات الصدور مضمراتها. تفسير جوامع الجامع للشيخ الطبرسي: ٢: ٤.

(٩) هود ١١: ٥.



وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٥).

ولا بدّ للفعل من وعاء للمكان والزمان ، فلا فعل يخرج عن دائرتهما لأنهما يشهدان على العبد بما فعله من خير أو شرّ يوم يشهدهما الله سبحانه ، قال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦).

ومن جملة الشهود الذين هم صمّ في الدنيا ، وفي الآخرة ينطقون بلسان طلق ذلك (٧) فصيح مبين لما كان وقع في سالف الأيام الجوارح والجوانح (٨) وغيرهما .

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ

(١) فاطر ٣٥ : ٣٨ .

(٢) التغابن ٦٤ : ٤ .

(٣) الملك ٦٧ : ١٣ .

(٤) النحل ١٦ : ١٩ .

(٥) يس ٣٦ : ٧٦ .

(٦) الجاثية ٤٥ : ٢٩ .

(٧) أي مستمرّ. كتاب العين : ٥ : ١٠٢ .

(٨) هي الضلوع الصغار التي تلي الفؤاد . الكنز اللغوي لابن السكّيت الأهوازي : ٢١٦ .

شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢﴾ .

وقال تعالى : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٣﴾ .

فاللسان بضعه من الإنسان لا يستطيع القول إذا امتنع ، ولا يمهل النطق إذا اتسع في الدنيا الفانية المأخوذة بالغلبة ، أما في الآخرة فإن اللسان كليل عن البيان ، وعن حقائق الأمور ، عليل من هول الموقف ، وعظيم المسائلة ، واستفحال الجرم ، وشدّة الدهشة من كتاب لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فيا أمر الله سبحانه وتعالى الجلود وغيرها من الجوارح (٤) - من اليدين والرجلين وسائر أعضاء البدن - بالتحدّث عمّا فعلته في الدنيا من الأعمال ، خيرا وشرّا ، وهو يوم قد انقطعت الحجج ، واحتجّ الله على عباده أنه لم يخلقهم عبثاً أو لعباً ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ﴿٥﴾ .

ولهذا أوكل الله تعالى معهم ملائكة مؤتمنين ، وللقوّ والباطل مدوّنين ، قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ \* وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ \* كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ ﴿٦﴾ ، فلا فعل ولا قول ولا خلجة (٦) ولا طرفة إلا وقد احتواها كتاب مبين ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ

(١) فصلت ٤١ : ٢١ .

(٢) النور ٢٤ : ٢٤ .

(٣) يس ٣٦ : ٦٥ .

(٤) سمّيت الجوارح لأنها تكتسب . لسان العرب : ١٥ : ٤٢٥ .

(٥) الدخان ٤٤ : ٣٨ .

(٦) اختلج حاجباه وعينه : إذا تحرّكتا . كتاب العين : ٤ : ١٦١ .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِيَنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ .

واختار سبحانه الكاتبين من ملائكته المسبحين له ، المقدسين لعظمته ، فلا همّة للمعصية تراودهم ، ولا ظلم ينبع من نقص يصدر منهم ، فقد خلقهم الله عباد بلا شهوة ، ولا نفس بالسوء لهم أمارة ، فكساهم من نور قدسه ، ومحل كرامته ، ليكونوا دليل عدل بينه وبين عباده يوم اللقاء ، وقد دوّنت تبعاً لهذا أقلام الفلاسفة بيان ماهياتهم بالقول : أنّ الوجودات الملائكية وجودات مجردة عن المادة المتعالية عن تأثيرها ونواقصها ، ولهذا فالملك لعلوه عن مواطن نقص المادة يدرك الفعل قبل صدوره من الفاعل الماديّ .

ولهذه القدرة المودعة فيهم جعلهم الله سبحانه وتعالى حفظة لعباده يحفظون عليهم ما هم عاملون ، كما جاء في الأثر عن عليّ بن غراب<sup>(٢)</sup> ، قال : قال الصادق جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : « مَنْ خَلَا بِذَنْبٍ فَرَأَىٰ رَبَّهُ تَعَالَىٰ فِيهِ ، وَاسْتَحْيَا مِنْ الْحَفْظَةِ ، غَفَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ جَمِيعَ ذُنُوبِهِ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ ذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ »<sup>(٣)</sup> .

وقد ذكر القطب الراوندي<sup>(٤)</sup> في لبّ الألباب عن النبي صلى الله عليه وآله ، قال : « إِذَا تَابَ الْعَبْدُ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَنْسَى الْحَفْظَةَ مَا عَلِمُوا مِنْهُ ، وَقِيلَ لِلْأَرْضِ وَجَوَارِحِهِ : اكْتُمُوا عَلَيْهِ »

(١) سبأ ٣٤ : ٣ .

(٢) عليّ بن غراب هو عليّ بن عبدالعزيز المعروف بابن غراب . له كتاب . روى عنه أبو إسحاق الخزاز والحسن بن عليّ بن فضال . طرائف المقال للسيّد عليّ البروجردي : ١ : ٥٣٢ .

(٣) وسائل الشيعة : ١٥ : ٢٢١ .

(٤) هو سعيد بن هبة الله بن الحسن الراونديّ ، أبو الحسن قطب الدين : باحث إمامي ، توفي ببلدة قم ، وقبره بها . له كتب منها : الخراييج والجراييج في المعجزات النبوية وكرامات الأئمة الإثني عشر وغير ذلك ، شرح نهج البلاغة سمّاه منهاج البراعة ، وقصص الأنبياء . الأعلام لخير الدين الزركلي : ٣ : ١٠٤ .

مَسَاوِيَهُ ، وَلَا تُظْهِرُوا عَلَيْهِ أَبَدًا» (١) .

وقد أوكل تعالى حفظة من الملائكة يدفعون السوء كي لا يتوجه إلى عباد الله الصالحين ، قال تعالى : ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (٢) .

وهنا لا بد من العلم بأن الآجال على قسمين :

آجال محتومة وآجال مخرومة ، فالآجال المحتومة لا راد لإنفاذها ، ولا مناص من ملاقاتها ، أما الآجال المخرومة (٣) فهي التي لا حتم يلازمها ، بل يتخللها إمكان الدرء عن صاحبها بأسباب موجبة لذلك ، كفعل بعض الخيرات ، وعمل بعض الصالحات متقرباً بكل ذلك إلى الله عز وجل ، فإن الله يبدل سوء ما قد يرد بحسن ما هو وارد ، والدفع والدرء لا يكون إلا بوسائط ، وهذه الوسائط هي الملائكة الحفظة من أمر الله ، فما عليها إلا إنفاذ أمره تعالى لها بالحفظ من سوء ما سيكون إلى حسن ما هو كائن .

## كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

### الخاصية الثانية : ملائكة كتاب

تقدم البحث منا في قوله تعالى : ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ في إثبات صفة الكرامة ، وهي من الصفات التي لا تخلع إلا على النفوس الشريفة ، والصفة الثانية وهي الكتابة التي بمعنى الإحصاء والاستقصاء بكل دقة وأمانه ، فلا تدع الملائكة الحفظة

(١) مستدرک الوسائل : ١٢ : ١٢٦ .

(٢) الرعد ١٣ : ١١ .

(٣) هو الأجل الذي ينتفي بانتفاء شرطه . الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ١٤ : ٤٧ .

الكاتبين قولاً أو فعلاً صدر من مخلوق إلا دؤنته في صحائف أعمالهم ، وبعدها أتبعنا هذه الآية بآية أخرى تثبت لهم العلم بما سيصدر من العباد من الأفعال فقال تعالى : ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ .

إن الله سبحانه أوكل للملائكة بمهام مختلفة فمنهم من جعله رقيباً على عباده يحصي عليهم أعمالهم وما ارتكبته جوارحهم ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٢﴾ .

وقال تعالى : ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿٣﴾ .

• ومنهم من وُكِّلَ بحفظ العباد قال تعالى : ﴿لَهُ مَعَقِبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿٣﴾ .

• ومنهم من وُكِّلَ بحمل العرش العظيم ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٤﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ

(١) يونس ١٠ : ٢١ .

(٢) الزخرف ٤٣ : ٨٠ .

(٣) الرعد ١٣ : ١١ .

(٤) غافر ٤٠ : ٧ .

ثَمَانِيَةٌ ﴿١﴾ .

• ومنهم من وُكِّلَ بالتسبيح والاستغفار لمن في الأرض رحمة من الله بهم ، قال تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

• وخصَّ بعضهم بأمانة الوحي وإيصالها لمن اصطفى من عباده ، قال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (٤) .

• وجعل الله تعالى بعضهم لنزع الأرواح من أصحابها قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنْ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ عَلِيمًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٦) .

• كما جعل بعضهم يبشرون المؤمنين بالجنة ورضوان من الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٧) .

(١) الحاقة ٦٩ : ١٧ .

(٢) الشورى ٤٢ : ٥ .

(٣) النحل ١٦ : ٢ .

(٤) الشعراء ٢٦ : ١٩٣ .

(٥) السجدة ٣٢ : ١١ .

(٦) النحل ١٦ : ٢٨ .

(٧) فصلت ٤١ : ٣١ .

• وجعل بعضهم الآخر يدخلون على المؤمنين في الجنان من أبواب شتى يهتئونهم ، قال تعالى : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (١).

• وبعضهم صفوفاً حول العرش يسبحون بحمد الله منذ خلقوا إلى قيام الساعة ، قال تعالى : ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢).

• وجعل قسماً منهم ملائكة عذاب على أقوام كافرين ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾ (٣).

وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٤).

وقال تعالى : ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٥).

• وقسماً جنوداً لنصرة أنبياءه ، قال تعالى : ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ

(١) الرعد ١٣ : ٢٣ .

(٢) الزمر ٣٩ : ٧٥ .

(٣) هود ١١ : ٧٠ .

(٤) هود ١١ : ٧٧ .

(٥) هود ١١ : ٨١ .

مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى  
وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا  
عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢﴾ .

• وقسمًا لعقاب أصحاب الجحيم ، قال تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ  
إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ  
الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ  
مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا  
يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣﴾ .

• وآخرين لتدبير أمور الخلائق ، قال تعالى : ﴿فَالْمُدْرِيَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ .

• وقسمًا من الشهود على أفعال العباد بالإضافة إلى ما تشهد به الأعضاء من  
اليدين والرجلين وسائر الجوارح على ما ارتكبت من أفعال في دار الفعل والابتلاء ،  
قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ .

وقال تعالى : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا  
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦﴾ .

(١) الأنفال ٨ : ٤٠ .

(٢) الأحزاب ٣٣ : ٩ .

(٣) المدثر ٧٤ : ٣١ .

(٤) النازعات ٧٩ : ٥ .

(٥) النور ٢٤ : ٢٤ .

(٦) يس ٣٦ : ٦٥ .



وقال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١).

• ولا يقف الأمر عليهم، فإن رسول الله ﷺ يشهد على أمته، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٣).

• والحق تعالى من ورائهم شهيد على أفعال عباده، ظاهرها وباطنها، سرها وعلنها، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ

(١) النساء ٤: ١٦٦.

(٢) البقرة ٢: ١٤٣.

(٣) المائدة ٥: ١١٧.

(٤) آل عمران ٣: ٧٠.

(٥) النساء ٤: ٣٣.

قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا نُزُيِّنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٣﴾ .

وقال تعالى : ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤﴾ .

• وكذلك جعل أمة محمد ﷺ شاهدة على بقية الأمم ، قال تعالى : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٥﴾ .

• وبعض أقسام الشهادة انتزع من أحد مؤمني أمة ما للشهادة على أمته ، قال تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٦﴾ .

(١) الأنعام : ٦ : ١٩ .

(٢) يونس : ١٠ : ٤٦ .

(٣) الحج : ٢٢ : ١٧ .

(٤) سبأ : ٣٤ : ٤٧ .

(٥) الحج : ٢٢ : ٧٨ .

(٦) القصص : ٢٨ : ٧٥ .

وقال تعالى: ﴿سُنِّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١).

ولهذا فإنَّ استشعار الرقابة الإلهية من قبل العبد خير عاصم له من الزلل ، وخير معين له على الطاعة ، وأعظم سبيل نحو التهذيب وكبح جماح النفس بالأخذ بلجامها ، فما أن يسنح الفكر حتَّى يتلقَّفه الشيطان لينهيه إلى متاهة الغفلة والنسيان ، فيوحد بنفسه في غمار العصيان حتَّى يفضي به الأمر إلى منتهى الكفر والطغيان إلا من سبقته العناية من سيده بلطف التوبة وحسن الأوبة ، فإن الله سبحانه وتعالى يمله بفضلته ومنه بقبول توبته ، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢).

وأما حفظ الأعمال التي جرت في دار الدنيا ، فلا غرابة في ذلك بعد اكتشاف حفظ الأفعال الصادرة من كل متحرِّك في مكانٍ ما من قبل الأجهزة الحديثة ، مثل آلات التصوير بالأشعة تحت الحمراء ، فإنَّ الجسم البشري أو الجسم الحيِّ عموماً بما أنه يحتوي على مقدار من الحرارة به يتحقَّق الاستمرار الحراريّ ، ويتكوَّن ما يسمَّى بالجسم الحراريّ الذي يستمرّ لمُدَّة من الزمن ، وذلك دليل إثبات مادّيّ على إمكان بقاء الجسم الحافظ للصورة لمُدَّة من الزمن ، وعلى هذا فإنَّ الله سبحانه وتعالى قادر على فعل هذا ، وبما أن هذا أمر واقع سوف يخرج من حيِّز الامتناع إلى الإمكان ، وقد أورد الله تعالى أن الصانع أعلم بما صنع ، وبما أنه خالق الإنسان فهو أعلم به ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوَسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٣).

(١) فصلت ٤١: ٥٣.

(٢) البقرة ٢: ١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٩٩ . المائدة ٥: ٣٩ . الأنفال ٨: ٦٩ . التوبة ٩: ٥ ، ٩٩ ، ١٠٢ .

النور ٢٤: ٦٢ . الحجرات ٤٩: ١٤ .

(٣) سورة ق ٥٠: ١٦ .

## إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾

وبما أنّ الملائكة موكلون بتبليغ الوحي إلى أنبياءه فلا بدّ من صون الوحي من النقص والزيادة، ومن العصمة في مقام التلقّي والتبليغ، فهم مبرّءون من الزلل، منزّهون عن صدور الخلل، جُبلت أنفسهم على الطاعة، وألستهم بما أمروا به مبلغة، ثمّ ينتقل البيان القرآنيّ إلى الإفصاح عن حال البارّين العاملين المخلصين المخبتين الذين نالتهم الحبوّه، وشملتهم الرحمة، فبالبرّ وصفوا، وفي طريق الهداية ساروا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، والأبرار جمع بارّ، والبارّ هو الفاعل للخير، المجانب للشرّ من غير مؤنة يتكلّفها، ولا همامة نفس بالسوء يشايعها، فإنّ عاقبته إلى أجملها من نعيم لا فناء يخالطه، ولا زوال يمازجه، بل الخلود يقاسمه، ورضاء الربّ يظله ويناغمه، والفائدة المتوخّاة من بيان العاقبة هو حصول الاطمئنان والسكينة لدى المتّصّفين بالبرّ، والتنبيه على المحافظة عليه، وقد وصف الله تعالى النفس التي فارقت بدنّها على برّها بأنّها مطمئنّة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ \* ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً \* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي \* وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ (١).

### الأبرار

المراد من الأبرار في الآية السالفة الذكر هم عباد الله الذين يقرضون الله قرضاً حسناً، المجانبين طريق الهوى، والمترفّعين عن منازل الردى، والسائرين على المحجّة البيضاء، الذين تجدهم قائمين في طاعة، وقاعدين عن المعصية، ومبتعدين عن الحمى خوفاً من الوقوع في الهلكة، ذلك هو البرّ الذي أصبح للإحسان ملاذاً

(١) الفجر ٨٩: ٢٧ - ٣٠.

وموثلاً، فهو في نعيم دائم، وربيع قائم، لا زوال يخالطه، ولا فناء يعتريه.

وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾

يَصْلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾

### الفجار

وعلى النقيض من ذلك الفاجر الذي هتكت ستره نار المعصية، وتاه ركبه في ظلمات الذنوب، فأصبح يتخبّط في طريق الاعوجاج<sup>(١)</sup>، فيرتكب الصغائر، ويتعدّى إلى الكبائر، فإن مصيره الجحيم والعذاب الأليم إن لم يتب، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾

أما من أدركته الرحمة فتاب، وبدل عمله الطالح بالصالح، وتوجّه إلى الله تعالى بقلب طاهر ولسان ذاكراً، فهو من أهل الخير والرحمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾<sup>(٤)</sup>.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ

(١) نقيض الاستقامة. الفروق اللغوية: ٥١.

(٢) هود ١١: ١١٤.

(٣) المائدة ٥: ٣٩.

(٤) مريم ١٩: ٦٠.

حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا \* وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿١﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٢) .

### صفات الجحيم

الجحيم (٣) هي نار أججها الجبار لغضبه على العتاة من عباده الناكرين فضله ، والجاحدين رسله ، المتجرئين عليه بالصغائر ، والمستبيحين حرمه بالكبائر ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ .

### أسباب الورود في الجحيم

ولا يغيب عن العاقل أن الورود في الجحيم نتيجة أسباب كثيرة أوردتها الله في كتابه ، لا خلاص منها إلا بالتقرب إليه سبحانه بتركها والابتعاد عنها ، ويحسن أن نذكر بعضاً منها على سبيل الإجمال :

الأول: الكفر بالله تعالى بتكذيب دعوة أنبيائه ، فإن الكفر يوجب الجحيم ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٤) .

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٥) .

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٦) وَالشُّهَدَاءُ

(١) الفرقان ٢٥ : ٧٠ و ٧١ .

(٢) طه ٢٠ : ٨٢ .

(٣) الجحيم هي النار الشديدة التأجج والالتهاب . كتاب العين : ٣ : ٨٧ .

(٤) المائدة ٥ : ١٠ ، ٨٦ . الحديد ٤٤ : ١٩ .

(٥) الحج ٢٢ : ٥١ .

(٦) هم الذين آمنوا بالله ورسوله . تفسير الصافي للفيض الكاشاني : ٥ : ١٣٥ .

عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ  
الْجَحِيمِ ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا  
قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٢﴾ .

الثاني : الغواية ، فإنها موجبة للجحيم ، قال تعالى : ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ  
لِلْغَاوِينَ﴾ ﴿٣﴾ .

الثالث : العبادة لغير الله تعالى ، فإن من عبد غير الله تعالى كان مصيره جهنم ،  
قال تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ \* مِنْ دُونِ اللَّهِ  
فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٤﴾ .

### أحوال الجحيم وأهلها

بعد ذلك ينتقل البيان القرآني إلى أنّ الجحيم التي وعد الله بها الحائدين (٥)  
عن طريق هدايته إلى طريق الضلال (٦) ليس لهم مصير إلا النار ، قال تعالى :  
﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ .

ولا بدّ من ملاحظة الدقة في التعبير القرآني ، فالإصطلاء (٧) بالنار يلازمه البقاء

(١) الحديد ٤٤ : ١٩ .

(٢) التوبة ٩ : ١١٣ .

(٣) الشعراء ٢٦ : ٩١ .

(٤) الصافات ٣٧ : ٢٢ و ٢٣ .

(٥) الحائد الملتوي . تاج العروس : ٢ : ١٢٣ .

(٦) هي اللجاجة . كتاب العين : ٢ : ٢٦٦ .

(٧) الاصطلاء هو افتعال من صلا النار والتسخين بها . لسان العرب : ١٤ : ٤٦٧ .

والمكث، ومن أبرز مصاديقه الخلود والديمومة<sup>(١)</sup>، وهو على النقيض من المسّ، فالمسّ يلازمه عدم الاستمرار والديمومة، بل هو إلى وقت معدود وأمد محدود للقصاص ممّا ارتكبت يده من ذنب سلف، أو ظلم لعباد الله في دنياه، فإنّ ذلك وزر عليه يتقل كاهل<sup>(٢)</sup> من يحمله، ولا يزول إلاّ بمسّ النار ليخلص ويظهر من المعاصي، وقد أفاد الكتاب الكريم أحوال النار وأهلها:

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَظَىٰ \* نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ \* تَدْعُوا مَن أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾<sup>(٤)</sup>.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾<sup>(٥)</sup>.

وهناك تعبيرات وصفية بلغت النهاية القصوى في الدقة والإتقان والإيجاز الوافي لكل النواحي التصورية لحال أهل النار، وما أعدّ الله لهم فيها من العذاب المهين.

### ﴿١٦﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ

بيان لحضور أهل النار في النار، وأنهم لا فاصل ولا حاجب لهم عنها، ورد هذا

(١) الاستمرار. البرهان للزركشي: ٣: ٣٧٣.

(٢) الكاهل هو عظم الكاهل. كتاب العين: ١: ٣٢٤.

(٣) المعارج ٧٠: ١٥ - ١٧.

(٤) البروج ٨٥: ٥.

(٥) محمد ﷺ: ٤٧: ١٥.



المعنى في قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾<sup>(١)</sup>، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾<sup>(٢)</sup>، وفي عدة من آي القرآن الكريم لتبيان إحاطة النار بأهلها، وعدم استطاعة من كان فيها أن يخرج عنها أو يهرب منها، والآية دالة على خلود أهل النار في النار.

### الاستشكال في الخلود الأخروي

تقدم ذكر المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾.

وأن مقتضى العدل الإلهي للخلود في الجنة ونعيمها، أو النار وجحيمها، أن لا يكون إلا بذنب أو عمل صالح سلف منه في الدنيا، وقد أورد بعض على هذا القول بعضاً من الإشكالات يمكن إجمالها في الآتي:

١- كيف يكون العمل الصادر من العبد في دار الدنيا رغم ما هو عليه من المحدودية يعقبه خلود في نار لا انتهاء لسعيرها، ولا راحة من لهبها، فلا يتناسب هذا الأمر بين الفعل والعقاب، بل يلزم من ذلك خلاف العدل الإلهي؟ وقد أجيب على الشبهة بما حاصله:

أن الفعل الصادر من العبد إما أن يكون لأمر طارئ على طبيعته، ومتوافقاً لظرف آني لا يلبث أن يزول، ويعقبه ندم، تتلوه توبة، ثم استقامة بعدم العود إلى ما قد سلف، وفي حال كهذه فإن الله هو التواب الرحيم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) الشعراء ٢٦: ٩١.

(٢) البقرة ٢: ١٦٧.

(٣) النساء ٤: ٦٤.

وتارة أخرى يكون ما صدر من العبد نابع من سجيّة وطبيعة جُبل عليها لا يمكن لتلك الطبيعة أن يصدر منها إلا هذه الأفعال ، ولا يمكن لنفس أن تتخلّق إلا بالمساوئ من الفعال ، فقد ران<sup>(١)</sup> الذنب على قلوبهم فجعلها مقفلة ، قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢) .

ومن كان هكذا فلا يلبث إذا فارق العمل الذي عزم على تركه إلا أن يرجع إليه لسوء سريرته ، وقبح طويته ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤) .

فمن كان مالكا لبواعث الشرور ، وفاقداً لمصادر الخيرات ، كان لازماً على الله أن يورده مورده من الخلود في جهنم ، ليكون استقراره في أسوأ قرار في ظلمات بعضها فوق بعض ، قال تعالى : ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٥) ، أي أن الله تعالى جعلها مورداً لعصاة عباده فبئس الورد المورود ، والحياة فيها مليئة بالمنغصات ، والتذكير بما سلف من أفعال مشينة ، وخسائس خصال مورثة للغصة ، ماءها آسن<sup>(٦)</sup> ، وعذابها دائم ، ولظى نيرانها

(١) الطبع على القلب . كتاب العين : ٨ : ٢٧٧ .

(٢) المطففين ٨٣ : ١٤ .

(٣) العنكبوت ٢٩ : ٦٥ .

(٤) الأنعام ٦ : ٢٨ .

(٥) النور ٢٤ : ٤٠ .

(٦) متغير الطعم . كتاب العين : ٧ : ٣٠٧ .

لا يزول ، وقد صرّح القرآن الكريم عن حقائق أحوال أهل النار ، وما يصير إليه أمرهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ \* وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ \* يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ \* وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ .

﴿ ١٧ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ

﴿ ١٨ ﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ

### أهوال أحداث القيامة

ثمّ عطف الوحي كلامه إلى التهويل والتعظيم من يوم الدين ، فهو يوم عزّ على العقول إدراك كنهه ، وتعالى على الأوهام إدراك وصفه ، وما أدرك حقيقته إلا مالكة سبحانه ، قال تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (١) .  
وقال تعالى : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ (٢) .  
وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرُؤْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (٣) .

يوم تُخلع فيه القلوب لهوله ، وتذهل الأبواب من وقعه ، وتبلغ القلوب الحناجر من خوفه ، وتذرف الدموع من تبعته ، الأنبياء منه في وجل ، والصلحاء في هلع (٤) ، وهم من أعمالهم في خجل ، وحتىّ الأتقياء في بكاء دائم ، تفيض بالدمع أعينهم على ما فرطوا من التزوّد بما يقيهم الطامة الكبرى بعد انقضاء الأجل ، فكيف

(١) الفاتحة ١ : ٤ .

(٢) المزمّل ٧٣ : ١٧ .

(٣) الحجّ ٢٢ : ٢ .

(٤) الهلوع الجزوع بعد الحرص . كتاب العين : ١ : ١٠٧ .

بشرار الخلق المسوذة من عظام الفعال صحائفهم ، الذين أمضوا العمر في اتباع الهوى ، قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (١) .

وبناءً على ما تقدّم من العرض للمسار القرآني في هذه السورة المباركة يصل بنا المقام إلى أنّ التكرار الوارد ليوم الدين : إمّا أن يكون توكيداً لما يرافق ذلك اليوم من هول المطلع (٢) ، وظهور عظام الأمور ، وكشف المستور .

أو يراد منه التوكيد على الجهل بالكنه والحقيقة ؛ إذ لا يمكن للعقل البشري إدراك عظمة يوم بلغ من العظمة بحيث جعل الله حقيقته خافية على إدراك عالم الخليفة .

وقيل : إنّ الآية الأولى المراد منها اليوم ذاته ، أمّا الثانية فإنّ المراد منها هو ما يحصل في ذلك اليوم من الأمور التي وعد الله بها عباده من الحساب ، وما يرافقه من التغيّرات التي يذهل منها كلّ عقل ، فيحاسب كل امرئ بما قدّم يده وما ربك بظلام للعبيد ، وينقسم الجمع فريق في الجنة وفريق في السعير ، قال تعالى : ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (٣) .

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

### الملكيّة بين الدنيا والآخرة

بعد ذلك بيّن الله تعالى أنّ الإنسان في عالم الدنيا لا يستقلّ بملكيّة الأشياء إلّا بنحو من الاعتبار ؛ إذ أنّ الملكيّة الحقيقيّة لله تبارك وتعالى ، ولهذا قال تعالى :

(١) النبا ٧٨ : ٤٠ .

(٢) يوم القيامة . مجمع البحرين للطريحي : ٣ : ٥٥ .

(٣) الشورى ٤٢ : ٧ .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٦).

وقال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (٧).

أما في يوم القيامة - وهو وقت زوال الملكية الاعتبارية، وإبراز الهيمنة والملكية الحقيقية للواحد القهار - فلا ملك لأحد غير الله تعالى، ولهذا ورد التعبير القرآني بقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ومن خصائص ذلك اليوم أن كل نفس لا تملك

(١) البقرة ٢: ١٠٧.

(٢) آل عمران ٣: ١٨٩.

(٣) المائدة ٥: ٤٠.

(٤) المائدة ٥: ١٢٠.

(٥) التوبة ٩: ١١٦.

(٦) النور ٢٤: ٤٢.

(٧) الفرقان ٢٥: ٢.

من أمر نفسها شيئاً ، ولا سلطان لها على تغيير ما هو كائن في ذلك اليوم العصيب ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ .

والآية الكريمة تدل في معناها على زوال الملكية الاعتبارية أو الملكية القانونية ، والرجوع إلى الملكية الحقيقية القيومية ، فلا ملك يومئذ إلا له سبحانه ، ومن الواضح بجلاء أن الحقيقة القرآنية تقرر أن الملكية الاعتبارية غير مانعة للمالك الحقيقي من التصرف في ملكه ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١) .

ويتلخص مما تقدم : أن الاعتبار في مقام الملكية (٢) إنما هو نوع من الاستيداع أو الإباحة في التصرف ، ولا بد من يوم يعود فيه الشيء إلى مالكة الحقيقي .

(١) يس ٣٦ : ٨٢ .

(٢) هي أمر اعتباري عند العقلاء ، إنما يكون النهي عن ترتيب الآثار المطلوبة من المعاملات من أكل الثمن والمثمن والتصرف فيهما كتصرف الملاك في أملاكهم . لمحات الاصول تقريرات السيد البروجردي للسيد الإمام الخميني (قده) : ٢٥٨ .

# سُورَةُ الْأَنْشِقَاقِ

## الْمُقَدِّمَةُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (١)

القرآن كتاب هداية للبشرية جمعاء ، وآياته تذكرة للإنسان ، خصوصاً الآيات التي تحدّثت عن الوعيد من لدن الله تعالى ، والتي تشعره بيوم الحساب والقيامة ، وأنّ ذلك اليوم جعله الله تعالى محلاً لعدله ، ومظهراً لرحمته وغضبه وانتقامه ، وهو أيضاً محلاً لإظهار حقيقة ملكه تعالى ، ﴿لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٢) .

### الآيات القرآنية في المعاد

تحدّثت الآيات القرآنية التي عن المعاد والقيامة ، وهي أكثر آي القرآن الكريم؛ لأنّ المحاور الرئيسة التي تعرّض لها القرآن ثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد ، وأهمّها

(١) سورة ق ٥٠ : ٤٥ .

(٢) غافر ٤٠ : ١٦ .

محور المعاد .

والآيات الواردة فيه تربو على ألف وسبعمائة آية ، بينما الواردة في التوحيد رغم أهميته إلا أنها لا تصل إلى هذا العدد ، ولأنَّ أعظم شيء يربط الإنسان بالله تعالى هو المعاد لكونه المصير النهائي للإنسان .

### تساؤلات فطرية

يتضح ذلك عندما نرجع إلى التساؤلات التي تصبُّ في اهتمام الإنسان ، وتدور في محاور ثلاثة:

**الأول:** من أين جاء (المبدأ)؟

**الثاني:** إلى أين يذهب (المنتهى)؟

**الثالث:** ما هي الطرق والوسائل المساعدة للوصول إلى الغاية والمنتهى؟

يتعلَّق السؤال الأول بمعرفة الله ، ويرتبط الثاني بالمعاد ، أمَّا الثالث فيتعلَّق بالوسائل التي تساعد الإنسان على اجتياز الطريق ، وهو ما يتعلَّق بالنبوة .

### أهمية المعاد

إذن المعاد مسألة أساسية ومحور رئيس في حياة الإنسان ، ومن يريد أن يجتاز العقبات الكأداء في كلِّ عوالم وجوده عليه أن يتعرَّف على معاده ، كما أنَّ من يريد أن يرتقي سلوكياً لا بدَّ أن يتعرَّف على معاده أيضاً .

الصعود في مدارج الكمال والوصول إلى أعلى الدرجات في عالم الإنسانيَّة يرتبط بمعرفة المعاد ، تلك الحقيقة الثابتة التي لا شكَّ فيها ، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: « مَا رَأَيْتُ يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ أَشْبَهَ بِشَكِّ لَا يَقِينَ فِيهِ مِثْلَ الْمَوْتِ »<sup>(١)</sup> ،

(١) شرح إحقاق الحقِّ للسيد المرعشي: ١١ : ٢٤١ . وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «



لكونه يرتبط بالمعاد ، فإذا مات الإنسان وصل إلى معاده وانتقل إلى عالم الآخرة .

### منزلة سورتي الانشقاق والانفطار

هناك سُور تتحدّث عن مشاهد يوم القيامة كسورة القيامة وسورتي الانفطار والانشقاق ، إلا أنّ هاتين السورتين بالذات وردت فيهما روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تؤكد على منزلتيهما الرفيعتين عند الله تعالى .

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أن: « مَنْ قَرَأَ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ ( الانفطار والانشقاق ) وَجَعَلَهُمَا نُصْبَ عَيْنِهِ فِي صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ وَالنَّافِلَةِ ، لَمْ يَحْجُبْهُ مِنْ اللَّهِ حِجَابٌ ، وَلَمْ يَحْجُرْهُ مِنْ اللَّهِ حَاجِزٌ ، وَلَمْ يَزَلْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ حَتَّى يَفْرُغَ مِنَ الْحِسَابِ »<sup>(١)</sup> ، ومعنى لم يحجبه من الله حجاب إشارة إلى أنّ هناك حجباً تمنع الإنسان عن الله تعالى ، وتُنسيه المعاد ، فيغفل عن الحياة الحقيقية التي أبانها القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ، والذي يعلم هو من يقرأ السورتين وآي القرآن الأخرى التي تتحدّث عن عالم الآخرة ومشاهد القيامة فيؤمن بذلك ، وعليه فإنّ من الأهميّة بمكان أن يتذكّر الإنسان معاده وما يؤول إليه .

### الموت حقيقة غائيّة

هناك مسألة هامّة نذكّر بها ، هي أنّ الموت - الذي ينقل الإنسان إلى عالم الآخرة - حقيقة يعيشها الإنسان في كلّ ثانية ، لكنّه يغفل عنها؛ إذ يفقد الإنسان في كلّ حين ملايين الخلايا التي تموت ويُعوض بملايين من الخلايا التي تحيا ، فهو في كلّ ثانية يعيش الحياة والموت ، لكنّه يغفل عن مصيره النهائيّ وعالم الآخرة .

« مَا خَلَقَ اللَّهُ يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ أَشْبَهَ بِشَكِّكَ لَا يَقِينَ فِيهِ مِنَ الْمَوْتِ » . أعيان الشيعة : ١ : ٦٧١ .

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن : ١٠ : ٢٨٣ .

(٢) العنكبوت ٢٩ : ٦٤ .

## أثر تذكّر الموت

إذا تذكّر الإنسان القيامة ، وعلم بمصيره ، وتعرّف على حقيقة المعاد ، سوف يتعظ ويعي المآل الذي سوف ينتهي إليه وهو الموت ، وأنّ البقاء لله تعالى ، وغيره يؤول في مصيره إلى الفناء ، بيد أنّ الموت بالنسبة للإنسان هو اجتياز من عالم إلى آخر ، يؤول إلى بقاء وحياة أخرويّة خالدة ، ملؤها النعيم الدائم إذا تعرّف المرء على ما يريده الله ، وعمل بما يُمليه عليه العقل والشرع .

## المشاهد القرآنيّة قبل القيامة

استعرض القرآن الكريم مشاهد متعدّدة تبيّن الاختلال في المظاهر الكونيّة التي تحدث قبيل القيامة كي تمهّد لذلك اليوم العظيم .

ولا بدّ من التأكيد على أنّ الإنسان تمرّ عليه في حياته مشاهد وأحداث تتكرّر رؤيتها ، وتمثّل حالة من حالات الرتابة المستمرّة ، بحيث عندما ينظر إلى تلك الأنهر الجميلة أو البيوت الفارحة أو الأبنية المحكمة لا يخطر على تفكيره أنّه سوف ينتهي كلّ ذلك ويعود رماداً يتلاشى ، لا بقاء ولا ديمومة له .

وهذا الفناء الحاصل فيما حولنا لا يعني أنّ الإنسان يسعى إلى تخريب الحياة ، وهدم مظاهر الحضارة والتقدّم؛ لأنّ القرآن يأمر الإنسان بشكل دائم إلى تعمير الكون وصنع الحياة ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾<sup>(١)</sup> ، والمطلوب من الإنسان أن يسعى بجهد واجتهاد لتعمير الكون ، وتطوير الأساليب والطرق التي من شأنها جلب الرفاه للإنسانيّة .

ولا يعني ذلك ديمومة النظام الكونيّ إلى ما لا نهاية ، بل ، أنّ هناك أمداً محدوداً لهذا النظام سوف يرى الإنسان فيه مجموعة من المشاهد المؤثّرة ، التي إذا تحقّقت

(١) المائدة ٥ : ٣٢ .

تنذر بزوال النظام الكوني، وقد تحدّثت - عن هذا الخلل في النظام الذي يسبق القيامة - أي القرآن الكريم، بالخصوص سورتا الانشقاق والانفطار، وسوف نستعرض هذه المشاهد المؤثرة ونستوفيها من خلال وقوفنا وتأمّلنا لتفسير آيات سورة الانشقاق المباركة .

### إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾

تبدأ السورة في حديثها عن المظاهر الكونية التي تحصل قبيل يوم القيامة لتركّز على حصول الانشقاق في السماء، ويفسّر مولانا أمير المؤمنين عليه السلام الانشقاق بقوله: «تنشق السماء من المجرة»<sup>(١)</sup>، وهو من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ولإمامنا أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنه تحدّث عن ظاهرة علمية لم تصل إليها عقول الناس آنذاك، وإنما توصل إليها العلم الحديث في العصر الحاضر، ويؤكد الإمام عليه السلام على أنّ هذا الانشقاق في السماء هو خروج لأحد كواكب النظام الشمسي أو مجموعة من هذه الكواكب عن مسارها الذي تدور فيه بانفصالها عن مدارها المحدّد، ويؤدّي ذلك إلى اختلال النظام الكوني واضطرابه، فينتهي تدريجياً وينهار متلاش، وهو ما أكّده الآية ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ من أنّ النظام الكوني يستمرّ إلى أمدٍ محدّدٍ ثمّ ينتهي، وتتبدّل الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، هناك وجود انفصل عن وجود آخر، وإذا انفصل الوجود عن ذلك الوجود فإنّ النظام لن يبق في سياقه، وهو ما يشير إليه العلماء في العصر الحديث في أبحاثهم من أنّ الكون يتلاشى عندما ينتهي أمده .

(١) كنز العمال : ٢ : ٥٤٨ . تفسير الميزان : ٢٠ : ٢٤٧ . تفسير ابن كثير : ٤ : ٤٤١ .

## وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ﴿٢﴾

تقدّم أنّ الانشقاق بمعنى الانفطار والانفصال ، والآية السابقة - ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ - تشير إلى أنّ النظام الكوني سيستمرّ إلى أمدٍ محدّد ثمّ ينتهي .  
وتأتي الآية ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ كى تبيّن أنّ ذلك الانشقاق بإذن الله تعالى ، ولذا عبّرت الآية بقوله تعالى : ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ ، أي أصبحت سائرة تبعاً لإذن ربّها .

ولا بدّ من الوقوف على معنى الإذن؛ لأننا نقول أذن للشيء بمعنى سُمع له ، وهو كناية عن الطاعة ، أي أنّ الإذن هاهنا كناية عن الطاعة والانسياق تبعاً للأمر الإلهي . والله تعالى يأمر الوجود بالتبّاع نظام خاصّ وهو الانسجام في العالم المادّي باتساقه وانساقه لنظام الكون المادّي الذي نعيشه . قال تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾<sup>(١)</sup> ، هذه إطاعة على طبق النظام الكوني ، وفي نفس الاتساق الذي ينسجم بعض أجزاء الكون مع بعضه الآخر ، ولذلك لو أمر الله تعالى بعض أجزاء الكون أن تنفصل عن بعضها الآخر ، أو أمر بعض الكواكب أن تقترب من بعضها الآخر ، سوف يختلّ النظام ، ولو أمر تعالى الشمس أن تقترب من الأرض أكثر سوف تحترق ، ولو أمرها أن تبتعد عنها سوف تتجمّد حيث لا تستقيم الحياة فيها وعليها ، ويحصل هذا نفسه إذا صدر الأمر للسماء بالانشقاق ، وتشير الآية إلى دفع توهم وإجابة عن تساؤل مفاده أنّ هذا الأمر الإلهي لو صدر هل يتاح للكوكب أو مجرّة أو نظام أن لا يطيع الأمر الإلهي أو يبتعد عمّا يريده الله تعالى أن يكون سائراً عليه .

من الواضح أنّ الجواب كلاً؛ لأنّ أمره تعالى لا بدّ أن يطاع ، سواء كان على الشكل

(١) فصلت ٤١ : ١١ .

الطبيعي المنسجم مع عالم المادة بتأساقه ، أم مع الشكل الآخر الذي يعني اختلال النظام المادّي من خلال انشقاق السماء وانفصالها بأمره وإذنه تعالى .

ثم تؤكّد الآية ما سبق من الإذن الإلهي ، فتقول : ﴿ وَحَقَّتْ ﴾ ، وتعني : وحق لها أن تكون تابعة للأمر الإلهي وغير متخلّفة عنه ؛ لأنّ هذا الأمر الإلهي تكويني ، وهو بخلاف الأمر التشريعي ، كما لو أمر الله تعالى المكلفين بالصلاة أو الزكاة أو الحج ، ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (١) ، ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ ﴾ (٢) ، فإنّ المكلف باختياره إطاعة الأمر أو عدم إطاعته .

ولابدّ من إلفات نظر إلى أنّ الأمر التكويني - كالوجود في الحياة الدنيا - له أمد محدود ، لذا لا يتاح للإنسان ولا لغيره من الموجودات التي انقضى أجلها أن تخالف أمره تعالى ، وترفض الاستجابة لما يريد ، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (٣) ، لا بدّ أن يموت ويفنى كلّ شيء بالأمر التكويني ، وكذلك عندما يأمر الله تعالى السماء بالانشقاق لا يمكن أن تتخلّف عن أتباعها لأمره ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٤) ، وهذا من محكمات القرآن ، أي لا يمكن أن يتخلّف ما أمر عن أمره تعالى .

**النتيجة :** لدينا نوعان من الأمر الإلهي :

الأول : تابع لاستقامة وتلاؤم النظام المادّي ، وهو ما أبانته الآية ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ، الأرض والسموات وبقية مفردات الكون كلّها طائعة خاشعة لله تعالى .

(١) البقرة ٢ : ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ . النساء ٤ : ٧٧ . النور ٢٤ : ٥٦ . المزمل ٧٣ : ٢٠ .

(٢) آل عمران ٣ : ٩٧ .

(٣) الرحمن ٥٥ : ٢٦ .

(٤) يس ٣٦ : ٨٢ .

**الثاني:** تابع لانفصال وتشرذم وتلاشي النظام المادّي على خلاف الأمر الأول ، قال تعالى : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ، فحقّ للسماء أن تكون تابعة لأمر ربّها .

وهذا درس عظيم يؤكّد للإنسان على أنّ أمر الله لا بدّ أن يُطاع من جميع المخلوقات مهما عظمت في وجودها؛ لأنّها لا تستطيع أن تتخلف عن أمره التكوينيّ ، لكونها لا وجود ولا استقلال لذواتها دون القدرة الإلهيّة التي تتبّعها بشكل مطلق ، فلا تستطيع أن تتخلف عنها .

### وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾

#### كثرة الخلائق والحساب

تبيّن الآية أنّ المظاهر سوف تتغيّر استعداداً للانتقال إلى نظام كونيّ آخر يختلف عن النظام السائد في حياتنا ، بحصول مجموعة من الأمور ، منها أنّ الأرض تُمدّد استعداداً لحساب الخلائق وحشرهم .

وذلك بمثابة جواب عن تساؤل قد يخطر في ذهن بعض من أنّ الخلائق إذا كانت من الكثرة بمكان منذ خلق الإنسان تواجد أقوام بأعداد هائلة في كلّ عصر من العصور ، بالإضافة أنّ الإنسان في العصور المتأخّرة أخذ في التكاثر بشكل واسع ، مع ما قد يتحقّق على أيدي علماء الطبّ الحديث في الاستنساخ ، الذي قد يُتاح به للإنسان أن يتكاثر بشكل أكثر ممّا نتصوّره في عصرنا الراهن ، وهذا العدد المهول من البشر أين مكانه الذي سيحاسب عليه!؟

ولابدّ هنا من لفت النظر إلى نقطة هامّة ، هي أنّ الإنسان في العصر الحاضر لا يستفيد إلاّ من جزء بسيط من الأرض ، لكون ثلاثة أرباعها أو أكثر من المياه ، وربّعها المتبقّي يابسة لا تستفيد الإنسانيّة من كلّ أجزائه ، بل تستفيد من جزء بسيط من اليابسة ، وبالتالي يمكن أن يحاسب الناس على هذه المساحة من الأرض ،

لو فرضنا أنّ هذه المساحة من اليابسة لا تكفي للبشر من آدم إلى آخر يوم من الدنيا في حشر الخلائق ، وانتقال النظام الكوني من نظامنا السائد إلى نظام آخر ، ويبيّن الله تعالى في القرآن الكريم أنّ السماء بعد أن يحدث لها الانفطار والانشقاق تُمدّ الأرض ، وهذا الامتداد لم يُحدّد مقداره ، إذ أنّ كلمة ﴿مُدَّتْ﴾<sup>(١)</sup> في الآية مطلقة ، لم يُقيّد هذا الامتداد بمقدار معيّن ، وتؤكد الآية أنّ الأرض سيحصل فيها امتدادٌ يسع الخلائق بأجمعهم منذ بدء خلقهم إلى آخر يوم من وجودهم ، وتشير بعض الآيات إلى أنّ امتداد الأرض سوف يقترن مع بعض المظاهر الكونية الأخرى ، كقوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾<sup>(٢)</sup> . إذن هناك تغيير كبير يؤدي إلى أنّ الأرض لا تبقى على حالتها الراهنة ، وإنّما تستوي وتنسط انبساطاً كبيراً ، ولعلّ في ثنايا الآية ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ما يشير إلى امتداد الأرض وانبساطها .

### وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾

#### النظريات حول مصير الأرض بعد امتدادها

وتدخل الأرض بعد امتدادها مرحلة أخرى عبّر عنها القرآن الكريم ، وتحدّثت عنها الآية التي بعدها ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ ، ما هو ذلك الشيء الذي تُلقيه الأرض بعد امتدادها؟

للعلماء في الآية ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ نظريتان :

**الأولى :** أنّ ما أكتته الأرض من بني الإنسان في مختلف العصور إلى يوم يمدّها

(١) الظاهر أنّ المراد به اتساع الأرض . تفسير الميزان : ٢٠ : ٢٤٠ .

(٢) طه ٢٠ : ١٠٥ .

الله مدّاً سوف يخرج من باطنها، والإنسان على ظاهر الأرض كما يستفيد منها ويستخرها، فإنها سوف تضمه بعد الموت الذي يعتري الجميع، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup>، وبعد ذلك سوف يخرج الإنسان من الأرض كما ينبت النبات منها، وجميع الخلائق سوف يحشرها الله تعالى وينشرها من الأرض<sup>(٢)</sup>.

**الثانية:** أن قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ يشير إلى أن جميع ما هو مذخور ومدخر في باطن الأرض سوف ينتقل ويخرج إلى ظاهرها، وسوف تخلو الأرض منه، وهذه الأمور المذخورة في باطن الأرض لا تقتصر على الإنسان، بل تشمل الكنوز المتواجدة فيها والحقائق، وكل شيء مدخر من أول وجود الخلق إلى نهايته، سواء كانت الأمور المذخورة يعرفها الإنسان وقد اطلع عليها، أم لم يعرفها وإنما يعلم بها الباري جلّ وعلا<sup>(٣)</sup>.

### الفائدة من إخراج الأرض لما في باطنها

قد يتساءل المتأمل في الآية عن الفائدة المرجوة من إخراج الأرض لما في باطنها. وأجاب المفسرون على التساؤل بأن هناك كثيراً من الحقائق لعالم الحشر لم يُفصح عنها، وقد يكون من فوائد الآية إخراج الأرض لما في باطنها ليحصل ربط وثيق بين الحقائق والكنوز المدخرة في باطنها وبين الحساب الذي يحاسب به الإنسان؛ لأن الإنسان في داخله يحوي قضايا ومسائل نفسية، ويضم في حقيقته عالمي الجمال والقيح، وحساب الإنسان يرتبط بهذين العالمين لكونه يقوم في

(١) الزمر ٣٩: ٦٨.

(٢) وعليه أغلب المفسرين من الفريقين، كتفسير الميزان: ٢٠: ٢٤٠، تفسير مجاهد بن جبر:

٢: ٧٤١.

(٣) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ٢٠: ٥٣.



آنٍ واحد بأعمال غاية في الجمال والروعة ، وغاية في القبح والسوء ، ومظاهر الكون في عالم الآخرة ترتبط بالحقائق المذخورة في باطنها ، ولعل قوله تعالى : ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾<sup>(١)</sup> يبيّن أنّ الأمور والحقائق تتّضح وتصبح في غاية الجلاء .

## وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾

### سبب تكرار الآية

وبعد أن تحدّث الله تعالى عمّا يحصل للأرض من امتداد ، وإخراج لما فيها ، جاءت الآية التي بعدها تقول : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ، وقد تكرّرت الآية مرّتين : الأولى في بداية السورة ، بعد قوله تعالى : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ جاء قوله تعالى : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ، والثانية : في هذه الآية التي نتحدّث عنها .

ولا بدّ من التأكيد على أنّ إيراد الآية مرّتين ليس بتكرار للجملّة الأولى ، وإن كان اللفظ متشابهاً ، أي أنّ الجملّة الأولى في ألفاظها كالثانية ، لكنّ الثانية تعطي معنى غير معنى الأولى . قد ذكرنا في الآية الثانية من السورة ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ، أنّها تشير إلى أنّ الإذن هناك هو الطاعة والائتمار بأمر الله التكويني ، والسماء تنشقّ لأنّ الله أمرها بالانفطار والانفصال عمّا ارتبطت به من النظام الكوني الموجود في عالم المادّة ، وحصل انشقاقها لائتمارها وإطاعتها لأمر الله التكويني ، وحقّ لها الائتمار بأمره تعالى .

أمّا هنا فتوضّح معنى آخر غير المعنى السابق ، وإن اتّفقتا في الألفاظ ، فهي تبيّن أنّ الله تعالى بعد أن نسف ما على الأرض من جبال ، حصل امتداد في الأرض

(١) سورة ق ٥٠ : ٢٢ .

لاستيعاب الخلائق منذ البدء إلى ختام عالم الدنيا، وحدث للأرض أيضاً إخراج وإلقاء لما في باطنها. والحدثان الكبيران هما نتيجة لإطاعة الأرض وائتمارها بأمر الله التكويني، وحق لها أن تأتمر بأمره التكويني.

والفارق بين الآيتين هو الذي أوجب أن يُورد الله تعالى الآيتين مرتين.

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَأْصِيهِ ﴿٦﴾

### عقبات في مسيرة الإنسان

تتحدث الآيات حول مسألة غاية في الأهمية تُبين مسار الإنسان في الحياة، وتركز على أنّ مساره ليس مفروشا بالورد، ولا معبداً، بل هناك عقبات كأداء في طريقه، ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بالكدح<sup>(١)</sup>، وهو في اللغة السعي مع التعب والعناء، فلا يستطيع الوصول إلى ما يريد إلا بالسعي الحثيث والنصب الشديد؛ إذ أنّ الله تعالى خلق الإنسان مختلفاً عن الحيوان، فالنحل - مثلاً - له قوانين وأنظمة في حياته، إلا أنه مع ذلك لا يتطور رغم مرور ملايين السنين عليه، بل هو باقٍ على حاله كما كان من قبل.

وكذلك النمل العجيب المتعاون تعاوناً متناسقاً، لا يتطور في مراحل حياته حتى بالتطور البسيط.

أمّا الإنسان فيتميز بقدرات فائقة منحه الله تعالى إياها، يتمكن بها أن يُطور نفسه وحياته في مجالات وآفاق رحبة، وعلى جميع الأصعدة، بيد أنّ هذا التطور لحياته كفرد أو مجتمع في بُعديه المادّي والمعنوي يرتبط بجده وعمله، ولا يستطيع أن يتطور إلا إذا أتعب نفسه وعمل على الدوام بتفانٍ.

(١) العمل والسعي. الصحاح: ١: ٣٩٨.

وأن الذين استطاعوا تذليل الصعاب كان ذلك بسبب ارتباطهم الوثيق بعملهم الدؤوب وكدهم المستمر، فلا تجد تقياً في سلوكه وموفقاً في أعماله حصل على ذلك اعتباراً دون جهود متواصلة وسعي حثيث، بل أن هؤلاء يُدللون الصعاب والعقبات التي تقف أمامهم تدريجياً حتى لا يبقى ما يُوقف مسيرتهم ويحول دون تطوّرهم .

والنتيجة هي أن التطوّر الذي يحصل عليه الإنسان في أي بُعد من الأبعاد، أكان في عالم القيم والمثل والأخلاق والعبادة، أو في المجال المادّي، لا بد أن يرتبط بالجهد والتعب والصبر والاستمرار الذي يكون عليه الإنسان، قال الشاعر:

لاستسهلنّ الصعَبَ أو أدرك المنى      فما انقادت الآمالُ إلا لصابر<sup>(١)</sup>

ومن وصل إلى درجاتٍ في سُلّم العُلَى - سواء كان فرداً أو مجتمعاً - فهناك سلسلة من العوامل يعقب بعضها بعضها الآخر أوصلته إلى التقدّم، فمن أراد أن يتقدّم عليه الكدح كي يصل إلى ما يريد من هدفٍ وما يطمح إلى تحقيقه من غاية، وهكذا الأمر في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وفي جميع مجالات الحياة، غير أن بعض الناس يظنّ أنّ من حقّق نجاحاً باهراً فقد ساعده الحظّ الوافر، وليس ذلك بصحيح، بل عمل الإنسان ونشاطه هو الموصل إلى النجاح والمراتب العليا، وهذه حقيقة تتجلّى بوضوح في بعض آي القرآن الكريم ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾<sup>(٢)</sup>.

### البعد المعنويّ في شخصيّة الإنسان

يُركّز على البعد المعنويّ في شخصيّة الإنسان لكون البعد المادّي واضح بشكل

(١) تفسير الألوسي : ٤ : ١٧٦ .

(٢) النجم : ٥٣ : ٣٩ .

تأمّ، فلا حضارة من الحضارات ولا أمة من الأمم تقدّمت إلا بتعب شديد وتضحيات متعدّدة استطاعت بها أن تصل إلى مراتب عالية، كذلك الأمر في الجانب المعنوي؛ إذ نجد أنّ ما حقّقه أمّتنا الإسلاميّة من نجاحات باهرة على المستوى المعنوي كان بجهد من النبي ﷺ ومن المخلصين، وهو ﷺ رغم أنّه خاتم الأنبياء وأفضل الخلق، إلا أنّه ربط حجر المجاعة على بطنه<sup>(١)</sup> كي يُعلّم الأمة دروساً في الصبر والتحمّل ومواصلة الآخرين، ولكونه ﷺ يمتلك كلّ مقوّمات الشجاعة والقوّة والبأس والإقدام<sup>(٢)</sup> التجأ إليه المسلمون في الشدائد، كما أكّد ذلك مولانا أمير المؤمنين عليّ في بعض كلامه: «كُنَّا إِذَا اشْتَدَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ»<sup>(٣)</sup>، هذه ثقافة يحضّ عليها الدين ويؤصلها القرآن وتؤكدّها الأحاديث، ومن يرّبي أبناءه ويتنفّس مجتمعه لا بدّ أن يكرّر هذه الثقافة، ويبيّن أهميّة الصبر والكفاح لتحقيق الأهداف التي يريد الوصول إليها، خصوصاً في المجال التربوي، والغاية هي الوصول إلى الله تعالى بلقائه ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾. قد يتطوّر الإنسان في المجال المادّي، لكنّه في النهاية سيدور حول نفسه، وقد أبانت الآية المتقدّمة فناء عالم المادّة، وبالتالي سيلقى الله تعالى مهما طال به الأمد<sup>(٤)</sup>، فرداً كان أو أمة من الأمم، وقد يحاول الإنسان جاداً القيام بأعمال كبيرة ومتعدّدة، فيواظب على أعمال الخير، وينضبط سلوكياً، ويقوم بين يدي الله تعالى في أسحار شهر رمضان، وعاقبته لقاء الله تعالى، والحال كذلك لمن تقدّم في المجال المادّي، كلاهما لن يستمرّ بقاؤه في الدنيا، فإن كان من الأتقياء الصالحين فمصيره

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ : ٩ : ١٥٧.

(٢) تاريخ مدينة دمشق : ٤ : ١٤.

(٣) عوائد الأيام : ٦٨.

(٤) الأمد : منتهى كلّ شيء وآخره . كتاب العين : ٨ : ٨٩.

إلى الله تعالى ، غير أن كدحه سيجعله قريباً منه سبحانه ، ويشعره بالفوز والظفر والحصول على مُناه ، وقد أشار أولياء الله إلى هذه الحقيقة ، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام عندما ضُرب في شهر رمضان : « فُزْتُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ » ، أي أن النتيجة هي الظفر واجتياز الامتحان الإلهي ، والحقُّ تعالى أفصح عن هذه الحقيقة كقانون بأن الإنسان إذا أراد أن يصل إلى مآربه لا بد أن يكدح<sup>(١)</sup> ويذل قصارى جهده حتى يُذلل الله تعالى له الصعاب ، ويزيل عن طريقه العقبات ، ويوصله إلى مراده ، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام : « مَنْ طَلَبَ شَيْئًا نَالَهُ أَوْ بَعْضَهُ »<sup>(٢)</sup> .

وفي القرآن إشارات إلى هذه الحقيقة في مجالات متعددة ، إلا أن الآية المتقدمة أكثر ارتباطاً بالمجال المعنوي ، بينما هناك آياتٍ أخرى من القرآن الكريم -كقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾<sup>(٣)</sup> ، تبيان أن الإنسان كما يتاح له التقدم في المجال المعنوي يتاح له التقدم في المجال المادي . ولا بد من الالتفات أن الآية لها دلالة على المعاد لكون الإنسان سيلقى ربه في مساره ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ ، وكل ما يقوم به من أعمال فهي زاد له يلاقي به ربه يوم القيامة فيجازيه على أعماله .

فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾

### حال الإنسان في ملاقاته الله تعالى

أبان الحقُّ تعالى أن حال الإنسان عند ملاقاته لربه وخالقه سيكون على أحسن

(١) عمل الإنسان من الخير والشر . كتاب العين : ٣ : ٥٩ .

(٢) بحار الأنوار : ٧٥ : ١٣ .

(٣) الشورى : ٤٢ : ٢٠ .

حال إن عمل صالحاً ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ \* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا \*  
وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١﴾ ، وأما إن عمل سوءً سيكون حاله أسوأ حال ﴿وَأَمَّا  
مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ \* فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا \* وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي  
أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٣﴾ .

### ملاقاة الله على أحسن حال

قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ \* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿١﴾  
إبانة لما أكد عليه في الآية السابقة ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ  
كَدْحًا فَمَلَأْتِيهِ﴾ ﴿٢﴾ من أنه لا بد من السعي والتعب في الوصول إلى المطلوب وإدراك  
الغاية ، ولن يصل المرء إلى ما يبتغيه دون سعي ، قال الشاعر :

لاستسهلنَّ الصعبَ أو أدرك المنى      فما انقادت الآمالُ إلا لصابر (١)

أي لا يستطيع الإنسان أن يحقق ما يطمح إليه إلا بالكدح والتعب .

### دلائل الوصول إلى الرضا الإلهي

قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿١﴾ إنها علامة لمن ختم له بالحسنى ،  
ورضى الله تعالى عنه ، فإنه سيأتيه كتابه بيمينه ، بل سيفاخر به قائلاً : ﴿هَٰؤُمْ أَقْرَبُوا  
كِتَابِيهِ﴾ ﴿٢﴾ لكونه آمن بالآخرة ، وأيقن بها ، وعلم أنها مصيره ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّ  
إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿٣﴾ ، وقال تعالى : ﴿أَلَا إِلَىٰ اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٤﴾ ، وقال تعالى :

(١) تفسير الألوسي : ٤ : ١٧٦ .

(٢) الحاقّة ٦٩ : ١٩ .

(٣) النجم ٥٣ : ٤٢ .

(٤) الشورى ٤٢ : ٥٣ .

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ (١).

### حقيقة عمل وسعي الإنسان

لا بد من التأكيد على أن إيتاء الكتاب باليمين دلالة على السعادة التي تنبثق من عمل الإنسان في الدنيا؛ لأن الإنسان في أعماله على قسمين:

الأول: من يسعى كاداً في الأعمال التي يقوم بها، والسمة الغالبة على أعماله، وطموحاته هي الانضباط تحت القانون الإلهي؛ إذ المؤمن يسأل عن أعماله أحلال أم حرام؟ وتلك التساؤلات من المؤمنين للاطمئنان بأن عملهم خاضع لضابطة القانون الإلهي.

الثاني: من لا يسأل عن موافقة تصرفاته وأعماله للقانون الإلهي، وهمه الوصول إلى ما يبتغي ويطمح، وغاياته المنشودة، سواء أكانت تلك الطموحات حلالاً أم حراماً. إن هنا ضابطة عامة نفرّق بها بين الملتزم بالقانون الإلهي وغيره.

### ضوابط القانون الإلهي

ذكرت هذه الضوابط في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٢).

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (٣)، أي أن السير على الطريق المستقيم هو الموصل إلى الله، أما الطرق الأخرى فهي معوجة، لا تنسجم مع ما يريده الله تعالى.

(١) العلق ٩٦: ٨.

(٢) الفاتحة ١: ٦.

(٣) الأنعام ٦: ١٥٣.

## اتِّجَاهَاتُ السَّائِرِ فِي طَرِيقِ اللَّهِ

للسائر في طريق الله تعالى اتِّجَاهَانِ:

**الأوّل:** من كان مساره نحو الله وليس لديه ما يخالف رضاه لكونه من أصحاب الدرجات العُلى الذين لا يريدون إلا الله تعالى ، بمعنى أنّ الله نُصِبَ أعينهم لا ينظرون إلى سواه ، أعمالهم ونياتهم وأفكارهم له تعالى ، وهم الناجون الذين لا يتزلزلون في عرصات<sup>(١)</sup> القيامة ، بل يمرّون على الحساب كالبرق الخاطف ، لهم الكرامة والنجاة لاجتيازهم الدنيا بنجاح ، لم يريدوا إلا الله ولم يعملوا إلا له ، فنالوا درجات كبيرة ، واطمأنّت نفوسهم بلقاء ربّهم ، وقد تجسّد هذا المعنى سلوكاً وعملاً في إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام فقال : « ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه »<sup>(٢)</sup> .

**الثاني:** من سار على الهدى الإلهي ، غير أنّ له عثرات في طريقه وعقابت لم يجتزمها فلم ينل ما تحقّق لأصحاب الاتِّجاه الأوّل ، الذين ساروا على الطريق ، واجتازوا العقبات ، ولم يخلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً ، والسمة العامّة لهذا الاتِّجاه هي أنّ الخير يكثر في أعمالهم ويقلّ الشرّ فيها ، ينضبطنون في الأعمّ الأغلب تحت اطار القانون الإلهي ، غير أنّ لديهم بعض العثرات ، قال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ﴾<sup>(٣)</sup> ، هناك ميزان دقيق للأعمال ، لكنّ هؤلاء لكون الغالب على أعمالهم هو ما يرضي الله رُجّحت أعمالهم في الموازين ، وخفّت موازين أولئك الذين غلب على أعمالهم السوء والشرّ ، لهم أعمال بسيطة خيرة لكنّها آلت إلى غيرهم للسوء الذي جاءوا به .

(١) العرصّة: كلّ بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء، والجمع: العراض والعرصات .

الصحاح: ٣: ١٠٤٤ .

(٢) شرح أصول الكافي للمازندراني: ٣: ٨٣ .

(٣) القارعة ١٠١: ٦ و ٧ .



إذن الناس قسمان :

الأول : مصداق لقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ \* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ .  
والثاني : مصداق لقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ \* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ \* وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ \* نَارٌ حَامِيَةٌ﴾<sup>(١)</sup> ، ولا بدّ من التأكيد على أنّ الناس مع أنّ لديهم عثرات ، إلا أنّ الغالب عليهم هو الخير .

### نتيجة أخذ الكتاب باليمين

قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ يشير إلى القسم الأول - الذي غلب عليه طابع الخير - وجعل الله تعالى الكتب المتطيرة في أيمانهم ، يأخذ كلّ منهم كتابه بيمينه ، وهناك نتيجتان لهذا الأمر :

#### الأولى : الحساب اليسير .

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾<sup>(٢)</sup> أنه تعالى سيجعل حساب هؤلاء يسيراً ، يجتازون الامتحان ويجيبون على التساؤلات ، وتغفر لهم الذنوب والعثرات الصغيرة ، وعاقبتهم النجاة .

وتبرز الآية نمطاً من الناس حسابهم يسير ، هم من اقترفوا بعض السيئات من صغائر الذنوب ، واجتنبوا الكبائر ، واستغفروا وأنابوا ، فيغفر لهم ، قال تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾<sup>(٣)</sup> ، استجاب الله تعالى دعاءهم ، فلا تدقيق في الحساب عليهم « وحاسبني حساباً يسيراً »<sup>(٣)</sup> .

وينعكس ذلك على الحياة الدنيا في التأمل مع الناس ، فهناك نمطان من التعامل :

(١) القارعة ١٠١ : ٨ - ١١ .

(٢) طه ٢٠ : ٨٢ .

(٣) المقنع : ١٠ .

نمط التدقيق في الحساب ، ومحاولة إبراز ضعفه ، وإظهار أن باطنه خلاف ظاهره ، ونمط آخر هو الستر والإغضاء عن الخطأ مع العلم أن الآخر أخطأ واقتترف بعض الأعمال غير اللائقة ، لكن يراد له أن لا يفتضح ، ويبقى مستوراً عليه ، مُصان الكرامة ، سائراً في طريق الخير ، لكون الغالب على أقواله وأفعاله السداد ، فلا يُدأق عليه في الحساب ، بل يُغض النظر عن بعض هفواته ، وهو ما يماثل طلبنا في الدعاء بأن الله تعالى يحاسبنا حساباً يسيراً؛ لأن التدقيق في الحساب يؤدي إلى هلاك الإنسان ، قال ﷺ : « من حوسب هلك »<sup>(١)</sup> ، وروي عنه ﷺ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ إِيتَانًا يَا بَهُمْ \* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> أنه إبانة لقسمي الحساب : دقيق يؤدي إلى الهلاك ، وآخر مبتنٍ على اليسر والسهولة وتغطية التبعات ، وهو الحساب الذي يحتاج الناس إليه في سؤالهم الله المغفرة والتوبة .

### وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾

الثانية: الرجوع لأهله مسروراً.

﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ هذه نتيجة أخرى منبثقة عن إتيان الكتاب باليمين ، يريد الله تعالى أن يبين المقصود من أهل المؤمن ، الذي لا يقتصر معناه على من يتصلون به من الناحية النسبية ، بل له معنى عام يشمل كل من يتحد مع المؤمن في الاتجاه ويسير نفس المسار الذي يؤهله لأن يكون من أهل خاصة الله ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾<sup>(٣)</sup> ، المؤمن أهل للمؤمن الآخر ، لكونه يتحد معه في الاتجاه ويسير وإياه في مسار واحد ،

(١) مسند أحمد بن حنبل : ٦ : ٢٠٦ .

(٢) الغاشية ٨٨ : ٢٥ و ٢٦ .

(٣) التوبة ٩ : ٧١ .

وهذا تفسير أدق وأصوب ممّا ذكره بعض عندما تصوّر أنّ أهل المؤمن هم الحور العين<sup>(١)</sup> الذين أعدّهم الله كرامة له ، وإن كان هذا المعنى لا بأس به؛ إذ أنّ المؤمن ينقلب إليهم وهو في غاية المسرّة ، غير أنّ الذي يظهر من الآية هو التفسير الأوّل الذي أوردناه ، ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾<sup>(٢)</sup> ، فمن يحاسب حساباً يسيراً يرجع إلى الذين اقتدى بهم وسار في هديهم ، واقتفى آثارهم ، وهم الأنبياء والرسل والصّدّيقون والشهداء والصالحون ، وكلّ صالح صلح عمله فصلحت ذاته يحاسب حساباً يسيراً ، فينقلب إلى المؤمنين - وهم الأهل بالنسبة إليه - مسروراً ، ولا سرور أعظم من اجتياز العقبات الكأداء ، وتعدّي عرصات القيامة ، لئتاح له التكريم الإلهيّ بأن يراه الخلق حاملاً لكتابه بيمينه كناية عن كونه من أهل الله الذين اجتازوا الامتحان قبل بدء الحساب؛ لأنّ الله تعالى يعطي أناساً كتبهم بأيمانهم ، وآخرين بشمائلهم ، أو من وراء ظهورهم؛ لأنّ أيديهم مغلولة .

وتبيّن الآية ﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾<sup>(٣)</sup> حالة الإنسان ومشاعر السرور والفرح التي تملأ جوانبه ، ينشرح صدره ، وتبتهج نفسه ، ويبدو على مٌحياء البشر والغبطة؛ لأنّه حقّق غايته ووصل إليها ، وتجاوز عقبات الحساب ، فلا تعب ولا نصب ولا موت ولا مرض ، وإنّما يحصل على كلّ مظاهر السرور والفرح الذي ينتقل إليه مسرّة وفرح تلو آخر ، ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾<sup>(٣)</sup> ، وذلك هو الفضل العظيم الذي يتوقّ إليه المؤمن في القيامة .

(١) عن الحسين بن جعفر، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: **إِنَّ الْحُورَ الْعَيْنَ يُؤْذَنُ لَهُنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَيُسْرَفْنَ عَلَى الدُّنْيَا فَيَقْلُنَ: أَيْنَ الَّذِينَ يَخْطُبُونَآ إِلَى رَبِّنَا**. وسائل الشيعة: ٧: ٣٨٣ و ٣٨٤،

الباب ٤١ من أبواب صلاة الجمعة، الحديث ٢.

(٢) النساء ٤: ٦٩.

(٣) القمر ٥٤: ٥٥.

## وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾

### أخذ الكتاب وراء الظهر

وعلى عكس من يأخذ كتابه بيمينه يأتي الأنموذج الآخر الذي عبّرت عنه الآية: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾، وله ثلاث معانٍ:

**الأول:** إن من وراء ظهورهم تعبير كنائي؛ لأنّ الإنسان إذا أُعطي كتابه تارة يكون واثقاً بعمله، يريد أن يبرزه للآخرين ثقةً منه بأنّ ما قدّمه من عملٍ يمثّل بياضاً ناصعاً، وصفحة مشرقة ﴿فَيَقُولُ هَؤُومَ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ﴾ \* إني ظننتُ أنّي مُلاقٍ حِسَابِيهِ ﴿١﴾، وتارة لا يبرزه للآخرين، بل يخفيه عنهم ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ بجعله مغيباً وراء ظهره، خوفاً وخشياً من أن يطّلع عليه الناس، فهو خجلٌ ممّا فيه من الفضائح والتبعات، لكنّ خجله لن يفيدَه في يوم القيامة؛ إذ أنّ القيامة يوم الإظهار والبروز، ومهما حاول الإنسان أن يخفي سيئات أعماله ليس بإمكانه ذلك. إذن من وراء ظهره تعبير كنائي وليس بحقيقيّ.

**الثاني:** أنّ الآية تعبير حقيقيّ، تشير إلى اليد بمعنى الجارحة، وينسجم مع التعبير الوارد بأنهم يُعطون كتابهم بأيديهم الشمال ﴿وَأَصْحَابُ الشُّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشُّمَالِ﴾ (٢)، كتابهم بالشمال؛ لأنّ الله تعالى يغلّ (٣) أيديهم إلى وراء ظهورهم فيعطون الكتاب من وراء ظهورهم، امتهاناً في الإذلال، ومعناه أنّهم ليسوا من السعداء، وهنا تأكيد على أنّ التعبير الذي يقول إنّه يُعطي كتابه بشماله يتلاقى

(١) الحاقّة ٦٩: ١٩ و ٢٠.

(٢) الواقعة ٥٦: ٤١.

(٣) يقيد. لسان العرب: ٣: ٢٥٦.

مع التعبير الذي يقول إنه يُعطى الكتاب من وراء ظهره ، والتعبيران لا يختلفان .  
**الثالث:** أن الآية ليست تعبيراً حقيقياً ، ولا يراد من اليد الجارحة بحيث تجعل يده وراء ظهره ، ويُعطى الكتاب بتلك اليد التي غُلَّت وراء ظهره ، وكذلك لا يراد منها التعبير الكنائي بالنحو الذي ذكرناه - ويخشى أن يرى الآخرون عمله فيفتضح أمامهم - بل المقصود من وراء ظهره هو ما تركه في الدنيا؛ لأن الأعمال التي قام بها قبيحة ، ويشير إلى ذلك القبح الذي فعله الإنسان في دنياه بأنه تركه وراء ظهره ، وكتابه يدل على ما تركه من أعمال قبيحة وسيئة في حياته الدنيا وراء ظهره .

### نتيجة أخذ الكتاب من وراء الظهر

بعد أن أبان الله تعالى القسم الآخر ممّن يلاقونه - ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ - ذكر نتيجتين لإتيان الكتاب وراء الظهر :

### فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾

أي سوف يصيح : وا ثبوره<sup>(١)</sup> ، والثبور هو الهلاك<sup>(٢)</sup> فيدعو بهلاك نفسه؛ لأنه يريد أن يتخلص من الحالة التي هو عليها ، ومن المصاعب التي تلم به من كل مكان؛ إذ أن الإنسان إذا ألمت به مصيبة فادحة يدعو بالويل والثبور والهلاك على نفسه ، لذا نجد أن الصديقة مريم عليها السلام لما وضعت عيسى عليه السلام ، وعلمت أنه لا يصدقها كثير من الناس لكونها حملت من دون زوج وهي البرّة الطاهرة ، ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا﴾<sup>(٣)</sup>؛ ذلك أن ملاقاته الناس وإظهار الحقيقة من الصعوبة بمكان ، فتمنّى الموت مع أنها صديقة وطاهرة ، ولها اتصال بالله تعالى ، فكيف

(١) تفسير مجمع البيان : ١٠ : ٣٠١ .

(٢) لسان العرب : ٤ : ٩٩ .

(٣) مريم : ١٩ : ٢٣ .

بمن يُبعث في يوم القيامة للحساب العسير ، ويقف بين يدي الله ، ويستشعر الفضيحة بين الخلائق بظهور حقيقة ما أسرّه وأخفاه على الناس ، ولأن طبيعة المجرم هي الإخفاء ، ويخاف من الناس في الحياة الدنيا أن يطلعوا على قبيح ما يخفيه ، ويحاول أن يُسرّ بأعماله السيئة القبيحة ، والشريعة المقدسة ، بل الشرائع السماوية ، تريد للإنسان أن يكون ظاهره كباطنه لا يخاف إذا أطلع الناس على ما أبطنه من أعمال ، بل يزدادون له حباً وتعلقاً باعتبار أن أعماله التي أسرّها في غاية الجمال ، فيخفي الصدقة وأعمال الخير كي ينال الثواب الجزيل .

وأما أولئك الذين لم يسيروا في طريق العبودية لله وجحدوا آلائه<sup>(١)</sup> ، وكذبوا بنعمائه ، فهم يخفون الباطل ، ويظهرون ما لا يؤمنون به ، فيبينون للناس أن أعمالهم الصادرة هي أعمال خير ، ولكن الواقع عكس ما يظهرونه للناس ، وفي يوم القيامة يفتضحون على رؤوس الأشهاد ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ، فلا يستطيع أحد أن يخفي ما أسرّه من السيئات ، وما غطّى على الخلق من التبعات ، وإذا استطاع ذلك في دار الدنيا لکنه في يوم القيامة من المحال أن يتستر على قبيح أعماله مهما حاول ذلك ، وعندما يرى أعماله واضحة يقول : واثبورا ، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾<sup>(٣)</sup> . يتمنى الهلاك ، لکنه لا يموت فيها ولا يحييا ، فلا يرتاح بالموت ولا يعيش السعادة .

## وَيُضَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾

الأولى : الدعاء بالهلاك .

الثانية : استحقاق نار السعير<sup>(٣)</sup> .

(١) الآلاء : هي النعمة التي تتلو غيرها . الفروق اللغوية : ٧ .

(٢) غافر ٤٠ : ١٦ .

(٣) السعير : النار الملتهبة الحارقة . الفروق اللغوية : ٢٧٨ .

﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ نتيجة أخرى لإتيان الكتاب من وراء الظهر، والسعير النار التي تتأجج وتزداد أناً بعد أن، فالنار تارة لها درجة ثابتة، وأخرى ليس لها درجة ثابتة، بل تزداد في سعيرها في كل أن، ونار الآخرة لظى<sup>(١)</sup>، ومن صفاتها - كما ذكرها القرآن -: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ \* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ \* إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾<sup>(٢)</sup>، هذه أوصاف جاءت في القرآن الكريم للنار التي أعدها الله تعالى في حال افتضاح أمر الإنسان بين الخلائق وعلى رؤوس الأشهاد.

وبالإضافة إلى ذلك فهو يصلى النار المستعرة، وهذا غاية في العذاب، بيد أن الإنسان لا يلتفت إلى المصير المؤلم الذي ينتظره، ويعيش على الأمنيات، ويكذب على نفسه، ويظن أنه مخلد في الحياة، فيتبع هواه ويترك ما أمر الله به، غافلاً عن النتيجة والمصير ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾، هو عذاب لا حد له.

### إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾

#### حقيقة السرور والفرح

وتستمر الآيات متحدثة عن الإنسان الذي يؤتى كتابه من وراء ظهره، فتبين حالاً من أحواله ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾، تعبير يشير إلى حالة سائدة لدى كثير من الناس الذين ينسون الآخرة، وعندما يجتمعون مع نظرائهم - سواء كان النظراء أهلاً حقيقيين أو كانوا بمنزلة الأهل - يتحدثون معهم في حالة الفرح والسرور، وكأنهم قد حققوا كل أهدافهم، ونسوا أن وراءهم معاداً وآخرة، ويوماً تشيب فيه الولدان ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) سميت النار لظى من لزوقها بالجلد. كتاب العين : ٨ : ١٥١.

(٢) الهمزة ١٠٤ : ٦ - ٨.

(٣) المزمّل ٧٣ : ١٧.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ لا يراد منه أن الإنسان لا يكون مسروراً وفرحاً عندما يكون مع أهله، وإنما يراد ذم تلك الحالة الخاصة من نسيان الآخرة التي يتصور فيها الإنسان نفسه بمجرد اجتماعه مع نظرائه قد حقق أهدافه ووصل إلى مقاصده، فيلهو ويفرح ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾<sup>(١)</sup>، وحاله مخالف لمن أيقن بالمعاد من الناحية العملية، كما ورد ذلك على لسان لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

ونرى هذا التعبير أيضاً في آية أخرى: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، أي يتفكّهون في أحاديثهم متناسين ما وراءهم، وتعبير الآية لا يراد به المسرة فحسب، وإنما يراد المسرة الملازمة لنسيان الآخرة، والتي تحصل لدى بعض الناس، الذين ساروا في طريق غير مستقيم، والآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ تدم من كان على تلك الحالة الخاصة، ولا تدم من يفرح عندما يكون مع أهله؛ لأنه مباح، خصوصاً إذا كان الإنسان مع أهله يحقق ما يرضي الله تعالى، أما إذا كان يفرح بما يقترفه من المعاصي مع أهله، متناسياً الله والدار الآخرة، غير مبالي بما صدر منه أو الواقع الذي هو فيه، فذلك من الفرح المذموم.

## إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾

### إنكار الرجوع إلى الله

ويؤكد المعنى الذي ذكرناه ما جاء في الآية التي بعدها: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾، وتعني أنه ظن أن لن يرجع إلى الله، ويحور بمعنى يرجع، تقول: كلمت

(١) القصص ٢٨: ٧٦.

(٢) لقمان ٣١: ١٨.

(٣) المطففين ٨٣: ٣١.



فلاناً فما حار جواباً، أي ما أرجع الجواب. وقيل: سَمِيَ الحور العين حوراً لأنَّ الإنسان يتخيَّر في جمالهنَّ، كما أنَّ أصحاب عيسى (ع) سمَّوا بالحواريِّين لأنَّهم يتردَّدون عليه ذهاباً وإياباً، والمعنى اللغويُّ للآية ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ هو ظنُّه أن لا يرجع مرَّةً أخرى. والتعبير بالظنِّ في الآية لا يشير إلى أنَّ الذين نسوا الله لديهم ظنُّ فعلاً، حيث إنَّهم ليس لديهم يقين بعالم الآخرة، وإنَّما يراد بالظنِّ في الآية أنَّهم في مقام العمل لا يرتَّبون أثراً على عالم الآخرة ويتناسونها حتَّى لو كان لديهم يقين بها، وهناك فرق بين المؤمن بالآخرة من الناحية العمليَّة وبين كثير من الناس الذين لديهم يقين بها وبوجود عالم آخر غير العالم المادِّي، لكنَّهم لا يرتَّبون أثراً عمليّاً على ذلك، وكأنَّ عالم الآخرة لهم وهملاً لا واقع له من الناحية العمليَّة لا يُعير الإنسان في الغالب أهميَّةً لعالم الآخرة بشكل جدِّي، ويصبُّ جُلَّ اهتمامه على الحياة الدنيا.

وهنا كلمة رائعة لأحد العلماء قال فيها: «إنَّ الإنسان لو صرف على آخرته العشر ممَّا يصرفه على الدنيا لتألَّق ووصل إلى درجات عالية».

### لا عمل حقيقي لمنكر المعاد

الكفَّار المنكرون للمعاد الذين يعيشون الحياة المادِّيَّة البحتة عبَّر عنهم القرآن ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾، أي صيَّروا واقعهم العمليَّ مبتنيّاً على أساس إنكار وجود عالم آخر بعد الموت، والتعبير بالظنِّ يراد به أنَّ أعمالهم لم تكن أعمالاً حقيقيَّة؛ إذ لا يوجد عمل من أعمالهم يرجع إلى عالم الآخرة.

وهذا مشاهد لدى الكثير، فقد ذُكر لرسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال له: قزمان، يُحسن معونته لإخوانه وزكَّوه، فقال ﷺ: إنَّه من أهل النار، ثمَّ بعد ذلك جيء لنبيِّ ﷺ وقيل: إنَّ قزمان استشهد، فقال ﷺ: يفعل الله ما يشاء، ثمَّ جيء للنبيِّ ﷺ وقيل: إنَّه قتل نفسه، فقال: أشهد أنِّي رسول الله، وذكروا أنَّ قزمان

قاتل قتالاً شديداً، وقتل من المشركين ستة أو سبعة، فأثبتته الجراح، فاحتمل إلى دور بني ظفر، فقال له المسلمون: ابشر يا قزمان، فقد أبليت اليوم، فقال: بم تبشرون؟ فوالله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت، فلما اشتدت عليه الجراحة جاء إلى كنانته فأخذ منها سهماً فقتل نفسه<sup>(١)</sup>، أي أن الرجل لم يخرج للجهاد في سبيل الله، وذلك حال كثير من الناس، عندما ينصح بأداء عمل أو طاعة يُرجى ويؤجل مسوّفاً<sup>(٢)</sup>، وبعض المنكرين للمعاد إذا ذكرته لا يلتفت إليك، بل إذا ذكرت له الآخرة سخر منك مستهزئاً بك؛ لأنه يرى الآخرة وهماً وسراباً لا واقع له، فلا يعتقد بها، ولا بالرجوع إلى الحياة مرة أخرى، وينكر المعاد والحساب ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾.

### بَلَىٰ إِنْ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

#### الرد على منكري المعاد

ردّ الله تعالى هذا التصوّر الخاطئ -الذي يسير عليه بعض الناس- ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ بالآية التي بعدها: ﴿بَلَىٰ إِنْ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ الظنّ الخاطئ والتصوّر غير الصحيح ناتج عن سهو الفهم في معرفة الله تعالى، وضعف الارتباط به. وكلمة الربّ في الآية ﴿بَلَىٰ إِنْ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ معناها المرّبي<sup>(٣)</sup>، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والحقّ تعالى هو الربّ المسؤول عن كلّ عوالم الوجود، وأمّا الإنسان الجاحد للمعاد فجحوده ناتج عن عدم إدراكه لربوبيّة الله ومسؤوليّته تجاه الإنسان من خلال ما ذكرته الآية ﴿كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾.

(١) الفصول المختارة: ١٤٥.

(٢) التسويّف: التأخير. كتاب العين: ٧: ٣٠٩.

(٣) النهاية في غريب الحديث: ٢: ١٧٩.

الله تعالى مطلع على خفايا الإنسان ومحيط بحركاته وسكناته ، لا يعزب عن علمه شيء ، ولا يخفى عليه أمر ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ يبصر ويسمع ما يصدر من الإنسان ، ويحيط بكل ما يرتبط به ، فهو سميع بصير ، والتعبير في الآية المباركة بالبصير فيه دقة متناهية؛ إذ أن الإبصار ناتج عن علم وإحاطة ، وهي تشير إلى أن صفات الله من العلم والسمع والإبصار بمعنى واحد ، هو ذاته المقدسة ، وتبين أن الله تعالى بصير مطلع على كل ما يصدر من الإنسان من أعمال وأقوال ، وهذه الرقابة الإلهية تُذكر الإنسان وترجعه إلى الطريق المستقيم ، فهناك إحاطة إلهية شاملة لكل شيء ، وهي نحو من الإحاطة ، والنحو الآخر منها هو إحاطة المخلوقات بغيرها كالإنسان والحيوان ، وهي محدودة غير شاملة ، ويسمّيها العلماء إحاطة إدراكية ، لكونها ناشئة من الإدراك بواسطة الحواس .

والتعبير في الآية بالبصير دون العليم ، باعتبار أن الله تعالى له علم وإحاطة غير آتية عن طريق الحواس ؛ إذ أن إبصاره بذاته كما أن علمه وقدرته هي ذاته ، والتعبير بالبصير في الآية المباركة - وفي غيرها من الآيات - إيماءة مرشدة للإنسان المؤمن في تعامله مع الإنجازات الصادرة منه بأنّها بقدره الله تعالى التي أفاضها بنعمه وآلائه؛ لأنه الرب ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ .

أمّا الجاحد المنكر للمعاد ، فلا يستشعر نسبة الأعمال الصادرة منه لله تعالى ، وأنه المنعم بها عليه ، قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفه : «فَبِأَيِّ شَيْءٍ أَسْتَقْبِلُكَ يَا مَوْلَايَ؟ أَسْمَعِي؟ أَمْ بَبَصْرِي؟ أَمْ بِلِسَانِي؟ أَمْ بِيَدِي؟ أَمْ بِرَجُلَايَ؟ أَلَيْسَ كُلُّهَا نِعْمًا عِنْدِي وَبِكُلِّهَا عَصِيَّتُكَ»<sup>(١)</sup> ، فما يصدر منه من سوء وكفران بنعم تحققت ، وآلاء مُنحت ، قال تعالى : ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> ، وهو تعالى يُذكر الإنسان

(١) المصباح للكفعمي : ٧٦٨ .

(٢) النحل : ١٦ : ٥٣ .

الجاحد للمعاد أنّ أعماله جاءت من خلال القدرة التي زوّده بها ومنحه إيّاها، هذه القدرة جعل الله الإنسان يتصرّف فيها باختياره، وهي نعمة من نعم الله التي يطّلع على طريقة تصرّفه بها ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ .

إذن الله تعالى يبصر ويعلم بما يصدر من الإنسان، غير أنّ بعض الناس لا يظنّ بوجود عين تبصره، وربّ يعطيه، وذلك سيؤدّي به إلى نكران المعاد، وصدور الأفعال منه بغير حساب ولا مبالاة، بما يتنافى مع المصير المحتوم الذي سيؤول إليه ويحاسبه عليه ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ .

### استشعار الرقابة الإلهية

يرتبط هذا الموضوع ببحث عرفاني أكّد عليه علماء السير والسلوك والأخلاق فقالوا: إنّ من أهمّ ما يوجب للإنسان السير في طريق الكمال الروحاني استشعار الرقابة الإلهية، بأن يعلم الإنسان المراقب لله تعالى أنّ الله مطّلع عليه، ولهذا كان كثيراً من الذين استقاموا وتابوا إلى الله سبب توبتهم ورجوعهم إلى الله وخز الضمير والالتفات إلى إحاطة الله ورقابته بهم، وإذا علم المرء بوجود من يراقب حركاته سيحذر ويدقّق في كلّ ما يصدر منه، ويسعى كي تكون تصرّفاته صحيحة، فإنّ الموظّف في أي دائرة إذا علم أنّه مراقب من قبل مسؤوله في العمل، سعى إلى التدقيق في حساباته، والمراقبة لمصروفاته، وسجّل كلّ شيء بدقّة متناهية خوفاً من وجود خلل أو خطأ يؤدّي إلى غضب وسخط مسؤوله، وبالتالي حرمانه من الترقية أو فصله من العمل. هذا الخوف الكبير من إنسان مثله، فكيف إذا علم الإنسان بأنّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء يراقب كلّ ما يصدر منه قبيحاً كان أو حسناً، ومطلّع على كلّ ما يفكر به ويمرّ على خاطره، وقد أكّد العلماء على أهميّة هذا النحو من الرقابة وتذكير الإنسان بها لنفسه كي يستشعر الحضور الإلهي في كلّ آن، وبذلك تكون أعماله على وفق ما يريده الله، ومحلاً لرضاه، بعض علمائنا

الأبرار عندما مُدح من بعض الناس على أعماله الصادرة منه ، والتي كانت بنظر المادح تمثل قِمة الإخلاص ، ردّ العالم مدحه بأنّ الذي يعلم بصحة العمل وخلوصه وكماله هو الله وحده ، وذكر مادحه بأنّ الناقد بصير ومحيط بكلّ شيء ، قال تعالى :

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾<sup>(١)</sup>.

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾

### الاستدلال على الربوبية بالمظاهر الكونية

لكون الحقّ تعالى بصير بشؤون عباده -لأنه الخالق الرازق والمربّي لهم ، المنعم عليهم -لهذا يلفت انتباه الإنسان للتدليل على ربوبيته وعظمته وسعة قدرته المحيطة من خلال مظاهر الكون التي تحتوي على إبداع الصنع والاتقان المحكم ، فكلّ مفردة من مفردات الكون لها ارتباط بنحو ما مع الأخرى ، غاية الأمر أننا ندرك بعض أنحاء الارتباط مع مظاهر الكون ونجهل كثيراً منها ، فنذكر تأثير الشمس على الكون ، والقمر على حركتي المدّ والجزر ، وتأثير بعض الكواكب ، ونذكر أيضاً كثيراً من المظاهر الأخرى ونحتاج إلى عمقٍ علميٍ لنحيط بارتباط بعضها مع بعضها الآخر ، وكلّما اتّسعت الذهنيّة العلميّة للإنسان أدرك ضآلة نفسه وعجزه وقلة علمه ، مقابل القدرة اللامتناهية للباري تعالى . ويستعرض تعالى بعض مظاهر الكون الدالة على اتقان صنعه وبديع حكمته .

### الهدف من القسم بغير الله في القرآن

قبل أن نستعرض الآيات الشريفة نذكر ببحث عقدي هامّ ، لئلا يقع كثير

(١) الأنعام ٦ : ٥٩ .

من الشباب في باب الشبهات ، حيث إننا ذكرنا بأن القرآن الكريم يكرّر القسم بغير الله : ﴿وَالْفَجْرِ \* وَلَيَالٍ عَشْرٍ \* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾<sup>(٢)</sup> ، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا \* وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا \* وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا \* وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾<sup>(٣)</sup> ، ويهدف من ذلك القسم بيان أمور متعدّدة :

**الأول:** إلفات انتباه الإنسان إلى أنّ الكون يسير على وفق حكمة غاية في الدقّة تستند إلى مدبّر حكيم ، وإلهٍ عليم قدير .

**الثاني:** إلفات انتباهه للربط الكونيّ بين مفردات الكون .

**الثالث:** شحذ ذهن الإنسان كي يفكّر في المظاهر الكونيّة ، فيستدلّ بها على وجوده تعالى ، وسعة قدرته ، وهيمنته المطلقة على مظاهر الكون .

### القسم بغير الله والشرك

هذه الأهداف في غاية الوضوح ، إلا أنّ النقطة الهامّة هي أنّ بعض الفرق الإسلاميّة وقعت في اشتباه في القسم بغير الله ، فتصوّرت أنّه غير جائز ، بل هو من أقسام الشرك بالله تعالى في المأل ، والحال أنّ القرآن مليء بالقسم المتعدّد بغير الله ، وعندما يذكر ذلك للمستشكل يجيب : « أنّ الله تعالى يجوز له أن يُقسم بما شاء من خلقه ، وليس للخلق أن يقسموا إلاّ به »<sup>(٤)</sup> ، ولا بدّ أن نبيّن - أنّنا أتباع أهل البيت عليه السلام - وردت عندنا روايات لا تجيز القسم بغير الله<sup>(٥)</sup> ، فكيف نوفّق بينها

(١) الفجر ٨٩ : ١ - ٣ .

(٢) البلد ٩٠ : ١ .

(٣) الشمس ٩١ : ١ - ٤ .

(٤) شرح مسلم للنووي : ١١ : ١٠٥ . تفسير القرطبي : ١٩ : ١٩٤ . نيل الأوطار للشوكاني : ٩ : ١٢٨ .

(٥) عن أمالي الشيخ الصدوق في مناهي النبي ﷺ : « أَنَّهُ نَهَى أَنْ يَحْلِفَ الرَّجُلُ بِغَيْرِ اللَّهِ وَقَالَ :

مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ، وَنَهَى أَنْ يَحْلِفَ الرَّجُلُ بِسُورَةٍ مِنْ كِتَابِ »

وبين القسم بغيره تعالى المتداول بين الناس ، فيقال : « لعمر أبيك » ، أي نقسم بعمر أب الطرف المقابل ، ونقول : « والقرآن الكريم سوف آتيك في الساعة كذا » ، و« حقُّ الرسول الكريم » ، و« حقُّ الحسين » ، وما إلى ذلك ، قال تعالى : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١) .

### القسم بغير الله ليس من الشرك

حتَّى تتبيّن هذه النقطة الهامّة لا بدّ من التأكيد على أنّ ما ورد في الروايات من عدم جواز القسم بغير الله يشير إلى قضية خارجيّة ويختصّ بإثبات الحقوق القانونيّة الشرعيّة التي لا يوجد فيها بيّنة وأرجعت الدعوة إلى اليمين (القسم) ، وإثبات الدعوة باليمين لا يكون إلّا بالقسم بالألفاظ الثلاثة هي : والله ، بالله ، تالله ، والقسم بالله في إثبات الدعاوى في المجال القانوني لا يصحّ ولا يترتّب عليه أثر إلّا بلفظ الجلالة ، وتشير الروايات إلى أنّ حسم الدعاوى لإثبات الحقوق لا يكون إلّا بتلك الألفاظ الواردة في النصوص الشرعيّة ، وما ورد من روايات تحظر القسم بغير الله حُمل على هذه القضية الخارجيّة ، ولا يُحمل على أنّ القسم بغير الله لا يسوغ بأيّ وجهٍ من الوجوه؛ لأنّه لو كان لا يجوز لما أقسم به البارئ تعالى في القرآن الكريم . ومن قال : إنّ الخالق له أن يُقسم بما شاء من خلقه ، ولا يحقّ ذلك للخلق ، فإنّ كلامه غير صحيح؛ لأنّ الأمر إذا كان ليس بجائز فلا فارق بين أن يصدر من الخالق أو المخلوق ، بمعنى أنّ الله تعالى لا يمكن أن ينهى عن القبيح ثمّ يفعله ، كما أنّه لا يمكن أن يأمرنا بترك السوء ثمّ يستعمله في كلامه ، وهو تعالى عندما ينهى عن الظلم ، وله أن يفعل ما يشاء ليس معنى ذلك أنّه يظلم عباده؛

﴿ اللهُ وَقَالَ: مَنْ حَلَفَ بِسُورَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ فَعَلَيْهِ بِكُلِّ آيَةٍ مِنْهَا يَمِينٌ، فَمَنْ شَاءَ بَرٍّ وَمَنْ شَاءَ

فَجَرَ﴾ . بحار الأنوار : ٨٩ : ١٧٥ .

(١) الحجر : ١٥ : ٧٢ .

إذ أن ذلك غير ممكن وقوعاً، وهو لا يفعل الظلم ولا يصدر منه القبيح ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>، فلا يسوغ للباري تعالى أن ينهى خلقه عن فعل شيء لقبحه ثم يفعله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

إذن القسم القرآني حاله كحال كلامنا الذي ليس هو دعاوى لإثبات حق والتزام خاص، بل تأكيد لحدوث شيء كالوقت، فقولنا: «والكعبة المشرفة سأتيك في الوقت المحدد» دون القسم بالله، ليس بمحظور من الناحية الشرعية؛ لأن الحظر في القسم بغير الله تعالى في المجال القانوني وإثبات الدعاوى وحسم الخصومات.

### معنى الشفق

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ يُقسم الحق تعالى ببعض المظاهر الكونية لأهميتها، فأقسم بمواقع النجوم<sup>(٣)</sup>، وأقسم بالليل<sup>(٤)</sup> والنهار<sup>(٥)</sup> والشمس<sup>(٦)</sup>

(١) الأعراف ٨: ٢٨. يونس ١٠: ٦٨.

(٢) النحل ١٦: ٩٠.

(٣) قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ الواقعة ٥٦: ٧٥.

(٤) قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَدْبَرُ﴾ المدثر ٧٤: ٣٣. قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾

التكوير ٨١: ١٧. قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ الانشقاق ٨٤: ١٧. قوله تعالى:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُ﴾ الفجر ٨٩: ٤. قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ الشمس ٩١: ٤.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ الليل ٩٢: ١. قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾

الضحى ٩٣: ٢.

(٥) قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ الليل ٩٢: ٢. قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾

الشمس ٩١: ٣.

(٦) قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ الشمس ٩١: ١.



والقمر<sup>(١)</sup> والفجر<sup>(٢)</sup>، وما إلى ذلك من أقسام في أي القرآن الكريم، والقسم هنا بالشفق.

**الشفق<sup>(٣)</sup>**: هو الحمرة التي تكون بين المغرب والعشاء، هناك حمرة بعد سقوط قرص الشمس، يطلق عليها الحمرة المشرقية، وهناك حمرة أخرى يُطلق عليها الشفق أو الحمرة المغربية، والله تعالى يُقسِمُ بهذه الحمرة باعتبارها تدلُّ على أمرٍ في غاية الأهمية، وهو أن زوالها يعقبه دخول الليل، وهذه الحمرة تشكّل فاصلاً بين الليل والنهار، فالشفق هو الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس، وهي مظهر من المظاهر الكونية التي تتناسب مع النهار من جهة بياض مختلط بذلك السواد البسيط، وتتناسب مع الليل في نشوء تلك الحمرة، التي تزداد دُكْنَهُ حتّى تصل إلى الظلمة، ويدلُّ هذا المظهر الكوني على التغيّر والأفول من حالٍ إلى حال، يبدأ التغيّر بسيطاً ثمّ يزداد بشكل تدريجيّ إلى أن يتغيّر بنحو كليّ، والحال كذلك في الدنيا وفي جميع مظاهر الكون الأخرى، فإنّ فيها تغيّر تدريجيّ يعقبه تحوّل كليّ إلى شيءٍ آخر.

فالليل يتحوّل من النهار بعد هذا التغيّر التدريجيّ شيئاً فشيئاً، والقسم بذلك يُدلُّ على أمرٍ هامّ، هو التذكرة بالمعاد، وأنّ حياة الإنسان في تغيّر تدريجيّ يعقبه أفول.

وهو بمثابة ما بدأت به السورة: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ \* وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ \* وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾. إذن أقسم الله تعالى بالشفق لما يدلُّ عليه ذلك التغيّر التدريجيّ من حالة إلى حالة أخرى.

(١) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ الشمس ٩١: ٢. ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ الانشقاق ٨٤: ١٨.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ الفجر ٨٩: ١.

(٣) الشفق: هو الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة. الصحاح: ٤: ١٥٠١.

## مظاهر الجمع في الليل

وَبُكِّمِلْ هَذَا الْقِسْمَ قَسْمٌ آخِرٌ يَتَمُّمُ مَعْنَاهُ وَيَزِيدُهُ إِضَاحًا، وَهُوَ مَا تَكْفَلْتُ بِهِ  
الآية التي بعدها ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾، ومعنى وسق أي جمع؛ إذ أن هناك مظاهر  
متعددة يجمعها الليل:

**الأول:** مظهر عالم الكائنات، حيث ترجع الطيور إلى أوكارها، فتجتمع مع  
بيضها وصغارها، وكذلك الإنسان، فإنه في الأعم الأغلب يرجع إلى بيته ويجتمع  
بعياله، وهكذا، الأمر في مظاهر الكون الأخرى، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾  
يشير إلى أشياء متعددة يجمعها الليل، كمظاهر عالمي الحيوان والإنسان.

**الثاني:** أن الجمع يستلزم تغطية الشيء، ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾، حيث تشير  
الآية إلى أن الليل يُغَطِّي الأشياء وينشر عليها الظلام فتصبح مغطاة غير مُبْصِرَة  
ولا مُدْرَكَة، ويُتاح لها أن تستمر في حياتها ونشاطاتها وجميع ما يتعلّق بشأنها.

إذن الليل يجمع كثيراً من المظاهر، ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ تبدأ حركته بشكل  
تدرّجي، وهو ما دُلِّل عليه القسم الأول، ثم إنَّ القسم الثاني دُلِّل على الجمع،  
وكما أن الليل يجمع الأشياء كذلك التغيّر الحاصل بشكل تدرّجي لدى الإنسان  
وغيره يجمع له شتات عمره، وما تفرّق من أعماله فيجده حاضراً.

وعالم الكون بعد تفرّقه وتلاشيه سيؤول إلى اجتماع، كما يجمع الليل شتات  
المتفرّقات سيجمع التغيّر الكونيّ الرهيب الذي يحدث عقبه عالم الآخرة ما تفرّق  
من الأشياء، وأوّل ما يُجمع للإنسان العمل، فيتعجّب منه ويقول: ﴿مَالِ هَذَا  
الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (١).

هناك اجتماع بعد تفرّق وتلاشٍ للأشياء في عالم الزمان، وكما أن الليل يضمّ

(١) الكهف ١٨: ٤٩.

المتفرقات فتعود إلى الاجتماع، كذلك تغيّر مظاهر الكون سيؤدّي إلى اجتماع. والنتيجة أنّ القسم بالشفق يدلّل على التحوّل التدريجي، وأمّا القسم بـ ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ فيدلّل على أنّ الأشياء تجتمع بعد تفرّقها وتتصل بعد تشتتها.

### فوائد اجتماع القمر بعد تفرّقه

تنتقل السورة للحديث عن ظاهرة كونية أخرى تتميز بحالة الاجتماع بعد التفرّق، فالانساق اجتماع بعد تفرّق. اتّسق الشيء<sup>(١)</sup>، أي اجتمع بعد تفرّقه، كالقمر يبدأ صغيراً، وبالتدرّج يصبح بداراً في الليلة الرابعة عشر فيكتمل. ويشير الباري تعالى إلى هذه الظاهرة في آي عدّة من القرآن الكريم، منها هذه الآية ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ﴾، أي اجتمع بعد تفرّقه.

والمغزى والفائدة التي تعود علينا من ذلك عظيمة وكبيرة، لكونه يشير إلى ظواهر متعدّدة:

**الأولى:** الظاهرة الموجودة في القمر هي عند الإنسان أيضاً؛ إذ أنّ له تفرّقاً وتشتتاً في مراحل الأزمنة المختلفة حتى يصل إلى كماله فيصبح بداراً في تألقه، إلّا أنّ له نهاية ورجوع إلى الله تعالى، وهذا المظهر الكوني يلفت انتباه الإنسان إلى أنّ التفرّق ومن ثمّ الاجتماع ظاهرة كونية.

**الثانية:** الكمال ظاهرة كونية لا تدوم؛ لأنّه سينتقل بعد اكتماله إلى حالة أخرى، والشيء إذا وصل إلى أقصى كماله نقص تدريجياً، وقد أومئ إلى هذه الظاهرة القسّم في الآية ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ﴾، بالإضافة إلى أنّ الآية أوضحت معنى اتّساق القمر، وهو تلالؤ نوره وازدياد لمعانه، وهو ما يشبه الإنسان عندما

(١) اتّساق القمر امتلاءه واجتماعه واستواءه ليلة ثلاث عشر وأربع عشر. وقال الفراء: إلى ستّ

عشرة فيهنّ امتلاءه واتّساقه. لسان العرب: ١٠: ٣٧٩.

يصل إلى كماله فيبدأ في تألقه وانتشار نوره ، سواء كان ذلك في الجنية المادية أو غيرها ، لكنّه لا يدوم في وجوده الماديّ .

### مظاهر كونية مترابطة

ونجد في الآيات المتتالية : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ \* وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ \* وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ أَنَّ الله تعالى أقسم ثلاث مرّات كي يدلّل على عظمة المظاهر الكونية المختلفة في الآيات :

#### الأول : مظهر التحوّل والانتقال .

يبدأ بالشفق (الحمرة بعد المغرب) الذي يتدرّج في الظهور من الحمرة الضعيفة التي يعقبها التحوّل من النهار إلى الليل .

#### الثاني : مظهر السكينة والسُّبات .

يلفّ الليل جزءاً كبيراً من الكون ، وينتج مظهراً مختلفاً هو السكينة والاستقرار والسُّبات ، أمّا النهار فيمثّل حيوية ونشاطاً ، عكس الليل في سكونه واستقراره ، وذلك ما يحدث للإنسان في مراحل الزمنية التي تبدأ بالشباب ، وهي مرحلة نشاط وقوّة ، ثمّ مرحلة الشيخوخة والهرم ، ومن بعدهما مرحلة سُبات واستقرار هادئة أشبه بالسُّبات الليليّ .

#### الثالث : مظهر الاجتماع بعد التفرّق .

اتّساق واجتماع القمر مظهر كونيّ ، يوضّح أنّ الأشياء تجتمع بعد تفرّقها وتصل إلى مرحلة كمالها ، ثمّ تؤول منتقلة إلى حالة أخرى ، بالإضافة إلى أنّ القسّم بالقمر إيماءة إلى أنّ واقع الإنسان كفرد وأمة يمكن أن يصل إلى كماله ، وبعد وصوله إلى كماله ينتقل إلى حالة أخرى ، وينبّه ذلك الإنسان أنّه مهما تألّق في أي مجال ، أو وصل إلى كمال لا بدّ أن يعي أنّه لن يبق على ذلك ؛ لأنّ دوام الحال من المحال ، فالقمر يصبح بدرّاً ، لكنّه لا يبقى على حاله ، بل ينتقل إلى حالة أخرى من النزول

والضعف حتى يصبح محاقاً ، أي أن القوة بعدها ضعف وتلاش في القمر وغيره .

### المظاهر الكونية والإنسان

تجري هذه الحالة على المظاهر الكونية الأخرى التي منها الإنسان ، فإنه يرسم هدفاً ويسعى نحوه ، ويكتمل في الوصول إليه ، ويظن أن السعادة لا تتحقق إلا به ، لكنه عند وصوله إليه ينتقل عنه تاركاً له .

### لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾

#### معاني الطبق في الآية

وبعد أن أقسم الله تعالى في الآيات الثلاث ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ \* وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ \* وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ جاءت آية أخرى ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ، وقد قرأت بقراءتين ، بضم الباء (لَتَرْكَبَنَّ) ، فيكون المخاطب الجمع ، ويفتح الباء (لَتَرْكَبَنَّ) ، فيكون المخاطب الإنسان أو النبي ﷺ ، والطبق لغة له معانٍ متعددة ، منها : الغطاء ، والحال المطابق لحالٍ آخر ، والإناء ، ولعله من باب تسمية الحال باسم محلّه ، ويُقال : طبق من طعام ، فمعانيه متعددة ، أورد العلماء تلك المعاني التي توصلوا إلى الاقتناع بها من خلال شواهد ومؤيدات معيّنة :

**الأول :** أن المراد بالطبق في الآية هو السير منزلة بعد منزلة أخرى ، لتكون الثانية مطابقة للأولى ، ولتوضيح هذا لا بد من التأكيد على أن الإنسان في مساره له حالتان : إما أن يسير إلى الرشد أو الضلال ، وإذا تقدّم خطوة إلى الأمام في مسار رشده دعتّه إلى أخرى ، وإن تقدّم خطوة في مسار غيّه وضلاله دعتّه إلى خطوة أخرى في غيّه وضلالته ، والله تعالى يشير في ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ إلى أن السير سوف يكون تدريجياً منزلةً بعد أخرى ، وإذا كان هناك صلاح فسيدعو إلى صلاحٍ فوقه يطابقه ،

أما إذا كان هناك ضلالة فهي داعية إلى أخرى مثلها تطابقها، قال العلماء: هناك مجانسة بين الأشياء، فمن يفعل الخير سيدعوه إلى خير، وإن عمل سوء دعاه إلى عمل سيئ.

**الثاني:** أن المراد من قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾، أي لتحصلن على جزاء لكل عمل تقومون به من جنس العمل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>، وهو أمر مشاهد ومحسوس، فأى عمل يقوم به الإنسان جزاؤه يماثله، وقد أكدت الروايات أن لكل عمل جزاء يماثله، لكن صورة كل عمل في عالم الغيب تختلف عنه في عالم الشهادة، فالصلاة لها معنى يختلف عن الركعات والسجادات، والصوم والحج وبقية الأعمال كذلك. إذن تبين الآية أن كل إنسان يحصل على جزاء عمله.

**الثالث:** أن الإنسان لا يمكن أن يخرج عن عالم الامتحان ويتخلص من الشدائد التي تمر عليه في مساره الدنيوي والأخروي إلى أن يصير إلى الجنة، إلا بالشدائد، ومعنى ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ أي لتحصلن في سيركم على شدة بعد أخرى، ولا تتخلصون من الشدائد مهما حاولتم جاهدين، فيكون بمعنى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

**الرابع:** أن ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ يشير إلى خروج الروح؛ ذلك أن الإنسان بعد أن تنفصل روحه عن جسده تعرج، وهناك طبقات للعروج، كل طبقة تجانس الطبقة الأخرى، والآية ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ تشير إلى عروج الأرواح.

**الخامس:** أن معنى الآية لتصيرن إلى الآخرة بعد مصيركم في الدنيا، ولا يمكن لإنسان البقاء في هذه الحياة الدنيا مهما حاول، بل لا بد أن يخرج منها إلى عالم الآخرة.

(١) الطور ٥٢: ١٦. التحريم ٦٦: ٧.

(٢) البلد ٩٠: ٤.

**السادس:** يوضّح الحالات التي أوضّحها القرآن في مراحل خلق الإنسان من نطفة، ثمّ علقه، ثمّ مضغته، ثمّ كسا العظام لحماً، ثمّ أنشأه خلقاً آخر، وهذه المراحل التي يمرّ بها الإنسان من بداية خلقه إلى موته هي طبق عن طبق.

**السابع:** الإشارة إلى الحالات المتعدّدة التي تعترى روح الإنسان من السرور تارةً، والغمّ أخرى، والرضا ثالثة، والغضب رابعة، وكما أنّ هناك حالات ألم وشدّة وبؤس وتعاسة، هكذا أمر جميع الحالات المتعدّدة التي تمرّ على وجود الإنسان المعنويّ، يجمعها قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي سوف يَمُرُّ على وجودكم المعنويّ والروحانيّ حالات متعدّدة من الكرب والشدّة والبؤس والبلاء والسرور والنعم والفرح والرضا، وما إلى ذلك من الحالات.

**الثامن:** يوضّح أنّ الأمة ستكون مماثلة للأمم الأخرى المتقدّمة، وكلّ ما جرى على تلكم الأمم من انحرافات سيجري على هذه الأمة، ومعنى ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أي لتسيرن في المسارات والطرق المتعدّدة التي سارت عليها الأمم الأخرى، قال المصطفى ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتّى لو دخلوا في جحر ضبّ لا تبعتموهم، فقالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمنّ إذن؟»<sup>(١)</sup>، ويشير النبي ﷺ إلى أنّ كلّ أمة من الأمم لا بدّ أن تمرّ عليها سنن تاريخيّة متعدّدة، ينجي الله تعالى من سبقت له منه الحسنى، ويضلّ الله من يشاء وما للظالمين من أنصار.

### انحراف مسار الأمم

قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ تأكيد على أنّ الأمم ستسير في مسارات منحرفة، ممّا يدلّل على عدم عصمتها، ويؤدّي ذلك إلى دخولها في طرق غير

(١) صحيح البخاري: ١٣: ٢٥٥.

مرضية لله تعالى ، والحافظ للأمة والعاصم لها هو تمسكها بالكتاب والعترة ،  
 اللذان أكد عليهما في حديث الثقلين المشهور بين الفريقين ، الذي صدع به النبي ﷺ  
 في غدير خم ، فقال : « إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ : كِتَابَ اللَّهِ حَبْلٌ  
 مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي ، فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا  
 عَلَيَّ الْحَوْضَ » (١) .

## فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

### تأثير النظام الكوني في إيمان الإنسان

بعد أن عدّد الباري تعالى بعض المظاهر الدالة على عظم قدرته ، وبديع صنعه ،  
 وإتقان حكمته ، أورد استفهاماً توبيخياً أو استنكارياً ، أوضح فيه أنّ الإنسان إذا  
 نظر إلى مظاهر الكون سيرها داعية إلى الإيمان به تعالى والعمل بالقانون الإلهي  
 والسير في صراط العبودية ، وأنّ من يستنكف عن هذا الصراط ، وينكر الله تعالى ،  
 ويجحد آلاءه ونعماءه ، سيخرج عن مقتضيات الفطرة وما يدعوه إليه العقل  
 والنظر للسير في طريق الحقّ والأخذ بسبل الهداية .

والقسم ببعض مظاهر التغيرات الكونية التي تحدث ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّقَقِ \* وَاللَّيْلِ  
 وَمَا وَسَقَ \* وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ \* لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ، ثمّ تعقبيه باستفهام ﴿فَمَا  
 لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، يوضّح أنّ الحال إذا كان على هذه الشاكلة فسوف تكون  
 المظاهر الكونية مرشدة إلى الإيمان بنحوٍ طبيعي ، وأنّ من لا يؤمن يُستنكر  
 عليه ويوبّخ ؛ لأنّ من تظهر له الحقائق ، وتتّضح له الدلائل ولا يأخذ بها ، يوبّخ على  
 ذلك .

(١) كمال الدين وتمام النعمة : ١ : ٢٤٠ .



إذن كل شيء في الكون يدعو إلى الإيمان بالله ، والسير على وفق أوامره ، والانتهاز عن نواهيهِ؛ إذ الكون لم يكن موجوداً ثم وُجد ، فمن أوجده؟ ومن أحدث التغيير والحركة فيه؟

هذه الاستفهامات توصل الإنسان إلى إدراك وجود قدرة تقوم بعملية التغيير والتحرك للمظاهر الكونية التي تحدثت عنها الآيات المتتالية بصورة القسم ، مما يدعو بنحو توكيدي إلى الإيمان بالله تعالى ، لذا جاءت الآية واضحة ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، أي لا يؤمنون بالذي جعل الدلائل والمظاهر الكونية الداعية إلى الإيمان به .

إن من نظر في الحقائق الكونية أذعن بفطرته وعقله أن الله تعالى هو الحق الذي يجب أن يتبع؛ لأن الإيمان نابع من الفطرة ، سواء كان إيماناً بالله تعالى أو بما يلازمه ، كالإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (١) .

إذن مقتضى فطرة الإنسان أن يؤمن بالله تعالى؛ لأن مظاهر الكون تدعوه لذلك ، فهو يرى نفسه طفلاً ، فشاباً ، فشيخاً كبيراً ، ثم تدب فيه الأمراض ، فيقاوم ويقاوم إلى أن تتلاشى مقاومته وتنتهي ، فيستسلم مدعناً بأن لا حول له ولا قوة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٢) ، وهذا هو الأمر الإلهي ، وقوله تعالى : ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جاء بعد تعدد المظاهر الكونية التي تثير في الإنسان كوامن داخلية تدعوه إليها الفطرة ، فيستفيق وجدانه على أن مقتضى الإيمان هو الحقيقة ، التي لا مريّة فيها ، وأن الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ، والسير على وفق ما دعا إليه الأنبياء والرسل من آدم إلى خاتمهم ﷺ ، هو الحق الطبيعي .

(١) الروم ٣٠ : ٣٠ .

(٢) البقرة ٢ : ١٥٦ .

## وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾

### طريق سلوك الإنسان في سيره التكاملي

بعد أن أورد الله تعالى أدلة وجوده من خلال المظاهر الكونية المتعددة ، أضاف إليها دليلاً آخر ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ ، وهو دليل قاطع وحجة ناصعة ، ذلك أن الإنسان يسلك طريقين في سيره التكاملي لله تعالى :

**الأول:** الكتاب التكويني ، وهو مظاهر الكون الخارجي ، من الشمس والقمر والأرض والسماء والنجوم وجميع مفردات الكون ، التي يرى أن كلاً منها يدعوه إلى الإيمان بالله ، كما أوضحت الآيات السابقة .

**الثاني:** الكتاب التدويني ، وهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى (القرآن الكريم) تلك المعجزة الخالدة على مرّ العصور ، التي تدعو الإنسان إلى الإيمان بالله ، وهو ما أبانته الآية التي نحن بصدد إيضاها ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ .

### آثار التفقه في معاني القرآن

إذا تلى القرآن الكريم على إنسان وعرف معانيه سوف يُدرك حلاوته وسرّ إعجازه ، وسيخشع قلبه لآياته ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (١) .

وقال تعالى أيضاً : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢) .

إذن من فقه معاني القرآن والكتاب التدويني دعاه الفهم للإيمان بالله تعالى

(١) الحديد ٥٧ : ١٦ .

(٢) الحشر ٥٩ : ٢١ .

والإتباع له ، من ناحيتين :

**الأولى:** أن القرآن جاء به النبي ﷺ الذي لم يتعلم عند أحد ، وكان أمياً<sup>(١)</sup> ، والبيئة التي عايشها كانت جاهلة ، لا تمتلك ثقافة واسعة ، ومع ذلك تحدث النبي ﷺ بهذا القرآن الذي أدهش العقول ، وحير الألباب ، وتحدى الثقيلين (الجنّ والإنس) وإذا لم يكن النبي ﷺ هو المؤلف للقرآن فذلك يعني أن هذا الكتاب المعجز صدر من قدرة غير متناهية هي الله تعالى ؛ إذ القرآن يمثل القمّة ، وقد أنزل على قلبه ﷺ ، ولا يستطيع أحد من الجنّ والإنس أن يأتي بآية واحدة من آياته الكريمة .

**الثانية:** أن القرآن الكريم لا يمكن التبديل أو التغيير فيه ، فلا يستطيع أحد أن يبدل حرفاً واحداً مكان حرف آخر ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(٢)</sup> ، فهو آية معجزة من هذه الناحية .

ومن ناحية أخرى نجد ومنذ القدم أن أي كتاب من الكتب يطرأ عليه التبديل والتغيير ، والزيادة والنقيصة ، حتى وإن كان الواضع له جهة علمية مكونة من

(١) هناك اختلاف في معنى الأمي على أقوال :

الأول: أنه المنسوب إلى أم القرى .

الثاني: الذي ليس من أهل الكتاب، أي ليس من اليهود ولا من النصارى، ويؤيده قوله تعالى : ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران ٣ : ٥٧ .

الثالث: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهو أضعف الأقوال لوجود روايات دالة على كماله المطلق في عالم الإمكان، وإن أريد هذا القول بقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ - العنكبوت ٢٩ : ٤٨ - غير أنه قابل للتأويل .

(٢) النساء ٤ : ٨٢ .

أخصائيين ، فإنه قد يبدو لهم إضافة بعض المعلومات أو الأفكار الجديدة ، وحذف بعض المعلومات أو الأفكار التي استجد ما يخالفها .

**الثالثة :** هناك ناحية أخرى هامة في عصرنا الراهن هي التراكم العلمي والمعرفي ، المعبر عنه بالانفجار العلمي الذي تحقّق للبشرية من خلال ضمّ الخبرات بعضها إلى بعضها الآخر ، فما عاد الإنسان يفكر أو يتعلّم وحده ، بل أصبح الإنسان في أقصى الشرق يأخذ بالتقدّم العلمي الحاصل في أقصى الغرب فتجتمع قدرات العقول مع بعضها لتنتج معرفة تخدم الإنسانية ، ومع ذلك فإنه في أي مجال من المجالات لم يستطع العلم بهذا التقدّم الهائل في التقنية والتكنولوجيا والمعارف أن ينقض آية من آيات القرآن ، بل العكس من ذلك نجد أنّ العلم يؤيد القرآن الكريم ، فلا توجد حقيقة علمية - وليس النظريات والفرضيات التي تتبدّل - إلا وهي تؤيد ما جاء في القرآن الكريم ، أي أنّ كلّ حقائق العلم تنسجم متلائمة مع آيات القرآن ، بينما الكتب الأخرى حتّى السماوية منها لم تحفظ ، ولكون القرآن الكتاب السماوي المعجز للبشرية جمعاء؛ إذ أنّ رسالة النبي ﷺ خاتمة رسالات السماء ، وأما بقية الكتب السماوية فقد حُرّفت وبُدلت ، فلا دلالة لها على ما يريد الله تعالى ، فخصوصية القرآن هي كونه الكتاب الوحيد المحفوظ الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾<sup>(١)</sup> ، كانت حقائق العلم تتلاءم مع القرآن ، وهذا ما أكّده غير المسلمين ، فقد أجرى الباحث المسيحي ( ميشيل بوكاي ) مقارنة بين الكتب السماوية : الإنجيل والتوراة والقرآن مع العلم الحديث ، وقام ببحوثه لسنوات متعدّدة ، توصل بعدها إلى تأليف كتاب ( القرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث ) ، أثبت فيه بالأدلة أنّ التوراة والإنجيل لا تتلاءم مع الحقائق العلمية ، والكتاب السماوي الوحيد الذي يتلاءم مع حقائق العلم هو القرآن الكريم .

(١) فصلت ٤١ : ٤٢ .

## معنى السجود في الآية

لا يريد الحق تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾، السجود بالمعنى المعهود وهو وضع الجبهة على الأرض فقط، وإنما يراد به الأعم وهو الخضوع والخشوع لله والاتباع والانتهاج لما أمر به ونهى عنه، فيكون السجود هنا بمعناه العام وليس الخاص، وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الآية إذا قرأت لا يجب على المستمع والقارئ أن يسجدا؛ لأنّ المراد بالسجود هو المعنى العام، وهو الخضوع والخشوع لله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾، تأكيد على أنّ من يفقه كتاب التدوين ويعي معانيه سوف يفهم أنّ القرآن معجزة خالدة بلا ريب، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾<sup>(١)</sup>، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(٢)</sup>.

ولا بدّ للإنسان أن يمعن النظر والتفكير في هذا الكتاب العظيم حتّى يصل إلى عظمة الله وبديع قدرته، فيؤمن به، ويخضع له، ولا يكون ممنّ ورد فيهم ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾.

## بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾

## طريقة تعامل الكفار مع الحقائق

بعد أن أبان القرآن أنّ هناك من لا يؤمن بالله تعالى مع وجود البراهين الناصعة، ولا يخضع للقرآن مع توافر آياته المعجزة، أوضح بعد ذلك أنّ تلك الصفات يتّسم بها الكفار، ولديهم سلوك وطريقة عبّرت عنها الآية ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾،

(١) فصلت ٤١: ٤٢.

(٢) النساء ٤: ٨٢.

أي أن ديدن الكفار التكذيب والإنكار، يجحدون الحق ويتبعون أهواءهم، والتكذيب سلاح العاجز الذي لا يمتلك المنطق فيسم الحجّة المقابلة بالكذب. وعندما أبان الله تعالى الحقائق، وأوضح الدلائل المفصحة عن تغيير الأحوال الدالّة على وجوده تعالى، والرجوع إليه في عالم الآخرة، أكد أنّ هذه الدلائل والمظاهر الكونيّة توصل الإنسان إليه، وترشد إلى عظّمته، بينما الكافر والجاحد للحقّ يكذب بها وينكرها، ولا يؤمن بغير العالم الحسيّ المعاش، وما وراءه لا وجود له.

لذا يعتبر الأنبياء والرسل الذين أخبروا عن الله تعالى وعن القيامة أصحاب أطماع وأهواء يريدون أن يجعلوا الناس يسيرون في ركابهم، كما أنّ أصحاب هذا الرأي يشكّون في البراهين والحجج التي يوردها الأنبياء والرسل على واقعيّة المعاد. كلّ هذه الأنماط التي يستند إليها الكافر الجاحد للحقّ مُعرّاة عن المنطق، ولا تستند إلى دليل غير التشكيك والتكذيب؛ لأنّه كما قلنا: إنّه سلاح الضعيف.

أمّا الإنسان الذي يمتلك المنطق والحجّة فلا يكذب ما يقوله الآخرون إذا كان مستنداً إلى الدليل والبرهان، بل يأتي ليناقد الدليل، تلك هي الطريقة المتبعة، برهان يقابله برهان آخر، وحجّة تقابلها حجّة أخرى، وهو منطق العقلاء، الذي يؤدّي إلى تمحيص الحقائق ووضوح الدلائل، أمّا أسلوب مجابهة الفكر الآخر بالافتراء والكذب، فليس من ديدن الحوار المؤدّي إلى النتائج والموصل للواقع.

والنتيجة هي أنّ الكفرة والجاحدين لا يتبعون منطق العقل، ولا يسيرون على هدي البرهان، وأفضل طريق يسلكونه للهروب من الحقائق وعدم الإذعان بها هو التكذيب، عندما يقولون: إنّ ما يطرحه الأنبياء والرسل كذب تنتهي المشكلة عندهم، وهذا طريق اتّخذه المعاندون والجاحدون طوال التاريخ البشريّ، فإذا أرادوا أن لا يواجهوا الحقّ وسموه بالكذب.

## الموقف الصحيح تجاه الحقائق

الطريق السليم لمعرفة الواقع هو الإصغاء للبرهان، والتعرّف على الحقيقة ومناقشتها بتفكيرك أجزائها، والردّ عليها جزءاً جزءاً، وذلك هو ديدن المؤمن العاقل الموضوعي في أسلوبه. فهناك طريقتان:

**الأول:** الهروب من الواقع، بأسلوب يحسبه الناس مقبولاً، فإذا وردت الحجّة وجيء بالدليل كُذّب وأنكرت الحقائق، تهرباً وتخلصاً من الموقف.

**الثاني:** طريق يتبعه العقلاء ويسير عليه الحكماء، وهو منطلق الأنبياء والرسول ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(١)</sup>؛ إذ أنّ الإنسان الصادق يقرن رأيه بالدليل.

## موازين التمييز بين الصدق والكذب

وهناك موازين للتعرف على الكاذب من الصادق، من أهمّها: تجريد النفس عن العواطف والأحاسيس، وإبقاء البراهين والحجج فقط، وهذا ما يشير إليه الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، قال أماننا أمير المؤمنين عليه السلام: «الْحَقُّ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ. اعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ»<sup>(٢)</sup>، فلا يقال: إنّ فلاناً شخصيّة كبيرة ومرموقة فالكلام الصادر منه صحيح (١٠٠٪)، فذلك ليس بمنطق سليم؛ لأنّ المنطق هو التجرد عن شخصيّة فلان وغيره، وغضّ النظر عن مركزه الاجتماعي وشخصيته الكبيرة، والتعرّف على الحقّ من خلال من يسير على وفقه، والتعرّف على الباطل كذلك، حتّى وإن كان من سار في ركب الباطل شخصيّة كبيرة، ويتمتّع بمقام رفيع، وله رتبة وشأن، فإنّ ذلك غير مهمّ، المهمّ هو الحقّ، وكلّ كلام مهما كانت الجهة

(١) البقرة ٢: ١١١. النمل ٢٧: ٦٤.

(٢) روضة الواعظين: ١: ٣١.

التي صدر منها لا بدّ من تمحيصه ليتّضح أنّه على وفق الموازين أم لا ، وحينئذٍ فإنّ كان مع الصواب وعليه حجة قُبِلَ ، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .  
وهذا ما أوضح في هذه الآيات من السورة ، بشكل متتالي ، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ \*  
وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ \* وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ \* لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ، وبعد الدلائل  
والبراهين قال الباري تعالى : ﴿فَمَالَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، وقد ذكرنا أنّ القرآن معجزة  
خالدة دالة على صدق وحقانيّة المصطفى ﷺ ، ومع ذلك جحده الكفّار وكذبوه ،  
﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ ، لكنّه تكذيب لا ينفع صاحبه .

### العاقبة للحقّ والصدق

قد يستفيد المكذّب من كذبه في لحظة الزمن الذي يعيشه ، لكنّه لا يستفيد  
منه دائماً وباستمرار؛ لأنّه مهما طال الزمن فالصدق والحقّ هو الباقي ، وسوف  
يكتشف الناس ولو بعد حين كذب الكاذب ، وسوف يتعرّفون على حقانيّة الصادق ،  
المتّبع للحقّ ، وهذا ما ينبغي علينا أن نكون عليه ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ﴾ (١) .

### وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾

### علم الله بحقيقة الإنسان

وبعد أن أبان الله تعالى حقيقة الكافرين ، والمنهج الذي يتّخذونه تجاه  
الحقائق الثابتة ، أوضح تعالى أنّه عليهم بأمرهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ ، وأنّ  
جحودهم وإنكارهم وإضمارهم الباطل لا يخفى على الله ، فهو العالم بالسرائر ،  
فلا تكذيب للإنسان ولا جحوده بمفيدة له ، ولا إظهار التصديق وإضمار الجحود

(١) التوبة ٩ : ١١٩ .



في وجدانه ينفعه ، فهذا الإذعان والإيمان الظاهريّ يعلمه الله؛ لأنّه تعالى يعلم بحقيقة الإنسان وبواقع ما يضمّره في عالم وجوده الداخليّ ﴿وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ ، أي أنّّه تعالى أعلم بما يجعلونه في وعاء أنفسهم ، ويضمّرونه فيها ، فـ ﴿يُوعُونَ﴾ معناها جعله في وعاء نفوسهم ، وهو تعبير قرآنيّ عن القلب والروح بأنّهما وعاء لما يضمّره الإنسان من أفعال وأمور يبطنها في دخيلة نفسه ، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في حديث له مع كميل : «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاها»<sup>(١)</sup> ، وهي تفسّر الآية الكريمة ، ﴿وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ ، وتبيّن أنّ قلب الإنسان وعاء يحوي كلّ ما يُلقى فيه ، فإذا أضمر الإنسان السوء والباطل وخلاف الحقّ ، فإنّه تعالى سيّعلم به ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾<sup>(٢)</sup> ، فهو تعالى أقرب للإنسان من نفسه ، ويعلم بما يضمّره ، وقد أبان الله تعالى ذلك في آية أخرى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾<sup>(٣)</sup> ، فهو المحيط العلّيم بما تكنّه الصدور ، قال الحكماء : إنّ الله تعالى هو الموجد للإنسان المحيط به ، وإذا كان كذلك فهو أعلم بما يشتمل عليه المحاط الإنسان من أفكار وآراء وما يضمّره في داخله ، ﴿وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ ، وليس خاصّاً بالجاحد والمكذّب ، ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكذِّبُونَ﴾ ، بل يشمل الجميع ، فالمؤمن السائر في طريق الهدى يعلم به الله كما يعلم بالكافر دون فرق ، وهاهنا حيثيّة دقيقة ، هي أنّ الله تعالى وجّه خطابه للإنسان المنكر الجاحد ، وأبان أنّ ما يجحده ويخفيه ظاهر جليّ له تعالى ، وفي الآية توبيخ وتبكيّت ، فهي كما تبيّن أنّه تعالى محيط وعالم بالإنسان كذلك هي تنبيه وتوبيخ

(١) نهج البلاغة : ٤ : ٣٥ .

(٢) سورة ق ٥٠ : ١٥ .

(٣) غافر ٤٠ : ١٩ .

للمنكر، كيف ينكر والله يعلم ويحيط به ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾!

### استشعار اطلاع الله يوصل للكمال

إنّ هذا العلم الإلهي الذي يحيط بالإنسان -والذي أبانته الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسْوُسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ - من أعظم ما يوصل الإنسان إلى درجات الكمال، فإنّ الإنسان قد يصل إلى الكمال من خلال المراقبة لله، والعلم بإحاطته به في أفعاله وأقواله وحركاته وسكناته، وأنه تعالى لاءيعزب عن علمه شيء، وإذا توجه الإنسان إلى الله وعلم بإحاطته مراقباً لله في ذلك تكامل تدريجياً، واستطاع أن يصل إلى درجات عالية في التربية لنفسه والسلوك إلى الحقّ تعالى.

### المعصية وحضور الله

هناك نصائح أسداها النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام للحواريين المقربين منهم فيها توجيهات تبني على هذه الدقيقة التي أوردناها، فقد جاء رجل إلى الإمام الحسين عليه السلام، وقال: أنا رجل عاصٍ، ولا أصبر عن المعصية، فعظني بموعظة، فقال عليه السلام: إِفْعَلْ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ وَأُذِنَبَ مَا شِئْتَ، فَأَوَّلُ ذَلِكَ: لَا تَأْكُلْ رِزْقَ اللَّهِ وَأُذِنَبَ مَا شِئْتَ.

وَالثَّانِي: أَخْرُجْ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ وَأُذِنَبَ مَا شِئْتَ.

وَالثَّلَاثُ: أُطَلَبْ مَوْضِعاً لَا يَرَاكَ اللَّهُ وَأُذِنَبَ مَا شِئْتَ.

وَالرَّابِعُ: إِذَا جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَكَ فَادْفَعْهُ عَن نَفْسِكَ وَأُذِنَبَ مَا شِئْتَ.

وَالخَامِسُ: إِذَا أُدْخِلَكَ مَالِكٌ فِي النَّارِ فَلَا تَدْخُلْ فِي النَّارِ وَأُذِنَبَ مَا شِئْتَ»<sup>(١)</sup>،

(١) بحار الأنوار: ٧٨: ١٢٦، الحديث ٧.

والشاهد في الرواية قول الإمام عليه السلام: «أُطْلِبَ مَوْضِعًا لَا يَرَاكَ اللَّهُ وَأَذْنِبَ مَا شِئْتَ»، فهو يُبَيِّنُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِفَ ذَنْبًا فَلْيَذْهَبْ إِلَى مَكَانٍ لَا يَرَاهُ اللَّهُ فِيهِ، وَلَا يَعْلَمُ بِمَا يَرِيدُ أَنْ يَقُومَ بِهِ، وَحِينَئِذٍ يَقْتَرِفُ الذَّنْبَ الَّذِي نَوَى فَعَلَهُ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَذْهَبَ إِنْسَانٌ إِلَى مَكَانٍ لَا يَرَاهُ اللَّهُ فِيهِ، وَلَا يَعْلَمُ بِهِ؟!

وذلك غير ممكن، فإنَّ الله تعالى مطَّلِعٌ على كلِّ شيءٍ وعالمٌ به، ومن أفضل وسائل تربية النفس والسير التكاملِيَّ إلى الله استشعار وجوده تعالى بنحو دائم، فهو العالم والمحيط بما يصدر من الإنسان من أفعال، وما يضمّره من أفكار في دخيلة نفسه.

وقد ذكرنا أنَّ الآية المباركة بالرغم من أنها واردة في الجاحدين المكذِّبين، إلَّا أنَّها مفيدة تمام الإفادة للمؤمنين المتّقين السالكين، وهذا ما نلمسه في القراءة التدبّرية للقرآن الكريم التي يقرأ بها الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، فإذا مرّوا بآية فيها ذكرٌ للنار، أو التهديد والوعيد، والإنكار والتوبيخ للجاحدين، كرّروا تلك الآية وذكروا عظمة الله تعالى والإحاطة التامة له بنفوسهم المقدّسة وقلوبهم الطاهرة، فيكون خوفاً وخشية منه تعالى ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾<sup>(١)</sup>، ناشئة من استشعارهم لوجود الله وإحاطته القيومية، وهيمنتته على عالم الوجود.

### أعمال الإنسان مكتوبة في عالم وجوده

ولعلّ للآية ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> معنى آخر، وهو أنَّ ما يقوم به الإنسان من أعمال في الحياة الدنيا مكتوب عليه في صقع عالم وجوده، بمعنى أنَّ دخيلة نفسه يُكتب فيها ما يصدر عنه من أعمال، وإذا كُشف عنه الغطاء تذكّر ما صدر منه سابقاً، وعندما يُكشف عن غطاء نفسه في عالم الآخرة ويحاسبه الله تعالى

(١) الإنسان ٧٦: ١٠.

يقول: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾<sup>(١)</sup>، أي أن الإنسان قد يعلم الكبائر والصغائر التي صدرت منه في حياته، غاية الأمر أن هذا العلم ليس بفعلي له في الدنيا لوجود موانع، وإذا زالت أصبح فعلياً، والله تعالى محيط بالإنسان في عالمي الدنيا والآخرة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ هو عالم بكل ما صدر من الخلق، وكتب في صقع عوالم نفوسهم، وهذا معنى آخر للآية.

### فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾

#### جزاء الكافرين والجاحدين

ثم تبين الآيات جزاء الكافرين ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، البشارة عادة تعقب الخير، لكن الله تعالى في هذه الآية يبشر الكفار والجاحدين بالعذاب الأليم، ويراد من البشارة هنا الاستهزاء بهم، فبدلاً من أن تعقب البشارة الراحة والرضوان، والجنة يعقبها النار والعذاب الشديد بما لا طاقة للإنسان بتحمّله ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾<sup>(٣)</sup>، فيعذب الله تعالى الإنسان بعذاب لا يتصوره ولا يحيط به ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ \* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ \* إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾<sup>(٤)</sup>، عذاب الآخرة يختلف عن عذاب الدنيا، ونار الآخرة أشد من نار الدنيا.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ»<sup>(٥)</sup>، فالنار

(١) الكهف: ١٨ : ٤٩.

(٢) الحج: ٢٢ : ٢١.

(٣) النساء: ٤ : ٥٦.

(٤) الهمزة: ١٠٤ : ٦ و ٧.

(٥) تفسير القمي: ١ : ٣٦٦.

في الدنيا مهما كانت شدتها لا تقاس بالآخرة، حتى النار الصادرة من القنابل الهائلة، الذرية والهيدروجينية، والتي تعتبر أعظم ما توصل إليه الإنسان، ولديها قوة تدميرية هائلة، إلا أنها لا تمثل شيئاً بالنسبة لعالم الآخرة، كما أوضحت الرواية السابقة، ولعل ما ورد فيها من سبعين جزء لا يشير إلى السبعين بمعنى واحد على سبعين (١)، وإنما يشير إلى شدة العذاب الذي لا يتصور ولا حد له، ولهذا نجد أولياء الله الذين يخافونه عبّر عنهم القرآن ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ \* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ \* ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾<sup>(١)</sup>، خوفهم ناشئ من اطلاعهم على الحقائق.

قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: «فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ»<sup>(٢)</sup>، وكلامه عليه السلام تفسير للآيات السابقة.

### الاستهزاء بالجاحدين

تحدّث الحقّ تعالى عن جزاء الغافلين عنه، الجاحدين لآياته، المتكبرين على رسله، السائرين في طريق الغواية والضلال، فقال: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي أنّ الذي ينتظرهم ويبشرون به هو الندامة والحسرة والعذاب والألم، وهذا استهزاء بالكافر الجاحد، فجعل جزاؤه ما لا يتوقعه ثم يعقب البشارة العذاب والندامة، وتلك نتيجة طبيعية للإنسان غير السوي، أمّا لو كان من أهل الإيمان والتقوى والرشد فالبشارة في محلّها ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>. إذن قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يستهزئ بهم ويمدّهم في طغيانهم

(١) التكاثر ١٠٢: ٥-٧.

(٢) نهج البلاغة: ٢: ١٦١، خطبة رقم ١٩٣.

(٣) الواقعة ٥٦: ٨٩.

يعمّهون لأنهم عمي عن الحق، صم عن استماع الآيات والتنبيهات المشيرة لوجدانهم.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

### المؤمنون الصالحون لا يُعذبون

استحقاق العذاب ليس لجميع البشر، بل لفئة مخصوصة، لذا تستثني الآية مجموعة خاصة ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، وللاستثناء هنا معنيان:

**الأول:** أن يكون منقطعاً، ويعني ذلك أن المؤمنين الذين استثناهم الله يختلفون عن الذين بشرهم بالعذاب الأليم. وهذا رأي أكثر العلماء الذين يفرّقون بين المؤمنين والكافرين الجاحدين في طريقتهم، ومنهجهم وسلوكهم، وفكرهم وعقيدتهم، فجزاؤهم من نوع آخر ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، والاستثناء على هذا التوجيه منقطع، لاختلاف المستثنى عن المستثنى منه؛ لأنّ المستثنى هنا المؤمنون، والمستثنى منه هم الكفرة، فيكون منقطعاً.

**الثاني:** أن يكون متصلاً. ورجحه بعض العلماء على الاستثناء المنقطع؛ لأنّ الأصل في الاستثناء أن يكون متصلاً، فيكون المستثنى من جنس المستثنى منه، أمّا الاستثناء المنقطع فهو على خلاف ذلك، كقولنا: جاء القوم إلا فرساً، الفرس ليس من جنس القوم، وهو على خلاف القاعدة. أمّا المؤمنون الذين استثناهم الله من العذاب فكانوا مستحقين له، لكنهم تابوا وأنابوا وأخلصوا ورجعوا إلى الله وآمنوا به، فاستثنى الذين آمنوا من الذين كفروا.

وعندما يبشّر الحقّ تعالى الكفرة بالعذاب الأليم يستثنى منهم من سبقت لهم الحسنى منه تعالى، فارتدع عن غيّه، وترك ضلالته، وغير مساره من الضلالة إلى

الهدى ، ومن الغواية إلى الرشد ، وما أكثر ما يحصل ذلك ، كبعض من يسير في طريق السوء ثم يبدل طريقه إلى الخير والسؤدد .

### نوعية الاستثناء في الآية

من رجح كون الاستثناء متصلاً - ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ - أبان أن ذلك لهدف وغاية ، هي فتح باب الرحمة من الله تعالى ، التي تجعل العبد قادراً على أن يرجع إلى مولاه في أي آن ، وعلى كل حال ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، وإذا كان الاستثناء متصلاً ، وكان المؤمن من جنس الكافر ، بمعنى أن هناك من الكفرة الجاحدين من يستمر في كفره وجحوده ثم يؤنبه ضميره ، ويفكر في العاقبة متأملاً في المنقلب ، فيهتدي للحق ويدع الباطل ، ويتوجه إلى الله ، ويتوب إليه ، فيصبح من المؤمنين . ومعنى ذلك أن باب التوبة والرحمة يبقى مفتوحاً ومشرعاً أمام أي إنسان ، لسعة كرم الله تعالى وعظيم جوده ، ويستمر ذلك إلى الموت ، ثم يوصد أمامه ، أما في الحياة الدنيا وقبل الموت لو رجع إلى الله وأناب ، فإن الله يقبل توبته .

### ارتباط الإيمان والعمل مع الأجر

قوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ، تنبيه على أمرين يستوجبان الوقوف والتأمل :

#### الأول : الاقتران بين الإيمان والعمل الصالح .

لا بد من إلفات النظر إلى اختلاف الإسلام عن بعض الأديان التي لا تهتم بالعمل ، ذلك أن الإسلام دين فكر وعقيدة وعمل ، قال تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ \* إِنَّ الْإِنْسَانَ

(١) الشورى ٤ : ٢٥ .

لَفِي خُسْرٍ \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا  
بِالصَّبْرِ ﴿١﴾ ، فلا يكفي في إسلامنا أن نؤمن دون أن نخطو خطوات إلى الأمام  
في الجانب العملي ، فنزكي ونصوم ونصلي ، وندع الفواحش .

فالإسلام إيمان بالقلب يقترن بعمل ، كما أوضحت ذلك الآيات والروايات ،  
أما إذا آمن الإنسان نظرياً دون أن يقرن إيمانه بعمل ، فاستفادته من الإيمان قليلة ،  
وتقدم الإنسان في أي مجالٍ من المجالات لا يتسنى إلا إذا قرن النظرية بالتطبيق ،  
والتفكير من دون عمل لا يُقدم الإنسان إلى الأمام .

إذن الإسلام دين عمل ، ومن آمن به لا بد أن يسعى جاداً في جعل الرؤى التي  
آمن بها متطابقة مع سلوكه العملي ، وعندئذٍ يصبح من المقربين إلى الله تعالى  
والمقبولين لديه ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ،  
قال بعض المفسرين : إن درجات الإيمان في تكامل ، والله تعالى طلب من الإنسان  
المؤمن أن يعمل ، وجعل العمل يؤثر في زيادة الإيمان من جهة ، والإيمان يحض  
عليه من جهة أخرى ، أما إذا ترك العمل فإن الإيمان يتناقص تدريجياً إلى  
أن يتلاشى ، وهذا ما يفسر ما جاء في الروايات أن الإنسان إذا مارس اقتراف  
القبیح بترك الأوامر الإلهية وفعل النواهي فإن إيمانه يضعف تدريجياً إلى أن يزول ،  
فلا بد من الالتفات إلى أهمية اقتران الإيمان بالعمل .

### الثاني : المؤمنون العاملون جزاؤهم غير ممنون .

يبين قوله تعالى : ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أن الذين أئستثنوا في قوله تعالى :  
﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هم الذين لهم جزاء غير ممنون ، وكل عمل  
يقوم به الإنسان في الحياة الدنيا له أثر وجزاء يترتب عليه ، الجزاء على العمل في  
اللغة هو الأجر ، وجزاء المؤمنين الذين آمنوا بالله وصدقوا برسله وانضبطوا على



وفق أنظمتة تعالى ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ .

### معنى ﴿مَمْنُونٍ﴾ في الآية

ممنون في اللغة له ثلاثة معان :

الأول : بمعنى القطع ، فقوله تعالى : ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع ، فجزاء الآخرة متصل لا انقطاع له ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾<sup>(١)</sup> ، فلا انقطاع ولا نفاذ لعطاء الله تعالى في عالم الآخرة .

الثاني : أن غير ممنون معناه غير منقوص ، المن يأتي بمعنى النقص ، وقولنا : غير ممنون ، أي ، أن عطاءه تعالى لا ينقص بل يستمر دائماً ، أما الإنسان فإنه إذا أعطى غيره في الحياة الدنيا فلا يمكن أن يستمر عطاؤه دون انقطاع أو نقص ؛ إذ هو محدود ، أما العطاء الأخرى من عند الله تعالى فهو عطاء غير منقوص ، فلا يعطي المؤمن شيئاً في الآخرة ويعتريه النقص ؛ لأن كرمه متصل ، وعطاؤه في ازدياد .

الثالث : إن قوله تعالى : ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لا مئة فيه ، وهذا بخلاف العطاء الذي يصدر من الإنسان لأخيه الإنسان فيتصف بإحدى صفات ثلاث : إما أن ينقطع ، وإما أن ينقص ، وإما أن يقتنر بالمئة ، أما العطاء الأخرى فلا مئة فيه ، كما أن عطاء الله في الدنيا لا مئة فيه ، فإن الله تعالى لا يمن على الإنسان في إيجاده ، ولا في منحه العقل والحواس والجوارح والنعم الأخرى ، والحق تعالى عندما يبين النعم التي أولاها للإنسان لا يريد بذلك أن يمن عليه ، بل ، ليذكره بآلائه ليشكر نعمائه ، كي يزداد من لده تعالى . إذن معنى ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي أن الحق تعالى لا يمن عليهم .

(١) هود ١١ : ١٠٨ .

## النعم الإلهية في سلسلة من العلل

يظهر أن نعم الله تعالى لها سلسلة من العلل يُعبّر عنها العلماء بالعلل المُعدّة، والمولى تعالى يجعل تلك المنن والعطايا بيد ملائكة ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾<sup>(١)</sup>، والملائكة بالرغم من إيصالهم لنعم الله إلى الإنسان لا يمتّون عليه، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، تبيان أن من يقوم بإيصال الفضل الإلهي والنعمة من الله لا يمتنّ على الإنسان في عالم الآخرة، أمّا في عالم الدنيا، فإنّ النعم من الله تعالى لكونها تقع في سلسلة من العلل المُعدّة، فمن يُعطيك ليس من عنده إنّما هو بفضل الله تعالى، ومع ذلك يمتنّ عليك.

## الفرق بين عطاء الدنيا والآخرة

في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ثلاث صفات للجزاء والثواب في عالم الآخرة، لا ينقطع فهو متّصل، ولا ينقص، ولا يُمتنّ به على المعطى، وعكسه العطاء في عالم الدنيا، فإنّه ينقطع ويزول حتّى لو لم يحصل عليه الإنسان بواسطة غيره، بل كان بسعيه وجهده، فهو لا يستمرّ، ولا بدّ له من أملٍ، فإذا وصل إليه انقطع وانتهى، أمّا لو كان بواسطة الغير فهو إمّا ينقص، أو يُمتنّ به، أو ينقطع.

## خصال النعم الدنيوية والأخروية

تبين الآية معنى غاية في الأهمية طالما توجّه إليه الحكماء والعقلاء والعارفون بالله تعالى وهو أن نعمة الدنيا معرضة للزوال، ويشوبها المنّ، وتنقص، ولا يضمن الإنسان بقاء ما لديه من النعم في الحياة الدنيا، والإنسان مهما تمتّع بالنعم والقدرات فلن يستطيع أن يضمن بقاء ذلك، وهو ما يُعبّر عنه بأنّ البقاء لله وحده، وهذا القول

(١) عبس ٨٠:١٦.

لا يختصّ بالموت فحسب ، بل يشمل كل شيء ، وكلّ المفردات التي نتعامل وإياها؛ لأنّ البقاء الذي يدوم ولا يزول هو الله تعالى ، وتوضّح هذا المعنى كلمة رائعة لعليّ عليه السلام يقول لابنه : «لَنْ تُنَالَ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى»<sup>(١)</sup> أي أنّ النعم ولذاتها في الحياة الدنيا مشوبة بالكدر والألم وليست بخالصة ، وهذا معنى آخر للآية المباركة بيّنه الباري تعالى بقوله : ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ؛ لأنّ طبيعة النعم والعطاء الإلهي في الآخرة تختلف في الجوهر عن نعمه وعطائه في عالم الدنيا ، باعتبار أنّ اللذة في الآخرة غير مشوبة بالكدر ، ولا بفقدان نعمة أو لذة أخرى ، وهذا ما أبانته الآية بإطلاقها ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ؛ إذ العطاء الإلهي في عالم الآخرة يختلف جوهرًا عن العطاء الإلهي في الحياة الدنيا ، فإنّ العطاء الإلهي في الدنيا لا ديمومة له ولا استمرار ، بخلافه في الآخرة فهو دائم لا يزول ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ، ومن أدرك حقيقة عالم الآخرة فقد أدرك حقيقة الحياة ، وفهم أنّ ما يطمح في الوصول إليه من كمال وجمال وتفوق لا يتحقّق إلا في الآخرة ، كما أشار إليه الحديث القدسي : «وَوَضَعْتُ الرَّاحَةَ فِي الْجَنَّةِ وَالنَّاسُ يَطْلُبُونَهَا فِي الدُّنْيَا فَلَا يَجِدُونَهَا»<sup>(٣)</sup> ، تعبير غاية في الجمال يؤكّد فيه الحقّ تعالى أنّ ما يسعى إليه الإنسان من الالتذاذ والتمنّع بالنعم لا يتحقّق بشكل تامّ وكامل إلا في عالم الآخرة ، إلا أنّ الإنسان لنقص معرفته وانغماسه في المادّة يتصوّر بمحدوديّته أنّ ما يسعى إليه من لذة في الحياة الدنيا يمثل كمالاً تاماً ، وذلك وهم كبير ؛ لأنّ الكمال التام الذي لا يشوبه نقص ولا انقطاع ولا مينة يتحقّق في عالم الآخرة .

(١) تحف العقول : ٩١ .

(٢) العنكبوت ٢٩ : ٦٤ .

(٣) مشكاة الأنوار : ٥٦٥ .

وعن الإمام الصادق عليه السلام: « لَا تَتَمَنَّوْا الْمُسْتَحِيلَ . قَالُوا : وَمَنْ يَتَمَنَّى الْمُسْتَحِيلَ ؟  
فَقَالَ : أَنْتُمْ ، أَلَسْتُمْ تَمَنَّوْنَ الرَّاحَةَ فِي الدُّنْيَا ؟  
قَالُوا : بَلَى .

فَقَالَ : الرَّاحَةُ لِلْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا مُسْتَحِيلَةٌ»<sup>(١)</sup> . قال تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ .

---

(١) بحار الأنوار: ٧٨ : ١٩٦ .

# سُورَةُ الشَّمْسِ

## الْقَدْرَةُ

### الهدف من القسم:

السورة بالرغم من أنها من قصار السور إلا أنها تحتوي على أحد عشر قَسَمًا<sup>(١)</sup>، والعبء عندما يُقسم بالله في الدعاوى فهو يريد أن يثبت بقسمه أمرين:

**الأول:** أن المُقسم به عظيم.

**الثاني:** إثبات الصدق فيما يدّعيه، وأنه واقع لا مِرية فيه.

أما الله تعالى فإنه يُقسم بهذه الأقسام المتعددة لأمرين:

**الأول:** تبيان أن ما يُقسم به عظيم تترتب عليه فوائد لا يعلم مدى تأثيرها

إلا المُقسم بها، وهو الله تعالى.

**الثاني:** بيان أهميّة ما يترتب على القسم من أمرٍ في غاية الأهميّة، والمراد به

---

(١) القسم - بالتحريك -: هو اليمين، وأقسمت أي حلفت، وهو من القسامة. (الصحاح للجوهري: ٥: ٢٠١).

والقسم هو الحلف بالله تعالى، هذا هو المصدر الحقيقي، وأما القسم فهو اسم أقيم

مقام المصدر. تاج العروس: ١٧: ٥٩٦.

هنا قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١).

## العلاقة بين القَسَم والفلاح

بيّن الله تعالى بعد الأقسام أنّ الفلاح يترتب على تزكية الإنسان نفسه، أي أنّ فوز الإنسان ورقيّه ووصوله إلى أعلى مراتب الكمال يترتب على سيره في تزكية نفسه، والملاحظ أنّه بعد توالي الأقسام رتبّ الباري (٢) عليها أنّ فلاح الإنسان لا يتحقّق إلاّ بتزكيته لنفسه (٣)، سواء كان من عامّة الناس (٤) أو متوسطهم، اجتماعياً أو من عظمائهم، الجميع لا يتحقّق فوزه وفلاحه إلاّ بتزكية النفس.

## أقسام الناس عند الإمام عليّ عليه السلام

وكي يتّضح تساوي الجميع أمام قاعدة تزكية النفس لا بدّ من بيان أمر هامّ، هو أنّ الناس على ثلاثة أقسام، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمَتَعَلِّمٌ عَلَيَّ سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاةٍ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجُؤُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ» (٥).

صنّف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الناس إلى ثلاثة:

### الأول: العالم الربّانيّ.

وهو من سار على طريق العلم والتربية الذاتية، ثمّ أصبح من المتّصلين بالله تعالى

(١) الشمس ٩١: ٩ و ١٠.

(٢) الباري اسم من أسماء الذات المقدّسة. تفسير الميزان: ٨: ٣٦٠.

(٣) تزكية النفس هي: التخلّي من الرذائل، وتحليلها بالمكارم والمحسنات. العوائد والفوائد للسيد مصطفى الخميني: ٣٥.

(٤) عامّة الناس هم رعاة الناس وغوغائهم. ديوان الأزرّي الكبير: ٢٧٣.

(٥) نهج البلاغة - خطب الإمام عليّ عليه السلام: ٤: ٣٥.

في حركته وسكونه ، فهو من الخائفين المشفقين من الله ، وعلى هذا فإنه من العاملين بأوامر مولاه ، عالم رباني ، والرباني (١) من بلغ أشد درجات القرب من الله ، حتى تعلو أنوار القدس (٢) سبحات وجهه ، فإن مات بانقضاء أجله كان شهيداً ، وفي حياته يكون بفعاله على الله دليلاً ، ولذلك فإن نومه أفضل من عبادة المؤمن القائم في محرابه؛ لأنه ذو يقين راسخ ، وإيمان صلب ، فإن تكلم تكلم بلسان الله ، وإن نظر نظر بعين الله ، وإذا بطش بطش بيد الله .

قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قول رسول الله ﷺ : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ أَرَصَدَ لِمُحَارَبَتِي ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا » (٣) .

وإذا كان العالم كذلك فهو من عباده الذين اصطفى ، والله سبحانه وتعالى حاضر عنده ، وما ذلك إلا بتزكيته لنفسه وإخضاعها لسلطان عقله ، وإخضاع عقله لمنهج الله ، واتباع سبل رضوانه ، إن السفر الروحي ، وطى المسافات الباطنية ، أقسى وأطول من طى المسافات الحسية ، ولا يكتب للمسافر النجاح إلا بالصبر في سبيل التكامل الروحي والتربية النفسية لذاته ، وتلك هي حقيقة العالم الرباني .

### العالم الرباني في النصوص .

أشاد القرآن الكريم بالعالم الرباني ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٤) ، والمراد من العلماء الوارد في الآية الكريمة هو المتصل

(١) العالم الرباني هو: المتأله العارف بالله . شرح نهج البلاغة : ٤ : ٣٥ .

(٢) بحار الأنوار : ٥١ : ١٥٣ .

(٣) الكافي : ٢ : ٣٥٢ ، الحديث ٧ .

(٤) فاطر ٣٥ : ٢٨ .

بالله ، قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ كَانَ مِنَ اللَّهِ أَخْوَفَ » (١) .

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية : « سُبْحَانَكَ ! عَجَبًا مَنْ عَرَفَكَ كَيْفَ لَا يَخَافُكَ » (٢) .

### علاقة العلم بالعمل .

العلم في حد ذاته لا يكون كفيلاً بتربية الإنسان ، ولا يمكن عن طريق العلم وحده تحقيق الصلة بالله سبحانه ، فضلاً عن تأصيلها وتوطيدها . وقد ذكر القرآن الكريم موارد متعددة لانفصال العلم عن العمل ، من ذلك إبليس الذي هو على علم بربه ومتزامن مع بدء الخليقة ، إلا أن ما لديه من المعرفة والعلم لم يكن له عاصماً من المعصية ، وكذلك بلعم بن باعورا الذي كان في زمن موسى عليه السلام ، وأعطى من العلم ما جعل عنده من الكتبة يكتبون علمه ، إلا أن ذلك العلم لم يكن عاصماً له من المعصية ، ولا طريقاً إلى التواصل مع الله الذي وهبه ذلك العلم ، بل خرج للدعاء على نبي الله موسى ، وقد ورد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام : « أَنَّهُ أُعْطِيَ بِلْعَمِ بْنِ بَاعُورَاءَ الْأَسْمَ الْأَعْظَمَ ، وَكَانَ يَدْعُو بِهِ فَيَسْتَجَابُ لَهُ » (٣) ، فلما هم بالدعاء على نبي الله موسى نُزِعَ الإِسْمُ مِنْ عَلِيٍّ لِسَانِهِ .

### الثاني : المتعلم على سبيل نجاة .

وهو الذي يريد أن يتعلم ويؤكف نفسه ليحصل على الفوز والفلاح ، وهو على سبيل نجاة ، فالتعلم له وقاء من الوقوع في الرذيلة ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) ، أي أن الله تعالى يتكفل بإيصاله

(١) بحار الأنوار : ٦٧ : ٣٩٣ ، الحديث ٦٤ .

(٢) الصحيفة السجادية : دعاؤه عليه السلام في التسبيح لله سبحانه .

(٣) بحار الأنوار : ١٣ : ٣٧٧ ، الحديث ١ .

(٤) العنكبوت ٢٩ : ٦٩ .



إلى شاطئ الأمان وساحل النجاة .

### الثالث : الهمج الرعاع .

وهم الذين لا هدف لهم ولا غاية ، قال فيهم أمير المؤمنين عليه السلام « كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ ، هَمُّهَا عَلْفُهَا »<sup>(١)</sup> ، أي ليس لديه موازين في التفكير ، ولا ضابطة تحكم كلامه أو سلوكه ، وقد تحدّث عنهم أمير المؤمنين عليه السلام بإسهاب ، قال : « وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ<sup>(٢)</sup> ، وصف لهم في غاية الدقّة .

### طريق الفلاح

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾<sup>(٣)</sup> .

نلفت النظر إلى طريق الفلاح<sup>(٤)</sup> الحقيقي لا المتوهّم ، وهو الفلاح الذي لا زوال له ؛ بل له بقاء وديمومة ، ولا يكون إلا بتزكية النفس ؛ ذلك أنّ المكاسب الماديّة في الحياة الدنيا زائلة لا دوام لها ، المال تغنيه النفقه ، ومهما جُمع منه فإنّه إلى زوال وصائر إلى غيرك ، ولا يقي المال الذي يجنيه من مرضٍ يحلّ في جسده ، ولا من الوقوع في الأخطار المهلكة ، بل قد يكون جالباً لها ومورداً لحلولها ، ومع هذا فإنّ ما يعرض على الإنسان في الدنيا من البلاء قصيرٌ مدّته ، أمّا بلاء الآخرة فهو البلاء المقيم وعذابه أشدّ؛ لأنّه من غضب جبار السماوات والأرض ، ولا طريق

(١) نهج البلاغة : ٣ : ٧٢ .

(٢) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام : ٤ : ٣٥ .

(٣) الشمس ٩١ : ٩ .

(٤) الفوز والنجاح والبقاء . الصحاح : ١ : ٣٩٧ .

والفلاح هو الفوز بما يعتبط به ، وفيه صلاح الحال ، والنجاة ، والبقاء في النعيم

والخير . تاج العروس : ٤ : ١٥٨ .

للخلاص منه إلا بالطريق المرسوم من قبل الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾<sup>(١)</sup> فبصقل مرآة النفس يصل العبد إلى معرفة الله، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»<sup>(٢)</sup>، ولا يتحقق له ذلك إلا بالتعرف على النفس بالتزكية، وإذا تعرّف عليها كذلك وصل إلى معرفة ربه، فيوالي الله تعالى، وقد أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، والإطلاق الوارد في الآية المباركة شامل لنفي الخوف عنهم والحزن في الدنيا والآخرة.

### نتائج هامة للقسم في السورة

القسم الذي تكرر في سورة الشمس لأجل تبيان عدّة أمور:

**الأول:** بيان حقيقة ذات أهميّة كبيرة هي أنّ النجاة والفوز يتوقفان على تزكية النفس المشار إليه في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

**الثاني:** أهميّة ذلك الشيء الذي أقسم به، فالباري تعالى أقسم بالشمس والضحي<sup>(٣)</sup>، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، الشمس كوكب مشرق يتوهج، ويكبر الأرض بأكثر من ٧٠٠ مرة، وتتوقف عليه الحياة في دنيا الطبيعة والمادة؛ إذ أنّ الكون يرتبط بالشمس، وحياة الكائنات بأجمعها ترتبط بها، أي أنّ الأشياء على ارتباط وجودي بالشمس لأنها المصدر النابض بالطاقة، ولو أنّ الشمس ابتعدت عن الكرة الأرضية قليلاً لتجمّدت، أو اقتربت قليلاً لأذابت الصلب والحديد، وأحرقت كلّ ذي حياة عليها، وهذا الأمر عامّ لكلّ كواكب المجموعة الشمسية<sup>(٤)</sup>.

(١) شرح أصول الكافي للمازندراني: ٣: ٢٣.

(٢) يونس: ١٠: ٦٢.

(٣) ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، والضحي حين تشرق الشمس. الصحاح: ٦: ٢٤٠٦.

(٤) تتكوّن المجموعة الشمسية من تسعة كواكب. الأقسام في القرآن الكريم للشيخ جعفر

السبحاني: ١٦٨.

## أهمّية الشمس للموجودات

تمدّ الشمس الكائنات بالدفء والحرارة، والإشراق، وعناصر النموّ، والحركة في الكون، ولولا الشمس لما نمت الأشياء، بل أنّ بعض المعادن الأرضيّة لا تتبلور إلاّ في درجة حرارة عالية كالذهب والقصدير، ومستقرّ الشمس في مركز متوسط من الفلك تجعلها تشرق على نصف الكرة الأرضيّة أثناء دورانها حول محورها فيكون نهاراً، والآخر معتماً فيكون ليلاً، ويتعاقب الشروق والغروب ينشأ الليل والنهار، وبغياب القرص الشمسيّ في جهة الغرب يكون بداية شروقه في الطرف الآخر من الأرض.

## هدف القسّم بالشمس

يُقسم الله تعالى بهذه الحقيقة ليلفت انتباه الإنسان إلى ارتباط الأشياء بعضها ببعضها الآخر، فالكون<sup>(١)</sup> بما فيه من حقائق يرتبط بعضها ببعض، وإدراك ذلك يحتاج إلى إمعان وتأمل عميقين.

## أهمّية الضحى في القرآن

قوله تعالى: ﴿وَضُحَاهَا﴾، الضحى لغة: هو إرتفاع الشمس<sup>(٢)</sup> في أوّل النهار، وقيل إنّ الضحى هو كلّ النهار لا جزؤه، وعلى هذا فالضحى إمّا إرتفاع الشمس

» والكواكب التسعة هي: أوارنوس، عطارد، المريخ، المشتري، الزهرة، زحل، الأرض، بلوتو، نبتون.

(١) هو المكان الذي يحتوي على النجوم والكواكب السيّارة وغيرها. روائع نهج البلاغة لجورج جرداق: ٣٩.

(٢) إرتفاع الشمس تقريباً ثلاث ساعات بعد طلوعها، أي قبل الزوال بنصف ساعة. شرائع الإسلام: ١: ٧٨.

أول النهار في وقت كون قرص الشمس ذا وهج<sup>(١)</sup> أحمر يبدأ في الظهور والتجلي شيئاً فشيئاً، ليسفر الضوء عن وجه الشمس بشكل تام، وذلك ما يسمّى بالضحي، وقد أقسم الله تعالى بهذا الوقت لأهميته، وجاء القسم به صريحاً في أول آية من سورة الضحى قال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ \* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾<sup>(٢)</sup>، وبالرجوع إلى سورة الشمس نجد أنّ الله تعالى أقسم بالشمس لا مطلقاً، بل في حال ضحوتها بتوهج قرصها بالنور في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾. إذن القسم بحقيقتين متلازمتين هما الشمس والضحي، وهو حال إبلاج<sup>(٣)</sup> قرصها بوهج الضياء ارتفاعاً من قوس المشرق<sup>(٤)</sup> في أفق السماء<sup>(٥)</sup>.

### أهمية الضحي في العلم الحديث

لوقت الضحي أهمية من حيث صفائه في الزمانين الهامين في حياتنا، وهما الشتاء والصيف، فيتوق الإنسان في الشتاء إلى وقت الضحي؛ لأن فيه تكسر قسوة البرد بدفئ شعاع الشمس، مكسوة بجمال المنظر، وأما في الصيف فلا يخلو التعرض لأشعة الشمس من فائدة، لها أثرها العام في حياة الإنسان، كما مداده بفيتامين (هـ) الذي يصنعه الجلد بمساعدة أشعة الشمس لمنع إصابة الجلد بالأمراض الجلدية المتنوعة و(د)<sup>(٦)</sup> المساعد لمنع حصول ظاهرة الكساح لديه، أو علاجها والحد من تأثيرها، وقد أشار الأطباء إلى انتشار ما يسمّى

(١) الوهج - بالتحريك - : حرارة النار. الصحاح : ١ : ٣٤٨ .

(٢) الضحى ٩٣ : ١ و ٢ .

(٣) البلوج : الإشراق ، وتقول : بلج الصبح أي أضاء . الصحاح : ١ : ٣٠٠ .

(٤) ناحية المشرق .

(٥) الأفق : مفرد أفاق ، والأفاق هي النواحي . الصحاح : ٤ : ١٤٤٦ .

(٦) فيتامين موجود في اللبن . الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ٨ : ٢٣٥ .

بمرض ترقق العظام أو هشاشة العظام في العالم ، خصوصاً في المناطق الجليدية التي لا تشرق عليها الشمس إلا في أوقات قليلة من أيام السنة -كسيبيريا والقطب المتجمد الجنوبي والشمالي- فإنَّ سكّان تلك الأماكن أكثر عرضة للإصابة بهذا المرض الذي تفقد فيه العظام نسبة كبيرة جداً من الكالسيوم ، ولهذا يرى الأطباء وضع بعض المصادر الضوئية لكي يتعرّض لها سكّان تلك المنطقة للتقليل من الإصابة بهذا المرض العضال ، كذلك المناطق التي لا يتعرّض سكانها للشمس تفادياً من حرارتها -كمناطق الشرق الأوسط ، أو المناطق الاستوائية كالسودان- والمناطق التي لا يتعرّض أهلها إلى الشمس لضعف أجسامهم على تحمل حرارتها ، وإن كانت قليلة -كألبانيا- لذلك لا بدّ من التعرّض لأشعة الشمس في كلّ يوم على الأقلّ لمدة خمسة عشر دقيقة .

### وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾

#### ارتباط الشمس بتزكية النفس

حينما أقسم الله تعالى بالشمس ، الكوكب العظيم الذي خلقه ، وقدره في مسار له نظام دقيق تستفيد منه الأرض وسائر الكواكب السيّارة<sup>(١)</sup> وغيرها من الكويكبات<sup>(٢)</sup> المتناثرة في الكون<sup>(٣)</sup> الفسيح بكلّ ما فيها من كائنات ، أقسم الله تعالى بهذا المظهر الكوني المتجلّي أمام أبصار الناظرين ليلفت انتباههم إلى أنّ نموّ الأشياء وحركتها يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ودقيقاً ، كذلك فإنّ نموّ

(١) الكواكب السيّارة وهي الكواكب المتحرّكة ، وهي سبعة . تفسير الرازي : ٢٥ : ١٥٧ .

(٢) هي الكواكب الصغيرة في فلك الثوابت . مصباح الأنس بين المعقول والمشهود لمحمّد بن حمزة الفناري : ٢٢٨ .

(٣) هو العالم الكبير . الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل : ٤ : ٢٣٢ .

الملكات<sup>(١)</sup> المترتب عليها خيرات النفس الإنسانية يرتبط ارتباطاً دقيقاً بتزكية الإنسان لنفسه، أي كما أنّ الأشياء يتأثر بعضها ببعض في حركة دائبة ومستمرة، وبعض أنماط وأنواع الحركة نحسّ بها وندركها، وبعضها الآخر لا ندركه، بل نجهله، كذلك الأمر في رقيّ النفس الإنسانية، وكمالات الإنسان ترتبط بتزكية الإنسان لنفسه، غاية الأمر أنّ بعض الأشياء يمكن إدراكها إذا بدأ الإنسان بتزكية نفسه، وحاسبها على كلّ عمل صدر منها ستظهر له بعض الحقائق عياناً ليدركها بعين بصيرته، وإن لم يدركها ببصره سيدركها بوضوح، إلا أنّ بعضها يبقى في حال خفاء وعدم قدرة على إدراكها إلا بدرجات عالية من الصفاء، والبعض الآخر جلاؤه مرهون بحلول يوم القيامة ليتحقّق شرط الرؤية والإدراك.

إذن أقسم الله تعالى بالشمس لما يترتب عليها من فوائد منوطة بوجودها، كما يترتب على تزكية النفس من فوائد في الرقيّ بصاحبها في مقام إنسانيته نحو مقام الإنسانية الكاملة<sup>(٢)</sup> اللائقة بمقام العبوديّة للحقّ المتعال، وبذلك يكون الفلاح والنجاح في الكون.

### تفسير الشمس بالنبي ﷺ

ورد في الأثر عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تفسير الشمس بالرسول ﷺ، وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾، فقال عليه السلام: «الشمس رسول الله ﷺ به أوضح الله عزّ وجلّ للناس دينهم»<sup>(٣)</sup>، والرواية وغيرها

(١) الملكات هي: ما يكتسب في الحياة الدنيا عن طريق الطاعة والمعصية. الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني: ٢٩٥.

(٢) هي التي جميع ملاكاتها حاصلة لها بالفعل. عوالي اللئالي لابن أبي جمهور الأحسائي: ٥٣: ١.

(٣) تفسير نور الثقلين للشيخ الحويزي: ٥: ٥٨٥.

من الروايات الواردة عنهم عليهم السلام تشير إلى أمر بالغ الأهمية في أن مظاهر الكون تنقسم إلى قسمين :

**الأول:** مظاهر ماديّة من أمثال الحركة الكونيّة<sup>(١)</sup> كالحركة الكوكبيّة<sup>(٢)</sup>، وحركة الموجودات في عالم الطبيعة بما يتناسب مع ما عليه في عالمه .

**الثاني:** مظاهر معنويّة كحركة النفس في سيرها التكاملية نحو مقامات وجوديّة أعلى ، والسير القربيّ نحو فيض الوجود للتخلّص من عوالم عالم المادّة ، وكما أنّ الشمس الطبيعيّة من المظاهر الماديّة تنير عالم المادّة بأشعتها ، وتمحو حوالمك الظلمة بنورها ، كذلك الرسول صلى الله عليه وآله هو شمس ينير عالم المعنى<sup>(٣)</sup> بما جاء به من عند الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿الرَّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾<sup>(٤)</sup> . إذن الرسول شمس ينير ظلمات الجهل بنور العلم ومعرفة الحقيقة .

### الأبحاث العلميّة في الآية

لا بدّ لإتمام الفائدة من التنبيه على أمر نصل من خلاله إلى النتيجة المرجوّة من البحث هو أنّ المطلب على ارتباط وثيق بأمرين : أحدهما فقهيّ والآخر عقديّ .

(١) الحركة الكونيّة: هي القدرة . تذكرة أولى الألباب للشيخ داوود الأنطاكيّ : ٣ : ١٨٦ . وقد تطلق ويراد بها الحركة المنسوبة للكون ، وهو الفضاء الخارجي بما له من كواكب ومجرّات وأسدمة وغيرها .

(٢) هي الحركة المنسوبة إلى الكواكب السابحة في الكون الواسع .

(٣) عالم المعنى هو العالم المنقسم إلى عالم الربويّة وعالم العقول . الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة : ٤ : ٣٠٨ .

(٤) إبراهيم ١٤ : ١ .

## الأول: القَسَمُ بغيرِ اللهِ عقدياً

أقسم الله تعالى بالشمس والضحي والقمر والليل والعصر وكثير من الأمور المذكورة في القرآن الكريم ، والقسم الإلهي بالأشياء التي هي في حقيقتها من جملة مخلوقاته ، هل يكون دليلاً على جواز القسم بها من قبل مَنْ هم في مقام العبودية لذاته المقدسة ؟!

توهم فريق من المسلمين أنّ الله تعالى له أن يُقسم بما يشاء من عباده ، أمّا العباد فلا يجوز لهم القسم بغير ذاته ، والصحيح من الاعتقاد هو جواز القسم بغير الله كالكعبة والقرآن والمسجد ، بل بكلّ ما هو عظيم ومقدس؛ إذ لا مندوحة<sup>(١)</sup> من القسم بها إجلالاً لها وبياناً لعظمتها ، أمّا من الناحية الشرعية فإنّ القسم بالله تعالى يلزم على المقسم الالتزام بما أقسم به ، والقسم بغيره وإن كان جائزاً في ذاته ، إلاّ أنّه لا يجب على المُقسم الوفاء بما أقسم به ، وعليه لا يتّجه المحذور المتوهم من قبل بعضهم من عدم جواز القسم بغير الله ، فليس كلّ مُقسم به معبود ، وتختلف الغاية من القسم تبعاً لمقام المُقسم به ، فكلّ ما كان المُقسم به مقدّس ومحترم وعظيم في نظر المُقسم - وهو غير الباري تعالى - كان القسم لبيان شأن المُقسم به لا عبادته ، كما قد يتوهم .

## الثاني: القسم بغيرِ اللهِ فقهيّاً

قسّم فقهاؤنا الإمامية<sup>(٢)</sup> القسم بغير الله تعالى على قسمين :

**الأول:** القَسَمُ بغيرِ اللهِ في باب الخصومة والمرافعة<sup>(٣)</sup> المختصّ باب القضاء ،

(١) مذهب أو مسلك . لسان العرب : ٢ : ١٧٠ .

(٢) المتمسكين بأقوال الأئمة المعصومين عليهم السلام في القول والعمل . منتهى المطلب : ١ : ٧ .

(٣) القضاء في الفقه الإسلاميّ للسيد كاظم الحائريّ : ٦٣٠ .



والقسم فيه بغير الله لا يجوز، وعلى فرض حدوثه فلا تثبت الدعوى بحال من الأحوال؛ إذ أن القاعدة الفقهية المعمول بها في باب القضاء في مقام المرافعة أن البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر<sup>(١)</sup>، ورغم ثبوت اليمين على المنكر لدرء دعوى المدّعي إلا أنّهم لا يجيزون اليمين بغير الله، بل ذهب بعض إلى عدم صدق اليمين إذا كان بغير الله، ولا بدّ من التلّفظ في مقام اليمين باللفظ الصريح الدالّ على الذات المقدّسة<sup>(٢)</sup>، كقوله: بالله ووالله وتالله.

**الثاني:** القَسَم بغير الله في غير باب القضاء كالقَسَم في الأمور العامّة وهذا جائز؛ لأنّه لبيان عظمة المُقَسَم به عند المُقسِم، وأمّا ما ذهب إليه بعض المسلمين من جعل القسم بغير الله مطلقاً ضرباً من ضروب الشرك، فهو توهم محض لا دليل يدعمه؛ لأنّ القسم في حقيقته ليس نقل من مقام العبوديّة لمقام الألوهيّة حتّى

(١) محمّد بن عليّ بن الحسين، قال: «قال رسول الله ﷺ: البيّنة على المدّعي، واليمين على المدّعي عليه، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحلّ حراماً، أو حرّم حلالاً». وسائل الشيعة: ١٨: ٤٤٣، الباب ٣ من أبواب الدين والقرض، الحديث ٢.

محمّد بن يعقوب، عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن حماد، عن الحلبيّ، عن جميل. وهشام عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: البيّنة على من ادّعى، واليمين على من ادّعى عليه». وسائل الشيعة: ٢٧: ٢٣٣، الباب ٣ من أبواب كيفية الحكم، الحديث ١.

وعن أبي عليّ الأشعريّ، عن محمّد بن عبد الجبار، عن صفوان بن يحيى، عن عبد الله ابن بكير، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ الله حكّم في دماءكم بغير ما حكّم به في أموالكم، حكّم في أموالكم أنّ البيّنة على المدّعي، واليمين على المدّعي عليه، وحكّم في دماءكم أنّ البيّنة على من ادّعى عليه، واليمين على من ادّعى، لئلا يبطل دم امرئ مسلم». وسائل الشيعة: ٢٧: ٢٣٤، الباب ٣ من أبواب كيفية الحكم، الحديث ٣.

(٢) لأنّ اليمين بغير الله، وبغير صفة من صفات الذات، لا يصحّ. المبسوط: ٧: ٢٣٧.

يتحقق عنوان الشرك بهذا النقل ، بل القسم في بعض حالاته يمثل أعلى درجات الاعتبار من القداسة والطهارة وغيرها من الاعتبارات عند المُقسِم ، وما ذلك إلا لبيان هذا الاعتبار لا أكثر من ذلك .

### الدليل على القسم بغير الله

إنَّ القَسَمَ بغير الله ليس من الشرك في شيء ، والدليل على مشروعيته هو حصول القَسَم في القرآن الكريم بكثير من المخلوقات<sup>(١)</sup> مع عدم ذهاب أحد إلى القول بتأليها أو إخراجها عن مقام العبودية إلى غيره .

يقسم الله تعالى بأقسام متعددة في كتابه ليبين أهمية الفلاح والنجاح في الحياة وما يترتب عليهما من أثر ، وكذلك الفلاح والنجاح المترتب على تزكية النفس .

### الجانب الأخلاقي في القسم

إذن القسم بالله وبغيره جائز ، ومع ذلك لا ينبغي للإنسان أن يُقسم بالله تعالى في كلِّ حال وكلِّ وقت ، بل عليه أن يُنزَّهه عن القسم به ، ولا يرتبط ذلك بالشرك ، ولهذا فإنَّ القَسَمَ بغير الله - كالمعصوم والقرآن والرسول - في الأمور العادية أفضل من القَسَم بالله ؛ لأنه ينبغي تنزيه لفظ الجلالة عن مقام اللغو<sup>(٢)</sup> .

وعلى كلِّ حال ، فقد تلخَّص ممَّا سبق أنَّ القَسَمَ بغيره تعالى لا يجوز في باب القضاء لرفع الخصومة ، وفكِّ النزاع بين المتخاصمين ، ولا يمكن إثبات دعوى

(١) كالشمس ، والقمر ، والضحى ، والفجر ، والطور - اسم للسجبل الذي كلَّم الله عليه نبيّه موسى بن عمران فسَمِّي الكليم - والسماء ، والطارق ، والليلال العشر ، والشفع والوتر ، وغيرها من الأقسام المليئ بها القرآن الكريم .

(٢) اللغو في الإيمان : ما لا يعقد القلب عليه . الصحاح : ٦ : ٢٤٨ .

المدّعي إلا بالبيّنة ، ولا درء<sup>(١)</sup> الدعوى إلا باليمين ، ولا يكون ذلك إلا بلفظ الجلالة صريحاً ، أمّا في الأمور العامّة فلا ضير ولا حرج في القسّم بغير الله بقصد إظهار الشأن والمنزلة ، وتنزيهاً للفظ الجلالة من اللغو ، وعلى هذا جمهور العلماء<sup>(٢)</sup> .

## وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَاهَا ﴿٣﴾

### معنى كون القمر تالياً للشمس

للمفسّرين فيه وجهان :

**الأوّل :** أنّ القسم بالقمر<sup>(٣)</sup> هنا هو بالبدء بتمامه واكتماله بدرأ<sup>(٤)</sup> في الليلة الرابعة عشر؛ لأنّ نوره وإضاءته يشبه الشمس ، فيكون القمر تالياً للشمس في مشابهيته .

**الثاني :** أنّ المعنى المراد من الآية هو أنّ القمر من الأجرام السماويّة المعتمدة ، ويستمدّ ضوءه من الشمس بالانعكاس ، فيكون القمر تالياً للشمس من ناحية الإشراق ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحْوَنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾<sup>(٥)</sup> ، وهي من الحقائق العلميّة<sup>(٦)</sup> التي لا يمكن إنكارها .

(١) الدرء : الدفع . الصحاح : ١ : ٤٨ .

(٢) جميع العلماء .

(٣) من الكواكب المعتمدة العاكسة لضوء الشمس ، والأصغر حجماً من الأرض ، ويعتبر تابع للأرض ، وله تأثير على حالة المدّ والجزر .

(٤) هو القمر ليلة البدر ، وهي أربع عشر ، وسمّي بذلك لأنّه يبادر بالطلوع عند غروب الشمس لأنّهما يترافقان في الأفق صباحاً . كتاب العين : ٨ : ٣٤ .

(٥) الإسراء ١٧ : ١٢ .

(٦) هي الحقائق القائمة على المشاهدة والتجربة .

## فوائد القمر

القمر من الموجودات الكونية<sup>(١)</sup> التي تستمدّ نورها من الشمس ، وتتجلّى أهمّيّته في حصول ظاهرتي المدّ والجزر في البحار والمحيطات ، وغيرها الكثير من الفوائد ، التي تعود فائدتها للبحار والإنسان ، وهي مذكورة في الموسوعات العلميّة .

أمّا الفوائد المعنويّة فإنّ القمر له درجة من الإلهام الروحيّ والصفاء ، وقد تاه فيه العرفاء<sup>(٢)</sup> بالسمر معه في أيام رياضاتهم ومناجاتهم ، وجال فيه فكر الفلاسفة ، وهام بسحره الشعراء ، فارتشفوا من عذب صابته حتّى الثمالة<sup>(٣)</sup> ، وشاطر القديسين<sup>(٤)</sup> في ليالي عروجهم إلى بارئهم ، بالارتشاف<sup>(٥)</sup> من معين فيضه ، وعميم لطفه ، وشآبيب<sup>(٦)</sup> رحمته ، فأصبح القمر مصدر إلهام المبدعين ، ويتّسم به أهل الجمال الفاتنين ؛ إذ يتّسم بالهدوء متلألئاً في سباحات ليل<sup>(٧)</sup> بهيم<sup>(٨)</sup> ، حيث الخلوة<sup>(٩)</sup> والوحدة ، لا صديق يحدث ، ولا صاحبة تؤنس ، فلا بدّ من اللجوء إلى صرح

(١) كلّ ما هو موجود في حيز الكون .

(٢) العارف من له درجة من المعرفة بالله ، وعلم العرفان موضوعه الله سبحانه وتعالى وحده . تسديد الأصول للشيخ محمّد المؤمن القسّميّ : ١ : ٩ . وقد ينسب العرفان لطائفة من الصوفيّين في المدرسة الإسلاميّة .

(٣) الجلدة التي تعلقو اللبّن . لسان العرب : ٦ : ٢٩٤ .

(٤) جمع قديس ، وهو عند النصارى بمنزلة الوليّ عند المسلمين . معجم لغة الفقهاء لمحمّد قلعيّ : ٣٥٩ .

(٥) العب . تاج العروس : ٦ : ٢٣٧ .

(٦) شآبيب الشيء هو أوّل ما يظهر من حسنه في عين الناظر إليه . لسان العرب : ١ : ٤٨٠ .

(٧) درجاته وأطواره . شرح نهج البلاغة : ٢ : ٤٦ .

(٨) ليل بهيم : لا ضوء فيه إلى الصباح . كتاب العين : ٤ : ٦٢ .

(٩) العزلة .

العاشقين ، وكهف الخائفين ، وملاذ الهاربين ، فيخلو العبد برّبه مناجياً له ليأنس به ، فيسمع ردّ الحبيب يصقل صفائح قلبه فيخشع له ، فيفيض دمع الرجاء على الوجن العفير ، فيكون مصدر إلهام السالكين ، ولطالما كان مصدر إلهام الشعراء والأدباء ، لذلك نرى قصائدهم تفيض بالتعابير عنه والتغزل فيه .

### تفسير القمر في الروايات :

تشير الروايات إلى ما يسمّيه السيّد الطباطبائي في تفسيره بالجري<sup>(١)</sup> ، وهو نحو من تطبيق آي القرآن على بعض المظاهر المعنوية ، لكون القرآن له معانٍ متعدّدة ، بعضها ظاهر وبعضها باطن ، وقد ذكرنا آنفاً تطبيقاً وجرياً في قوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ، حيث فسّرت الروايات الشمس بالنبيّ ﷺ في إشراقها ، وكذلك فيما يترتّب عليها من الفوائد التي لا عدّ لها ولا حصر ، أمّا القمر في قوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ ، فقد فسّر بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ ، قال : «ذلك أمير المؤمنين عليه السلام تلا رسول الله ﷺ ، ونفثه رسول الله ﷺ بالعلم نفثاً»<sup>(٢)</sup> ، وهو تفسير تطبيقيّ يشير إلى الناحية المعنوية ، أي كما تترتّب فوائد كثيرة على شمس الرسول الكريم من الناحية المعنوية بإشراقها ، فإنّ القمر يعقب الشمس في حركته تبعاً لتعاقب الليل والنهار ، والتعاقب بالنور ومحو الظلمة ، وكذلك النبيّ ﷺ هو شمس ، وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى يعقبه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، وقد فسّر القمر به ، وكما أنّ ضوء القمر انعكاس لضوء الشمس في عالم المادّة فإنّ نور الإمامة مقتبس من نور النبوة في عالم المعنى ، وقد أفصح أمير المؤمنين عليه السلام عن هذا الاقتباس بقوله :

(١) تفسير الميزان : ١ : ٤١ .

(٢) تفسير نور الثقلين : ٥ : ٥٨٥ .

«عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ ، يَفْتَحُ كُلُّ بَابٍ أَلْفَ بَابٍ»<sup>(١)</sup> ، أمّا ظاهر الآية فيتناول ما هو قريب التناول بالحس من كون الشمس والقمر آيتين سماويتين متعاقبتين ، أحدهما نهارية والأخرى ليلية ، أمّا تفسيرهما بالنبوة والإمامة فهو تفسير من باب الجري .

## وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا

### فوائد الليل

أقسم تعالى بالليل حين غشيانه<sup>(٢)</sup> لضوء الشمس وسترها خلف حجاب الظلمة ، والليل كغيره من الآيات العظيمة التي لا تخلو من فائدة بلغت السمو والرفعة حيث أقسم بها سبحانه ، وهنا عدة فوائد لليل :

### الأولى : إضفاء التوازن بين الكائنات

الليل من الناحية العلمية ناتج عن دوران الأرض حول نفسها<sup>(٣)</sup> ، وهذا الدوران ينتج تعاقب الليل والنهار ، وهو من الحقائق العلمية الثابتة والمسلم بها . إن إشراق الشمس طوال اليوم قد يؤدي إلى إفقاد الحياة لرونقها ، والإخلال بالتوازن الحيوي داخل الكائنات الحية ، وتعطيل جميع أنظمتها الحيوية والعصبية ؛ لأن الجهاز العصبي يبقى في حالة توتر وتفعل بسبب الأشعة الضوئية<sup>(٤)</sup> التي تصدرها الشمس ، ولهذا من الممكن أن يفقد الكائن الحي القدرة على التركيز والانضباط

(١) بحار الأنوار : ٦٩ : ١٨٣ ، الحديث ١٠ .

(٢) سترها .

(٣) أي حول محورها الوهمي من القطب الشمالي إلى الجنوبي .

(٤) الناتجة من أشعة الشمس .

الحركي<sup>(١)</sup> إذا بقي لأيام تحت تأثير الضوء ، فينتهي به الحال إلى الانهيار العصبي أو الموت المحتم ، ولا يقتصر هذا الأمر على الإنسان أو الحيوان ، بل يشمل كذلك النبات ، فإنه إذا تعرّض للضوء لفترات طويلة يفقد القدرة على الاسترخاء ، ولهذا لا يكون قادراً على عملية التمثيل الضوئي ، فيذبل وينتهي به الحال إلى الموت ، وعلى ضوء ذلك فإنّ الإشراق المستمرّ للشمس يؤدي إلى إنهاء الحياة على أي كوكب فيه حياة ، أمّا إرخاء الليل سدوله على هذه البسيطة فإنه يجعل الجهاز العصبي يسترخي لينعم بقسط من الراحة بعد جهد طويلة النهار ، وهذا ما يعيد التوازن الحيوي لدى الكائنات الحيّة ، وقد بيّن الله سبحانه ذلك بقوله : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾<sup>(٢)</sup> .  
وقوله : ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾<sup>(٣)</sup> .

### الثانية: الليل معنوي إلى الله

أمّا فوائد الليل المعنوية فلا يمكن إحصاؤها فضلاً عن استقصائها ، فعباد الرحمن إذا جنّ عليهم الليل اتّخذوه جملاً يرتحلون به إلى لقاء المقصد الأقدس ، وقد ورد في آي الذكر الحكيم قوله تعالى : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾<sup>(٤)</sup> ، ولشدة حبّ الله تعالى لنبيه ﷺ أوجب عليه نافلة الليل<sup>(٥)</sup> ليخلو به عن كلّ حبيب ، قال تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾<sup>(٦)</sup> ،

(١) الأثزان الحركي .

(٢) النبأ ٧٨ : ١٠ و ١١ .

(٣) الأنعام ٦ : ٩٦ .

(٤) المزمّل ٧٣ : ٦ .

(٥) وتتألف من إحدى عشرة ركعة بشفعها وترها .

(٦) الإسراء ١٧ : ٧٩ .

أي أن الوصول إلى المقام المحمود مترتب على القيام في دلج الليل<sup>(١)</sup> بالتهجد<sup>(٢)</sup>.

### سبب ذكر الليل للعروج المعنوي

وقد ذكر الله سبحانه الليل دون النهار؛ لأنَّ الليل وقت الراحة والخلوة، والقائم في سواد الليل متهجداً قد أثر الخلوة بالمعبود على الخلوة بالعبد، وجعل مصدر راحته مناجاته في غفلة من الناس إذ يناجيه والناس نيام، لهذا ورد الأمر الإلهي لنبيه الكريم بالتهجد والاستغفار بالليل وترك النوم والخلوة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ \* قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا \* نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا \* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾<sup>(٣)</sup>. إذن قيام الليل يترتب عليه فوائد كثيرة وعظيمة من الناحية المعنوية، والخلوة لا تتحقق إلا إذا جنَّ الليل<sup>(٤)</sup> وخلد الناس إلى الراحة بعد تعب ونصب شديدين في النهار الذي جعله الله للناس معاشاً.

### الليل في شهر رمضان

التقرب إلى الله تعالى والتوحد به في غفلة من الخلق لا يتسنى إلا في الليل إذا أسحر، وعلى نحو خاص في شهر رمضان، وهو شهر التهجد والقيام والدعاء والإنابة<sup>(٥)</sup> إلى الله، والتهيؤ لخدمته تعالى بالإزدلاف إليه، وطول المكث بين يديه،

(١) شديدة الظلمة. لسان العرب: ٦: ١٧٦.

(٢) التهجد: قيام الليل. وقد جاء في رواية في تفسير الدر المنثور أنَّ النبي ﷺ قال: إنَّ آخر الليل في التهجد أحب إليَّ من أوله؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ - الذاريات ٥١: ١٨ - الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٧: ٨١.

(٣) المزمِّل ٧٣: ١ - ٤.

(٤) أظلم. القاموس الفقهي: ٦٨.

(٥) التوبة التي يجدها مرة بعد مرة. التبيان في تفسير القرآن: ٨: ٢٤٨.



طارقاً بابه ، وراجياً جنابه ، وخائفاً من عقابه ، وطامعاً في ثوابه ، وقد أمر الله نبيه الكريم بالقيام بالليل على نحو الوجوب الخاص بمقام نبوته ، قال تعالى : ﴿ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً \* نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً \* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ ، ورغم الوجوب المختص به ﷺ نجد أنه استثنى من الليل القليل منه لخلوده ﷺ إلى الراحة والدعة واستجماع قواه لكي يكون قادراً على الاستمرار بالعبادة والخدمة لمقام الربوبية .

### ظاهرة تعاقب الليل والنهار

القسم بهذه الظاهرة الكونية ﴿ وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ التي ترادف النهار ذكراً في الكتاب العزيز إرشاداً لذوي الالباب للتفكير والتدبر في عظيم فوائد هذه الظاهرة؛ إذ التعاقب بين ظاهرتين دليل على خلق نوع من التوازن الحياتي لدى الكائنات خصوصاً الإنسان ، فإنَّ النهار لمعاشه وابتغاء فضل الله ، والليل للراحة والعبادة واستجماع القوى<sup>(١)</sup> ، وذلك يمثل التوازن الحيوي ، وبهذين القسمين يكون قوام الإنسان واستمراره ، وقد ورد هذا الترافق بينهما في القرآن ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

### ولوج الليل في النهار

وورد ذلك في حالة إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ، ويتجلى هذا الأمر في سورة الحديد ، قال تعالى : ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) تحصيلها .

(٢) يونس ١٠ : ٦٧ .

(٣) الحديد ٥٧ : ٦ .

وقال تعالى في سورة الحج: ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١).

وقال تعالى في سورة فاطر: ﴿يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (٢).

وقال تعالى في سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣).

والإيلاج في جميع هذه الآيات بمعنى واحد هو إدخال النهار برفق في الليل؛ لأن الليل يغشى النهار بإرسال ظلمته شيئاً فشيئاً حتى يصبح التحول الكلي من النهار إلى الليل، أما التغيير الدفعي بينهما فقد يؤدي إلى اختلال نظام الكون والإنسان.

### الأثر الشرعي لتعاقب الليل والنهار

ومن الناحية الشرعية فإن التعاقب بين ظاهرتي الليل والنهار منوط به بعض التكاليف الشرعية، فالتدريج في الانقلاب يساعد المكلف على الامتثال، كما هو الحال في الصوم، أما مع الانقلاب الدفعي فقد لا يتمكن المكلف من الامتثال، كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ (٤)، الفجر بداية الانقلاب من الليل إلى النهار، وفيه يمتزج الوقتان، ولا بد من التيقن من أحدهما

(١) الحج ٢٢: ٦١.

(٢) فاطر ٣٥: ١٣.

(٣) لقمان ٣١: ٢٩.

(٤) البقرة ٢: ١٨٧.

حتى يستطيع المكلف معرفة تكليفه ، إمّا الصوم بالإمساك<sup>(١)</sup> عن كلّ ما هو مفطر أو الاستمرار في تعاطي المفطرات ، ولا يكون ذلك إلّا في حال التدرّج .

### حقيقة القسم الإلهي بالليل

تبيّن من مجمل ما تقدّم أنّ القسم الإلهيّ بهذه الظاهرة يقصد منه إرشاد الأذهان بعد التيقّن من حكمته في صنعه إلى التأمل<sup>(٢)</sup> والتفكير والتدبّر في أسرار هذه الظاهرة والاجتهاد في ذلك ، وأنّ الانتقائيّة من قبله سبحانه هي خير دليل على عظيم خطرها ، وجلالة فوائدها ، وجزيل المنفعة العائدة على المخلوقات بسببها ، والتأمل في كميّة خلقها على هذا النحو من التوجيه الهادي إلى معرفة عظمة بارئها .

### وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾

#### معنى السماء

السماء على حسب ما أورده الثعالبي<sup>(٣)</sup> في فقه اللغة : هو كلّ ما على الإنسان وأظله ، وتبعاً لهذا فإن الوجود الكونيّ بما يحتويه من المجرّات<sup>(٤)</sup> والكواكب<sup>(٥)</sup>

(١) الإمتناع .

(٢) التبصّر . الصحاح : ٢ : ٥٩١ .

(٣) هو العلامة أبو منصور ، عبدالمكّ بن محمّد بن إسماعيل الثعالبيّ الإمام في الأدب والبلاغة واللغة والإنشاء ، ووحيد عصره في هذه الفنون ، له كتب منها : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر طبع مرّات ، وله ديول كالدمية ، والخريدة ، وزينة الدهر ، وغيرها ، وسرّ الأدب وقد طبع ، توفي عام ٤٢٩هـ . شرح إحقاق الحقّ : ٢ : ٢٣٨ .

(٤) هو المكان الذي يحتوي على العديد من الكواكب والكويكبات وآلاف النجوم والأسدمة وغيرها من الأجسام السابحة في الفضاء ، كمجرّة درب التبانة التي فيها نظامنا الشمسيّ .

(٥) كالكواكب التسعة في مجرّة درب التبانة .

والكويكبات<sup>(١)</sup> والأقمار<sup>(٢)</sup> والنجوم<sup>(٣)</sup> والأسدمه<sup>(٤)</sup> والفتات الكوكبي<sup>(٥)</sup> السابح في الفضاء داخل تحت لفظة السماء .

### تكرّر لفظ السماء في القرآن

وقد كرّر الله تعالى قسمه بالسماء ، ويدل ذلك على عظيم القدرة ، واتقان الصنع ، وحكم التدبير ، قال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾<sup>(٦)</sup> . وقال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾<sup>(٧)</sup> . وقال تعالى : ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا \* رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾<sup>(٨)</sup> . وقال تعالى : ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾<sup>(٩)</sup> .

- (١) هي بعض الكواكب الصغيرة التابعة للكواكب الكبيرة ، أو تكون مستقلة أحياناً .
- (٢) وهي أجرام سماوية تابعة للكواكب ، كالقمر بالنسبة للأرض ، وإحدى عشر قمراً تابعين لكوكب المشتري .
- (٣) هي أجرام سماوية متفاوتة في حرارتها ، وتكون على بعد كبير من المجموعة الشمسية ، فمنها النجوم الحمراء وهي من النجوم الحارة ، وبعضها من النجوم الزرقاء وهي من النجوم الباردة ، وفي غالب الأحيان يكون جرم النجم أكبر بكثير من جزم الكواكب في المجموعة الشمسية بما فيها الشمس كالشعري اليمانية . المعجم العلمي البريطاني .
- (٤) الأسدمه تتكوّن عادة من مجموعة هائلة من النجوم مع ما يصاحبها من الغبار الكوني . المعجم العلمي البريطاني .
- (٥) وهو عبارة عن فتات من الصخور الناتج من تصادم وتطاحن بعض الصخور الكونية السابحة في الفضاء . المعجم العلمي البريطاني .
- (٦) سورة ق ٥٠ : ٦ .
- (٧) الذاريات ٥١ : ٤٧ .
- (٨) النازعات ٢٧ : ٢٨ .
- (٩) الغاشية ٨٨ : ١٨ .

## عظمة خلق السماء

من جملة الأمور التي دعا إليها الباري تعالى التدبّر في عظيم خلقه في سمائه ، وما أودعها من جلاله صنعه ، ومنها رفعها بغير عمد ترونها ، وقد استجلى (١) علماء الفلك العديد من دقة الكون وانتظامه ورتابته ؛ لأن الفلك له دورة عظمى وفي داخله دورة المجرات التي منها المجرة المحتوية على الكرة الأرضية ، وهي ما تسمى بدرب التبانة ، وما تحويه من الكواكب الاثني عشر وأقمارها وسحبها وكويكباتها ومذنباتها والأسدم الملونة الكائنة فيها ، والأبعاد الكونية فيما بينها ثابتة غير متغيرة منذ خلقها ، فالافتراب من بعضها قليلاً جداً - ولو بمقدار غير ملحوظ - يؤدي إلى كارثة كونية من التصادمات الكوكبية وتطاحنها وتلاشيها ، وفناء الحياة فيها ، والله تعالى يقسم بالسماء ، والمراد من ذلك إرشاد الأذهان إلى عظيم الصنع وجمال الخلق ، وأن الأرض وما فيها من اتقان الصنع لا يمثل إلا حلقة في فلاة ممّا هو عليه من عظيم الصنع في السماء المترامية الأطراف .

## حقيقة الاسم الموصول في الآية

تحوي الآية المباركة ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ قَسَمِينَ أَحَدَهُمَا يَتَّبِعِ الْآخَرَ :

الأول : القَسَمِ بِالسَّمَاءِ وَمَا تَحْتَوِيهِ .

والثاني : القَسَمِ بِصَانِعِ السَّمَاءِ ، فيكون من القسم بذاته المقدّسة ، إلا أن المفسّرين لهم في ( ما ) الواردة في الآية مذاهب شتى :

أحدها : كون ( ما ) موصولة بمعنى الذي ، أو تكون مؤولة بمصدر ، ويكون المقصود السماء وبنائها ، أي بما تحويه من عجائب الخلق ، أمّا ما ذهب إليه

(١) استظهر .

بعض من استبعاد كونها بمعنى الاسم الموصول؛ إذ لا يعبر عن الذات المقدسة التي هي سيّدة العقلاء، بل خالقتهم بما يعبر به عن غير العاقل، إلا أنّ هذا من البعد بمكان، فإنّ الموصول متضمّن معنى (الذي) وهو يستخدم للعقلاء دون غيرهم.

### استعمال القرآن (ما) الموصولة للعاقل

استخدم القرآن الكريم هذا المعنى كثيراً، قال تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾<sup>(١)</sup>، والملاحظ أنّ (ما) الواردة في الآية من سورة النساء اسم موصول بمعنى الذي، والتعبير الوارد فيها من التعابير المختصّة بالعقلاء دون غيرهم، إلا أنّ موارد استعمال (ما) الموصولة في خصوص العقلاء خلاف ما هو معروف عند أهل اللغة، واستخدامها فيهم لغاية لا ينبغي إغفالها كالألفات إلى معرفة المنعم والخالق أو المبدأ المتعال.

### سبب استعمال (ما) الموصولة للعاقل

الاسم الموصول<sup>(٢)</sup> في الآية دالّ على عظمة الله والتعرّف على وجوده تعالى، ولهذا أقسم بالظواهر الكونيّة لألفات نظر العقلاء كي يجيلوا أذهانهم لمعرفة ما خفي عليهم من عجائب الصنعة وعظمة الخلق، وكذلك أقسم بذاته المقدّسة لإذعان العقول وتوجيهها لمعرفة، وهو جواب القسم في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾<sup>(٣)</sup>، وقسم الباري تعالى بذاته المقدّسة لتوجيه العقول لإستجلاء غوامض المعرفة الحقّة بذاته، وعجز المخلوق عن إدراك كنه مخلوق مثله يدعوه إلى العجز عن بلوغ المعرفة به تعالى، حتّى يرجع نظره حسيراً<sup>(٣)</sup>

(١) النساء ٤: ٣.

(٢) (ما) التي بمعنى الذي، وهو من الأسماء الموصولة.

(٣) كالعبي عن قتادة. والتحقيق أن بصر هذا الناظر بعد الإعياء يرجع إليه بعيداً عن طلبته «

عن بلوغ مرام الكنه<sup>(١)</sup> المقدّس ، فيدرك أنه إنّما يمكن إدراك عظمته عن طريق النظر في عجائب الصنع ولطائف الإبداع في عالم الخلق ، وأنّ إمعان النظر في ما خلق يكشف غياهب الظلمة عن طرق المعرفة بعظمة البارئ تعالى ، كالنظر إلى السماء والأرض ، وغيرهما الكثير ممّا يعجز الحسّ عن إدراكه .

## وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّاها ﴿٦﴾

### معنى الأرض في الآية

القسم بالأرض يشمل البحار والأنهار والجبال والأودية والتراب والحجر والمدر<sup>(٢)</sup> ، وكلّ ما على وجه هذه البسيطة من ثابت ومتحرّك ، فكلّ مفردة من مفردات الأرض يعجز العقل عن إدراك حقيقة الصنع فيها ، وكلّ من النبات والحيوان عالم غير متناهٍ من العجائب ، والعلم الحديث عجز عن الوصول إلى كلّ ما ينبغي الوصول إليه من هذا العالم الساحر في عظمة الإبداع ، وإطلاق العنان للفكر بالتدبّر فيها يكون عن طريق الإيمان بعظمة المبدع الحكيم .

### معاني الطحو في الآية

الطحو والدحو بمعنى واحد ، وهو واقع على معنيين :

#### الأول: الانبساط

أي أنّ الطحو الوارد في الآية الكريمة بمعنى الانبساط ، فإنّ الأرض كانت

» خائباً في بغيته . تفسير مجمع البيان : ١٠ : ٦٧ .

(١) الحقيقة . شرح نهج البلاغة : ٢ : ١١٩ .

(٢) التراب . لسان العرب : ٢ : ٢٢ .

ذات مرتفعات شاهقة ومنخفضات غائرة لا تصلح للسكنى بحال من الأحوال ، فأمر الله سبحانه وتعالى عليها المياه من كل جانب ، ومهد بذلك وعورة الأرض وجعلها صالحة للسكن بقدرته<sup>(١)</sup> .

### الثاني : الابتعاد بشدة

المعنى الثاني أن الطحو هو الابتعاد بشدة ، وتبعاً لهذا المعنى نجد أن الآية تشير إلى حركتين هما : حركة الأرض حول الشمس<sup>(٢)</sup> ، وحركة الأرض حول نفسها ، أو حول محورها الوهمي<sup>(٣)</sup> ، ويلفت البارى تعالى انتباه عباده إلى الآثار الناتجة من هاتين الدورتين من حدوث الليل والنهار والفصول الأربعة<sup>(٤)</sup> .

### أنواع القسم في الآية

ووقوع القسم في الآية على ثلاثة معانٍ :

الأول : بالأرض وما تحويه من المخلوقات .

الثاني : بالطحو ، وهو إما الاستواء والانبساط ، أو الابتعاد بشدة .

الثالث : القسم بذاته المقدسة<sup>(٥)</sup> ؛ بناء على ما تقدّم في اسم الموصول بمعنى

(١) يحتمل هذا الأمر وجهين :

أحدهما : أن يكون المعنى الأرض وطحوها .

والثاني : الأرض وما طحاها وهو الله تبارك وتعالى ، ومعنى طحاها بسطها ، حتى مكّن

التصرّف عليها . تفسير التبيان : ١٠ : ٣٥٨ .

(٢) وهي مرة كل سنة .

(٣) وهي دورة كل يوم ما ينتج عنه تعاقب الليل والنهار .

(٤) الصيف والشتاء والربيع والخريف .

(٥) ذات البارى تعالى .



الذي ، وصحّة إطلاقه على أصحاب العقول ، ولا اختصاص له بغيرها .

### الغاية من الأقسام الثلاثة

والأقسام الثلاثة في الآية لإرشاد العقول إلى عظيم الصنعة واتقان الخلق؛ إذ أنّ تهَيُّو السبيل<sup>(١)</sup> لمعيشة المخلوقات على هذه الأرض إنّما هو رهين بهذا الاستواء بما يتيح للإنسان التنقّل في الأرض وبنائها ، واستمرار العيش على مناكبها<sup>(٢)</sup> ، وأخذ من الاستواء استواء خلقة الإنسان ، فبالنظر إلى ما على هذه الأرض من المخلوقات ، وتبادل العيش فيما بينها ، إنّما هو تفاعل نحو تعمير الأرض دالّ على عجائب قدرة الملك المتعال في جلال خلقه وعظيم صنعته .

### علاقة وجود الإنسان المادّي بالأرض

من الملاحظ أنّ الإنسان قد خلق من أديم الأرض وإليها يعود ، والسير التفاعليّ من قِبل المخلوقات على الأرض يوصل في نهايته إلى الله تعالى ، وهو تبارك تعالى يلفت نظر عباده إلى أنّه جعل الجانِب المادّيّ من المخلوقات من أديم الأرض ، وسوف تصير إليه في يوم من الأيام ، قال تعالى : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال أيضاً : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ \* وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾<sup>(٤)</sup> ، والمراد إرشاد الخلق إلى النظر في مبدأه ومنتهاه ، أي ممّ خلق؟ وإلى أين يصير؟

(١) جمع سبيل ، وهو الطريق .

(٢) يعني أطرافها وفجاجها . تفسير مجاهد بن جبر : ٢ : ٦٨٥ .

(٣) الطارق ٨٦ : ٥ .

(٤) الرحمن ٥٥ : ١٤ و ١٥ .

## علاقة وجود الإنسان المعنوي بالأرض

أما وجود الإنسان المعنوي فقد أشار إليه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، أي أنّ الله تعالى أوجد الإنسان من شيئين: وجود ماديّ راجع إلى الأرض، وآخر معنويّ مُنشأ منه تعالى، وعبر عن هذه النشأة بالنشأة الأخرى، أو بالوجود الآخر الذي هو وجود ملكوتيّ وإلهيّ.

## الوجود الماديّ والمعنويّ للإنسان

أدنى العوالم هو الوجود الماديّ، ولا يدعو إلى الرفعة والسمو والاتّصاف بالمعالي من الفعال؛ إذ ليس من شأن عالم المادّة إلاّ الدنيئ من الأفعال المناسب لردائه وانحطاطه في سلّم العوالم، والوجود الماديّ للإنسان يتمثّل في الجسد الذي يدعو إلى التسافل، أما الوجود الروحانيّ فيدعو إلى التعالي لشرف عالمه ورفعة وجوده بين العوالم، وهو عالم الروح (عالم العقل)<sup>(٣)</sup>، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بالدعوة إلى تزكية النفس للتخلّص من براثن<sup>(٤)</sup> عالم المادّة، والانطلاق إلى عالم التكامل الروحيّ مع الأنبياء والشهداء والصدّيقين وحسن أولئك رفيقاً، في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾، والتزكية التي ارتضاها الله تعالى لعباده توصل

(١) الحجر ١٥: ٢٩. سورة ص ٣٨: ٧٢.

(٢) المؤمنون ٢٣: ١٤.

(٣) قد شبّه النور والظلمة المعنويّين بمخروطين متعاكسين، فقاعدة مخروط النور عند عالم العقل، ورأسه عند عالم المادّة، ومخروط الظلمة رأسه في عالم العقل، وقاعدته عالم المادّة. الحكمة المتعاليّة في الأسفار العقليّة الأربعة: ٢: ٦٥.

(٤) مخالب الأسد. كتاب العين: ٨: ٢٥٣.

إلى غاية الغايات ، وهو الباري تعالى في مقام كماله ، قال تعالى : ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾<sup>(١)</sup> ، ويأتي ذلك نتيجة لقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ، والتركيب في خلق الإنسان المتمثل في ما هو مادّي بحت قد خلق صلصلاً<sup>(٢)</sup> من طين ، وهو طين يابس صلد ، وبين ما هو عالم أرقى من عالم المادّة ، وهو الروح التي هي من روح الباري تعالى ، لطيفة من لطائفه ، قال تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾<sup>(٣)</sup> ، أي أنّ خفاء الكنه<sup>(٤)</sup> والانسجام بين تركيب مزجيّ من عالمين مختلفين حريّ بالتأمّل والتفكّر وإجالة الذهن في عظيم القدرة ، والانتباه من الغفلة للتدبّر في الغاية المرجوة للخلق وفي مصيره ومآله .

### وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾

#### معنى النفس الإنسانيّة

من جملة الأقسام التي أقسم بها تعالى القسم بالنفس الإنسانيّة ، وعند الرجوع إلى القرآن الكريم نجد أنّ النفس الواردة يراد بها معنيين أو ثلاثة معانٍ :

**الأول: الوجود المادّي**<sup>(٥)</sup> المركّب الكثيف<sup>(٦)</sup> ، والنظر في تركيبه ، حيث يتيه العقل في عالم غير متناه من العظمة والإبداع ، وعلم تشريح الأعضاء من العلوم التي تزداد تطوّراً وتجديداً على مرّ الشهور لا السنين ، نتيجة لما يستجدّ من اكتشافات

(١) الشورى ٤٢ : ٥٣ .

(٢) الطين الحرّ خلط بالرمل أو الطين ما لم يجعل خزفاً . ذخيرة المعاد : ١ : ٢٤٥ .

(٣) الإسراء ١٧ : ٨٥ .

(٤) الحقيقة .

(٥) الوجود الجسمانيّ الخارجيّ .

(٦) المكوّن من عناصر .

في عالم الأنسجة والخلايا ، وكلّ جزء من أجزاء الإنسان يدعو إلى الدهشة والانبهار والحيرة ، فإنّ العين البشريّة وكيفيّة تركيبها من الحدقة والبؤبؤ<sup>(١)</sup> ، وكيفيّة مرور الحزم الضوئية<sup>(٢)</sup> من خلاله ، واتّساعه وضيقة نتيجة شدّة وضعف الضوء ، وبعد مرورها من هذا البؤبؤ على شكل مخروط تنعكس من نقطة على العصب البصري<sup>(٣)</sup> ، ممّا يؤدّي ذلك إلى نقل العصب البصريّ هذا على شكل إشارات ضوئية يقوم العقل في القسم الخلفي من الفصّ الدماغيّ الأيمن من قشرته بتفسير ما هو ذلك الشيء الذي أمام الناظر ، كذلك اللمس ، فإنّ أعصاب الحسّ الشجرية (التلامس)<sup>(٤)</sup> توجد في الأدمة الخارجيّة من الجلد التي تقوم بنقل ما تلامسه اليد أو البشرة عموماً على شكل إشارات عصبية إلى الدماغ في مركّب الحسّ من القشرة الدماغية<sup>(٥)</sup> في الجانب الأيسر ، فيصدر الدماغ إشارة سريعة إلى ذلك العضو بالابتعاد عن ذلك المصدر ، وهذه العملية قد تستغرق أقلّ من جزء من ألف جزء من الثانية .

والنطق وكيف يحصل ، فإنّ أدوات النطق هو اللسان المنتهي بلسان المزمار<sup>(٦)</sup> ،

(١) وهي الفتحة التي من خلالها ينفذ الضوء إلى داخل العين . المعجم العلمي البريطانيّ .

(٢) بمرور الحزمة الضوئية يزداد اتّساع بؤبؤ العين .

(٣) هو العصب الذي ينقل المؤثر الضوئيّ إلى مركز الإبصار في المخّ لتشخيصه ، وكذلك إيصال السيّالات العصبية من المخّ إلى العين لعمل ما يلزم تجاه الضوء المتّجه نحو العين . المعجم العلمي البريطانيّ .

(٤) منطقة من أعصاب الحسّ أكثر تواجدها في أطراف الأصابع . المعجم العلمي البريطانيّ .

(٥) هو ما يسمّى بالغشاء السنجابيّ . المعجم العلمي البريطانيّ .

(٦) وهو زائدة عضلية بين المري والقصبة الهوائية ، فعند الشهيق يقوم لسان المزمار بإغلاق فتحة المري ، وعند تناول الطعام وازدراده يقوم لسان المزمار بإغلاق فتحة القصبة الهوائية . المعجم العلمي البريطانيّ .

ثمّ القصبّة الهوائية والحبال الصوتيّة<sup>(١)</sup>، وحين خروج الهواء من الرئتين عبر القصبّة الهوائية تهتزّ هذه الحبال أو أوتار الصوتيّة ممّا يؤدّي إلى حصول صوت بمساعدة اللسان والأسنان يكون مفهوماً.

والأذن وعظيم الصنعة فيها، فهي متكوّنة من صيوان الأذن الخارجي، ثمّ الممرّ الداخلي الذي يكون مليئاً بالشمع، أو ما يسمّى بالعربيّة (الصملاخ)<sup>(٢)</sup>، وهذا الممرّ يؤدّي إلى قناة قبل الوصول إلى الأذن الوسطى يسمّى بقناة (استاكيوس) أو (استاخيو) أو (استاخوس)<sup>(٣)</sup> التي تربط الحلق بالأذن الوسطى، وبعد هذا الممرّ تأتي الأذن الوسطى، ثمّ الأذن الداخليّة التي فيها الطبلة. ومن المعروف أنّ طبلة الأذن لا يمكن أن تسمع إلاّ تردّداً معيّناً من الأصوات، وإذا كان التردّد أقلّ أو أكثر من المقدار التي تتحمّله الأذن فلا يمكن سماعه، كصوت الرعد، فقد يمزّق صوته طبلة الأذن<sup>(٤)</sup>.

وغيرها الكثير الكثير من عجائب الصنع في الإنسان، ولهذا فقد ألّفت فيه العديد من المؤلّفات، ولا زال يؤلّف في الشهر آلاف الكتب، وقد أطلق في كثير من الآيات الواردة في القرآن الكريم النفس على هذا الجسد المادّي كقوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِنَفْسِي بَعِيرٌ نَّفْسِي لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا نُّكْرًا﴾<sup>(٥)</sup>،

(١) هي مجموعة من الزوائد العصبية التي تشكّل اهتزازاتها عند الشهيق والزفير صوت بواسطته يحصل التحدّث.

(٢) وهي المادّة الشمعيّة التي تفرزها غدد خاصّة لتعمل على إلتصاق الأتربة والغبار والحيولة دون دخوله إلى الأذن الوسطى أو الداخليّة. المعجم العلميّ البريطانيّ.

(٣) وتسمّى هذه القناة أيضاً استاكيوس وأستاخيو، وهي ممرّ صغير بين الأذن الوسطى والحلق. المعجم العلميّ البريطانيّ.

(٤) لأنّه ذا تردّدات قويّة لا تتحمّلها الأذن عادة.

(٥) الكهف ١٨ : ٧٤.

والمقصود من القتل الوارد في الآية المباركة هو إيقاع الإهلاك والتلف بوجوده المادّي ولم يلحظ ذلك الوجود المعنويّ أو الروحيّ .

**الثاني:** أن يراد منها الوجود المعنويّ أو الروحيّ للإنسان من غير لحاظ وجوده المادّيّ ، وينبغي الالتفات إلى أنّ الوجود المادّيّ للإنسان الكامل لا يتحقّق إلاّ بعد طيّ مراحل من التخليق على نحو التدرّج ، كما أشار إليه تعالى في قوله : ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾<sup>(١)</sup> ، والمراد من الخلق الآخر هو المغاير تماماً لما كان عليه في بداية نشوئه ، وهذا التدرّج في الخلق نحو الوصول إلى غاية الإنسان الكامل من وجهة النظر الإلهيّة تحتاج إلى صانع مبدع ، ولأجل هذا نجد أنّ الله تعالى ختم الآية الكريمة بالمدح لذاته المقدّسة قال تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾<sup>(٢)</sup> ، فإنّه سبحانه وتعالى حينما تعرّض إلى الجانب الروحيّ للإنسان مع ما يحتويه من عوارض نفسيّة متضاربة من الحبّ والبغض والحسد والشحّ والعشق ، وغيرها من العوارض النفسيّة والخلجات<sup>(٢)</sup> المتنوّعة يريد التنبيه أنّ القيمة الجوهرية للإنسان هي بعالمه الروحيّ لا المادّيّ ، وأنّ التقدّم الحضاريّ الذي قد يصل إليه الإنسان إنّما هو نتاج هذا العالم الذي يحوي من العجب ما لا يُدرّك كنهه ولا يُسبر غوره ، وجميع القيم الحضاريّة التي تسمو بالأمم الإنسانيّة إلى أعلى مراتب التقدّم والتحضّر لا تكون إلاّ بالارتقاء في عالم الإنسان المعنويّ أو الروحيّ ، ولو كان الوجود المادّيّ هو المقياس لكانت الوجودات المادّيّة الأرقى والأعظم من الإنسان والأكثر حضارة ، كالفيل الموجود في القارة الأفريقيّة ، والماموث الموجود في صحاري سيبيريا المتجمّدة في العصور القديمة ، والجمل في شبه الجزيرة العربيّة ، وغيرها الكثير من المخلوقات الضخمة

(١) المؤمنون ٢٣ : ١٤ .

(٢) بعض البواعث النفسيّة . مجلة تراثنا - العدد ٦ : ١٦ .

التي لا يمثّل الإنسان من مجمل وجودها المادّي أكثر من ثلث أو أقل من وزنها، وفي ذلك دليل واضح أنّ رقيّ المجتمعات والإنسان ذاته لا يكون إلاّ بارتقاء الجانب الروحيّ أو المعنويّ.

**الثالث:** أنّ المراد منها ما يشمل لكلا الوجودين المادّيّ والمعنويّ بنوع من التركيب المتناغم والمنسجم الذي لا تضارب فيه، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾، وعلى هذا لا يمكن لحاظ التجزئة، بل لا بدّ من لحاظ التركيب، وإذا لحظ أحدهما دون الآخر لكان جماداً لا حراك له، وهو ما يسمّى عند علماء الفسيولوجيا بالجنّة الهامده، والركون والسكون لحركتها راجع إلى الروح لا إلى الجسد حتّى يناط به الأمر.

### حقيقة الوجود المادّيّ والمعنويّ

حيّر وجود الإنسان بكلا معنويه عقول العلماء الباحثين في الطبّ الروحانيّ<sup>(١)</sup> والطبّ البشريّ الجسمانيّ، فقد ألف الشيخ الرئيس ابن سينا<sup>(٢)</sup> كتاباً في الطبّ الروحانيّ بلغت خمسين كتاباً، وألف الرازيّ ما يقارب مائة وعشرين كتاباً في الطبّ الروحانيّ، وغيرهما كثير، كأبي حامد الغزاليّ صاحب كتاب إحياء علوم الدين، أمّا الطبّ الجسمانيّ فقد ألف ألف الكتب فيه، كالقانون الذي ترجم إلى اللاتينيّة إحدى عشرة مرّة، أمّا في العصر الحديث فإنّ الكتب المؤلّفة

(١) الذي يهتمّ بالسلوك والأخلاق. شرح الأسماء الحسنی: ١: ٦٨.

(٢) هو الحكيم أوحّد الدين عليّ بن إسحاق. الذريعة في مصنّفات الشيعة: ٣: ١١١.

وإذا كان الشيخ المفيد أكبر متكلم للشيعة ظهر في العراق، فإنّ الشيخ الرئيس ابن سينا أكبر فيلسوف إسلاميّ شيعيّ ظهر في المشرق، وهو من الذين دفعوا عجلة الفكر والعلم إلى الأمام خطوات كثيرة، وقد ذاع صيته شرقاً وغرباً، وكتبت عنه دراسات ضافية من المسلمين والمستشرقين. أضواء على عقائد الشيعة الإمامية: ٣٠٣.

تعدّ بمئات الكتب يومياً، تبيّن عظيم الخلقه، وجليل الصنعة لهذا الإنسان، والدعاء الصادر من المؤمن لأخيه المؤمن يؤثر في علاجه أو زيادة التوفيق له، وإن بعد عنه بالمسافة.

### التكامل الإنسانيّ شمولي

لا يتحقّق التكامل الإنسانيّ بالوجود المادّيّ أو المعنويّ كلّ على حدة، بل لا بدّ من ملاحظة كلا الوجودين، والتوافق والانسجام بينهما هو المحرك الرئيس للتكامل الإنسانيّ.

### معنى (ما) في الآية

وقع وقع الخلاف بين المفسّرين في المراد من (ما)، فذهب بعض أنّها مصدرية، ويكون المراد: ونفس وتسويتها، وحينئذٍ ينصب القسم على النفس وتسويتها، أي إنشائها وإحداثها، والمعنى الآخر أن تكون (ما) اسم موصول بمعنى الذي، فيكون معنى القسم بالنفس وبالذات المقدّسة الصانعة لها.

### فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾

### الفرق بين الإلهام والوحي

الإلهام هو تلقّي الحقائق الغيبية أو المعارف المستقبلية مع عدم العلم بالمصدر الملقّي، وهو يغيّر الوحي في ذلك؛ إذ أنّ الوحي هو تلقّي الحقائق الغيبية مع العلم بالمصدر الملقّي.

### حقيقة الإلهام

زوّد الله سبحانه الإنسان بأدوات للمعرفة ووسائط يتنزّل عليه من خلالها الإلهام



كالحواس الخمس<sup>(١)</sup>، ومن المتفق عليه أنها من مصادر المعرفة لدى الإنسان، وكذلك الإلهام المعبر عنه في علم النفس<sup>(٢)</sup> الحديث بالحاسة السادسة<sup>(٣)</sup>، والتي عن طريقها يتنزل الإلهام، وقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ورد إيضاحه في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام بأن الله تعالى قد بين من خلال تشريعه بعض الأحكام والطرق المؤدية إلى الرضوان والمغفرة والخير العميم، وكذلك بين الطرق المؤدية إلى الشر والخسران المبين، وعلى ضوء ذلك يكون المراد من (ألهمها) علمها وهداها سُبُلها بالعقل الذي وهبه الله تعالى للإنسان، وأودع فيه القدرة على التفريق بين الخير والشر.

### الإلهام وتأنيب الضمير

الضمير المودع في باطن الإنسان هو صوت الله، الذي يردعه عن فعل المهلكات المؤدية به إلى طريق الهاوية، وهو صوت مزجر في النفوس التقية المرتوية بنور الإيمان، وتأنيبه حين ارتكاب الذنوب والمعاصي دليل على حرص الله تعالى

(١) السمع والبصر والشم والذوق واللمس.

(٢) هو ذلك العلم الذي يعنى بدراسة سلوك الكائن الحي -بما فيها الإنسان- في الظروف المختلفة، وقد بدأ علم النفس عهده التجريبي في أواخر القرن التاسع عشر على يد فلهم فونت الذي أسس سيكولوجية الاستبطان، والذي حاولت مدرسته إحلال كلمة (شعور) المرادفة للحس في العمليات الشرعية محل كلمة (روح) التي هي إرث ديني غير مدرك، وبعدها تابعت المدارس النفسية، كالمدرسة السلوكية، والتحليل النفسي، وعلم النفس التحليلي، وعلم النفس الفردي، وغيرها من المدارس النفسية التي ركزت على جوانب مختلفة من جوانب النفس الإنسانية والسلوك الإنساني. دراسات في نهج البلاغة: ١٥١.

(٣) هي الحاسة التي يدرك بها ما وراء الحس، كإدراك وجود الله والملائكة، وغيرها من الذوات المتعالية عن الحس. الذريعة: ٢٤: ٢٢٠.

على حماية الإنسان واستقامته ، وأنّ الإقامة على طريق المعاصي تجانب الصواب ، فيكون التنبيه من قبل الله تعالى عن طريق تأنيب الضمير ، وروايات الفريقين متظافرة على إفادة هذا المعنى ، كقوله ﷺ عندما سئل عن البرّ والإثم قال : « البرّ حُسْنُ الخُلُق ، والإثم ما حاك في نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس »<sup>(١)</sup> .

### شذوذ في تفسير الإلهام

ذهب بعض المفسرين من العامة إلى أنّ المقصود بقوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾<sup>(٢)</sup> هو أنّ الله سبحانه أودع في النفس الإنسانية الفجور والتقوى ، ومزج بين متخالفين ، وهذا قول لا صحّة له ، ويخالف مقتضى التحقيق ، ويجانب ما عليه المفسرون من المسلمين ، فإنّ الله سبحانه لم يجعل النفس الإنسانية مركبة من الفجور والتقوى ، بل جعل لها القدرة في التفريق بينهما .

### التفريط والإفراط في فهم الإلهام

والفرق بين المذهبين آنفي الذكر في غاية الوضوح؛ إذ أنّ القول الأوّل هو أنّ الفجور والتقوى من المركبات النفسية الخلقية ، أي أنّ صدور الشرّ من الإنسان ذاتي ، وقد خلق فيه ، وليس له الخيار في تركه أو فعله ، وهو قول يفضي إلى الجبر ، أمّا القول بأنّ الله تعالى قد أودع الإنسان القدرة على التفريق بين الخير والشرّ ، وصدور الشرّ من الإنسان إنّما صدر منه مع علمه بكونه شرّاً ، وقدرته على تركه كقدرته على ارتكابه ، ومع ذلك أقدم عليه ، فيكون إقدامه على الشرّ نابعاً من اختياره لا من الله تعالى ، وهو القول بالاختيار الذي يناقض مذهب الجبر الذي ذهبت إليه بعض

(١) مسند أحمد : ٤ : ١٨٢ .

(٢) عرفها طريقي الخير والشرّ . تفسير السيّد عبد الله شبر : ٥٥٩ .

فارق أهل السنّة من السلفيّة<sup>(١)</sup> وأهل الحديث<sup>(٢)</sup>.

إنّ النفس في مرتبة الإدراك الواعي ، وهي مرتبة الإدراك الفعليّ المحسوس ، تكون مدركة للخير والفجور والتقوى ، واعية لطرق الخير المؤدّية إلى الرشاد والفلاح ، لترتّب ذلك على العقل الواعي .

### حقيقة الفجور في الآية

تعبيرات القرآن الكريم لا يجامعها أي نوع من أنواع العبثيّة ، بل لا بدّ من وجود سبب بالغ الأهميّة في إطلاق بعض التعبيرات ، وهنا لا بدّ من استجلاء السبب في التعبير عن الضلالة بالفجور<sup>(٣)</sup> ، والفجر في اللغة هو الفتق الواسع العريض ، وهو أقلّ رتبة من الانفلاق ، وأعظمه الانبجاس ، أمّا الانفلاق فهو كانفلاق الصبح إذا أفصح عن وجهه بإختراق ستار ظلمة الليل بتغلغل خيوط النور بين سدله ، حتّى يصل إلى رتبة تلاشي وحشة الليل وظلمته إلى نور الصبح وأنسه ، ويعبر عنه قوله تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾<sup>(٤)</sup> ، والتعبير اللغويّ وإن كان فيه نوع من التسامح في مقام الاستعمال ، أمّا تعابير القرآن فقد بلغت من الدقّة حدّاً ليس بعده مطلب ، والانفجار هو خروج الشيء بقوة دفعة واحدة ، ممّا يسبب فجوة واسعة أو شقّاً يصعب رتقه ، أمّا الإيلاج<sup>(٥)</sup> فهو الإدخال برفق شيئاً فشيئاً حتّى يبلغ منتهاه ، وكذلك الفجور هو التجاوز الصارخ لستر التقوى والحياء

(١) هم العاملون بالنصوص المزعوم أنّها من الصدر الأوّل ، وهو عصر حملة الشريعة .

القاموس المحيط : ١ : ٤ .

(٢) المحدثين .

(٣) العهر . كتاب العين : ١ : ١٠٥ .

(٤) الحديد ٥٧ : ٦ .

(٥) هو الإدخال برفق . الكافي في الفقه : ٤٠٨ .

مما يحدث فيها من شقّ يصعب إتّامه .

## إلهام الله التقوى

ألْبَسَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ لِبَاسًا ، وَزَوَّدَهُمْ بِخَيْرِ زَادٍ وَهُوَ التَّقْوَى <sup>(١)</sup> ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ <sup>(٢)</sup> ، وَلِهَذَا فَإِنَّ فِعْلَ الْمَعْصِيَةِ وَارْتِكَابَ الْإِثْمِ يَهْتِكُ سِتَارَ التَّقْوَى الَّذِي أَلْبَسَهُ اللهُ إِيَّاهُ ، وَيُبْدِي بِذَلِكَ الْفِعْلِ عَوْرَتَهُ .  
والتَّقْوَى فِي اللُّغَةِ مِنَ الْوَقَايَةِ ، وَهِيَ الْحِمَايَةُ وَالْإِنْتِقَاءُ مِنْ كُلِّ مَا يَضُرُّ أَوْ يَهْلِكُ .

## الإلهام للفجور والتقوى

وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ هُوَ عَلَّمَهَا ﴿فُجُورَهَا﴾ ، أَيِ الطَّرِيقِ الَّتِي تُوَدِّي إِلَى هَتِكِ الْحِجْبِ السَّاتِرَةِ لِلْإِنْسَانِ ، ﴿وَتَقْوَاهَا﴾ ، أَيِ أَلْهَمَهَا الطَّرِيقَ الَّتِي تُوَدِّي إِلَى السِّتْرِ وَالْوَقَايَةِ مِنَ السَّخَطِ الْإِلَهِيِّ ، وَالْمَتَّقِي هُوَ الْقَادِرُ عَلَى حِمَايَةِ نَفْسِهِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَهْلَكَاتِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، وَمَنْ طَغِيَانِ الشَّرِّ عَلَى سُلُوكِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَوْدَعَ الْعَقْلَ الْقَدْرَةَ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ طَرِيقَيْنِ ، وَجَعَلَ لِلْإِنْسَانِ الْإِخْتِيَارَ أَيَّ الطَّرِيقَيْنِ يَسْلُكُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ <sup>(٣)</sup> ، وَالآيَةُ الْكَرِيمَةُ الْمَتَقَدِّمَةُ قَطَعَتْ الْعُذْرَ عَلَى مَنْ قَالَ بِالْجَبْرِ وَالتَّفْوِيضِ .

## الآية تنفي الجبر في الأفعال

أَمَّا الْقَائِلُونَ بِمَسْلُكِ الْجَبْرِ فِي مَقَامِ الْفِعْلِ ، فَإِنَّ الْفِعْلَ يَنْسَبُ إِلَى الْفَاعِلِ لَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَوَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ بِالْحِكْمَةِ يَنْفِي الْقَوْلَ بِالْجَبْرِ ؛ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ مَبْنِيَّةٌ

(١) خصلة من الطاعة يحترز بها من العقوبة . الفروق اللغوية : ١٣٧ .

(٢) البقرة ٢ : ١٩٧ .

(٣) الإنسان ٧٦ : ٣ .

على القول بالاختيار، وتنزيل العبد منزلة الآلة بجبره على فعل أمر ثم معاقبته عليه مذهب ينافي الإقرار لله بالحكمة. إذن قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ تمهيد لما سيأتي من جواب ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

### قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

قد للتقرير والتوكيد، والفلاح هو الظفر، والتزكية لها معنيان: التطهير والإنماء. والمعنى: أن الفلاح لن يتحقق للإنسان إلا من خلال التزكية والإنماء، بمعنى تهيئة أرضية نفسه، ومن ثم غرس مبادئ الخير والفضيلة في تلك النفس الطاهرة كي تستطيع أن تنمو؛ إذ أن الإنماء دون تهيئة الأرضية يؤدي إلى الفشل والخسران، وتربط الآية المباركة بين المعنيين من خلال التلازم الوثيق بين الطهارة والإنماء. أما قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

﴿قَدْ﴾ ها هنا أيضاً لها نفس المعنى المتقدم، والخيبة هي عدم الظفر والفوز بالمطلوب، فمن سعى ولم يصل إلى مراده فقد خاب سعيه، أما التدسّي فمعناه الإخفاء بإدخال شيء في شيء، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿أَيُّمَسِّكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾<sup>(١)</sup>، ولها معنيان:

**الأول:** هو إدخال النفس في الفجور والطغيان والضلالة.

**والثاني:** هو إنماء النفس وبنائها دون تزكية، بمعنى أن تكون النفس غير تقيّة، وتأتي بالعمل الصالح فلا يؤثر فيها لعدم أهليتها لذلك، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، أي أن البناء والإنماء للنفس

(١) النحل ١٦: ٥٩.

(٢) المائدة ٥: ٢٧.

والحال أنها مغطاة بالأدران والمعاصي لن يؤثر التأثير المرجو، والآية توضّح المعنى المقابل للفلاح بالتزكية، والخسران بالتدسية.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ  
رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمَمَ  
عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

### القصة التاريخية لثمود

تضرب الآيات المذكورة مثلاً واقعياً لأنموذج من الذين كانوا من الخاسرين لعدم تزكيتهم لأنفسهم وتركها العوبة بيد الرغبات والأمانى الكاذبة، والتخيلات المتوهمة، فتأهوا في بحر الغفلة، فأورثهم الندامة والخسران المبين، وذلك يحدث وقع في شبه الجزيرة العربية في القسم الجنوبي الغربي منها، في مدائن صالح عاليها<sup>(١)</sup>، حيث كانت تعيش قبائل قوم ثمود<sup>(٢)</sup>، وكانوا عبدة أوثان من دون الله الواحد القهار، وقد أرسل لهم نبياً عربياً يدعى صالح عاليها، فصدع بدعوة التوحيد، فلقى منهم العنت<sup>(٣)</sup>، والصد عن الذكر، والسخرية، والاستضعاف، والحياد عن

(١) وهي مساكن قوم ثمود المنحوتة في الصخر. أضواء البيان: ٨: ٥٢٥.

(٢) ثمود من أولاد غاثر بن ارم، وكانوا عرباً يتكلمون بهذا اللسان المصري، وكانت العرب تقول لهذه الأمم العرب العاربة، ويقولون لبني إسماعيل العرب المتعربة؛ لأنهم إنما يتكلمون بلسان هذه الأمم حين سكنوا بين أظهرهم، فكانت عاد بهذا الرمل إلى حضرموت، وكانت ثمود بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. الكامل في التاريخ:

١: ٧٩.

(٣) إدخال المشقة على الإنسان. كتاب العين: ٢: ٧٢.

قول الحقّ، ولم يثنه ذلك عن مواصلة الدعوة، وجعلوا تصديقهم بها إتيانهم بمعجزة من قبل إلهه، بأن يخرج لهم ناقة عشراء من الصخر المرمر الصلد، وإذا لم يأت لهم بها فإنهم سيكفرون بدعوته.

فخرج نبيّ الله صالح عليه السلام إلى جبل مشرف على قريتهم، ودعا الله سبحانه أن يخرج من هذه الحجارة الصمّ ما طلبه القوم ليكون حجّة على من كفر منهم بعد ذلك، وسبباً لنزول العذاب الأليم عليهم، فاستجاب الله لدعاء نبيّه، وإذا بصخرة عظيمة قد انفلقت وخرجت ناقة عظيمة عشراء<sup>(١)</sup> بمراى من القوم، فأصابهم العجب ممّا جاء به صالح عليه السلام، وما أن لبثت إلا قليلاً حتّى وضعت مولودها، وجعل صالح شرطاً بينه وبين قومه إن استجاب الله دعاءه، وخرجت الناقة أن يجعلوا لها شرب يوم، ولهم ولأنعامهم شرب يوم آخر، فاتفقوا على هذا الأمر، وأصبحت الناقة تشرب من غدیر الماء بقدر ما يشرب القوم وأنعامهم جميعاً، وتعطي من لبنها ما يزيد عن احتياج هؤلاء القوم، وبقي الحال على هذا حتّى حيكت مؤامرة دبّرت من قبل عليّة القوم بعقرها<sup>(٢)</sup> وفصيلها أثناء شربها من غدیر الماء، وبعثوا إليها أشقى الأولين رجل يقال له: قدار بن سالف من أصحاب القوس البارزين، فصوّب سهمه إلى نحر الناقة وفصيلها<sup>(٣)</sup> فنحرهما، فكان من الخاسرين.

### نهاية قوم ثمود

ولمّا رأى صالح منهم ذلك العمل الشنيع في قتل الناقة وفصيلها أخذ يلوّمهم

(١) هي الناقة التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها، وهي مأخوذة من العشرة. التبيان: ١٠:

.٢٨١

(٢) العقر: الجرح. الصحاح: ٢: ٧٥٣.

(٣) فصيل الشيء: ولده. لسان العرب: ٩: ٢٥٣.

وتوعدهم بعذاب أليم ، لكنهم كذبوه وقالوا : إن كنت صادقاً فأتنا بهذا العذاب الأليم ، وإنا نجدك من الكاذبين ، فأمهلهم ثلاثة أيام يتمتعون في ديارهم ، وسوف يأتيهم بعدها عذاب عظيم ، فأوحى الله إليه أن يخرج قبل انتهاء المدة هو والذين آمنوا معه ، وقد حكى الله سبحانه ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ فَعَقَرُوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرٌ مَّكَذُوبٍ ﴿١﴾ ، وهنا نجد أن الله تعالى قد وعد قوم ثمود بالهلاك الأكيد ، وحدده من قبله سبحانه بثلاثة أيام ، فرجعوا إلى سيرتهم الأولى من عبادة الشهوات ، وارتكاب المعاصي في الخلوات (٢) حتى انقضت المدة وحلَّت النعمة ، وجاءهم من ربهم عذاب أليم بما كانوا يصنعون ، فأصبحوا في ديارهم جائمين (٣) بلا حراك بصيحة من ربك إنَّ وعد ربك غير مكذوب ، ثم أردف سبحانه قائلاً : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ ﴾ كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٤﴾ .

### العبرة في قصة قوم ثمود

جعل الله تعالى القصص القرآني عظة وعبرة للذين آمنوا ، بل هي عبرة لمطلق الإنسان ، وقد وصف الله تعالى الإنسان بأنه كان ظلوماً جهولاً ، باستعلائه عن أمر ربه

(١) هود ١١ : ٦٤ و ٦٥ .

(٢) الوحشة والهم . الصحاح : ٣ : ١٠٢٥ .

(٣) ميتين واقعين على وجوههم ، ويقال : جائمين قاعدين على ركبهم . تفسير مجمع البيان :

٢٩٣ : ٥ .

(٤) هود ١١ : ٦٦ - ٦٨ .



والتمرّد على أنبيائه الذين أرسلهم هداة للناس ، والمتكبر المتعالي المستطيل على عباد الله من الذين قد غلبت عليهم شقوتهم وهم في طريق الضلالة يعمهون لا يبلغون إلى مقصد ، بل ما يطلبونه كسراب يحسبه الضمآن ماء وما هم بباليه .

### عذاب أمة بسبب فرد

قال تعالى في موضع آخر: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، تلك عاقبة الذين أساءوا العمل وتكبروا على عباد الله ، وقد ضرب الله مثلاً في قوم هود ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ .

قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: « وَإِنَّمَا عَاقِرُ نَاقَةِ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ ، فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرَّضَىٰ ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُورَ السَّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ »<sup>(٢)</sup> ، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾<sup>(٣)</sup> ، أي أن قوم نبي الله صالح عليه السلام كذبوه في أمر الناقة فعقروها ، والعقر قطع قوائم الناقة من عرقوبها<sup>(٣)</sup> ، ثم نحروها بعد ذلك فحقت عليهم اللعنة والعذاب ، والطغيان هو المحرك الذي جعل القوم يرتكبون هذا الجرم المشين ، والهلاك يستند إلى الطغيان المتمثل في عقر الناقة ، وقد ذكر الله ذلك في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ \* أَن رَّاهُ اسْتَعْصَمَ﴾<sup>(٤)</sup> .

إن الشكر سبيل نحو الزيادة ، والكفر بالنعمة سبيل نحو نزعها منه ، والله على كل شيء قدير ، ومن ضروب الشكر أن لا يستطيل المرء على عباد الله إذا أعطي ، فمن أعطى قادر على المنع .

(١) الروم ٣٠ : ١٠ .

(٢) نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب : ١٨١ .

(٣) عرقبت الدابة : قطعت عرقوبها . كتاب العين : ٢ : ٢٩٦ .

(٤) العلق ٩٦ : ٦ و ٧ .

وقد ورد في دعاء الامام علي بن الحسين السجاد عليه السلام: «وَلَا تَرْفَعْنِي فِي النَّاسِ دَرَجَةً إِلَّا حَطَّطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا»<sup>(١)</sup>.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»<sup>(٢)</sup>، والتواضع لا يجتمع مع الكبر، ولا بدّ من إشعار النفس بالذلّ أمام الله عزّ وجلّ، والإنسان الشاكر دائم التذكّر عند النعم، ملتفت أنّه مستأمن على ما أنعم الله به عليه فينظر كيف يفعل في أمانته؟!.

### السنة الإلهية تتحقّق مع قوم ثمود

في الختام لا بدّ من الاستعراض السريع لإستلهام ما يمكن إدراكه من ثمين المعاني والدروس المستوحاة من سنة الله في خلقه الواردة في كتابه، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ تبيّن أنّ قوم نبيّ الله صالح عليه السلام لم يؤمنوا حتّى بعد مجيء المعجزة الإلهية المطلوبة من قبلهم، رغم إنذارهم بعدم التعرّض للناقاة بأيّ سوء، إلا أنّهم أقدموا على عصيانه ومخالفته زعماء منهم أنّه من طالبي الرئاسة والوجاهة والسلطان، وأنّ النبوة من قبل الله إنّما هي زعم لا واقع له، وإيهام بغية تخويفهم وصرفهم عمّا هم قائمون عليه من عبادة الأوثان، فأتمروا فيما بينهم، وحيكت حبال الحيل للإيقاع بالناقاة المرسلّة من قبل الله تصديقاً لنبيّه الكريم، والرغبة مضمرة في قلوب القوم بأجمعهم خلا من آمن منهم بصالح عليه السلام، أمّا قدار بن سالف فهو المنفرد للرغبة في نفوسهم، فعمّهم الله بالبلاء لذلك.

(١) الصحيفة السجّادية: دعاؤه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال.

(٢) عن أبي قلابة في مستدرک الوسائل: ١١: ٢٩٨.

(٣) الفتح ٤٨: ٢٣.

## طريقة العذاب الواقع بقوم ثمود

أوقع الله تعالى بقوم ثمود عذاب الخسف بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، وكان هذا بعد عقر الناقة بثلاثة أيام قال تعالى : ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ .

الدمدمة في اللغة هي الإهلاك والاستئصال ، وتأتي بمعنى آخر ، يقال : دمدم على الميت قبره بمعنى غطاه شيئاً فشيئاً ، ولعل هذا المعنى أيضاً مراد في الآية المباركة ، فدمدم يعني أخذهم شيئاً فشيئاً بالذنب الذي اقترفوه حتى استئصلهم ، ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ .

## معنى التسوية

لم يقتصر عذاب الله تعالى عليهم بالدمدمة<sup>(١)</sup> فقط ، بل تعدى إلى التسوية ، ولها معنيان :

**الأول :** التسوية مع الأرض حتى لم يبق معالم لبلاد أو منازل كانت تسكن في تلك المنطقة ، وقوم صالح عليه السلام كانوا طوال القامة ، ولهم باع طويل في العمارة ونحت البيوت في الصخور الكبيرة ، وكانوا ينحتونها وهم منتصبو القامة ، إلا أن ما صنعتهم أيديهم دمر فوق رؤوسهم بسبب طغيانهم وعنادهم وكبريائهم ، وأتباعهم عبدة الهوى منهم .

**الثاني :** حمل التسوية على معنى آخر هو أن الله تعالى قد جعلهم متساوين في العقاب ؛ إذ لم يستثن منهم أحداً ، وما ذلك إلا لأنهم راضون وراغبون فيما فعله المؤتمرون ، لهذا قال تعالى : ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ .

(١) الغضب . لسان العرب : ١٢ : ٢٠٩ .

## الله عادل حتى في عقابه

لا يخاف الله تعالى عاقبة أمر صدر منه بمقتضى عدله ، وما أنزله تعالى عليهم إنما هو من صنع أيديهم ، قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (٢) ، أي أن العباد وما يحويه عالم الوجود في قبضته تعالى ، وتحت هيمنته ، ولا سلطان إلا سلطانه ، ولا مهرب منه إلا إليه ، والخوف شعبة من شعب الظلم إذا كان من ذوي المقامات العالية ، أما الباري تعالى فلا ظلم يحل بساحته ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : «إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى الظُّلْمِ الضَّعِيفُ» (٣) ، أما الله سبحانه فإنه جبار السماوات والأرض ، قال تعالى : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤) ، وقد وصف نفسه بالقوة قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (٥) .

## دروس مستفادة من السورة

نستخلص بعض الفوائد والعبر من هذه السورة المباركة نذكرها تباعاً على النحو

التالي :

(١) الزخرف ٤٣ : ٧٦ .

(٢) هود ١١ : ١٠١ .

(٣) بحار الأنوار : ٩٥ : ١٨ .

(٤) الحشر ٥٩ : ٢٣ .

(٥) هود ١١ : ٦٦ .

**الأولى:** أن الله تعالى ذو أيدٍ على عباده، ونعم سابعة متكثرة، لا يدرك عددها العادون، ولا يؤدي حقها المجتهدون، وأولى النعم نعمة الوجود، وأشرفها نعمة معرفة الله والايقان بأحقيته بالعبادة دون سواه، فهو الذي سخر الكون لمن كرمه من عباده ابتداء من أشرفهم وأرفعهم مكاناً كالأنبياء، وفي مقدمتهم المتسنم قمم الشرف والمقام المحمود، وأصل عرى المجد وبرهان التقوى، وجلاء حقيقة الواحدية بمقام الحقيقة المحمدية<sup>(١)</sup>، شرف الأنبياء، أبو القاسم محمد ﷺ، ويليه عماد الأولياء، وشمس الأصفياء، والعلوية العليا، أمير المؤمنين عليّ ﷺ، وبعدهما السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، وأولادهم المعصومون ﷺ، وشيعتهم المشابهون لهم في الخلق، وبعث لخلقه الأنبياء مبشرين ومنذرين كي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، والتبشير بالجنة والرضوان، والترهيب من النار المسجرة بغضب الجبار، وخلق من في السماء والأرض لما في قوام واستمرار مصالح العباد.

**الثانية:** تبيّن الآيات المباركة أن الله سبحانه خلق عباده مختارين غير مجبرين، وجعل في أصل خلقتهم ما يمكنهم من اختيار أحد الطريقتين: طريق الخير أو طريق الشر عن طريق العقل الذي هو حجة الله علينا.

**الثالثة:** ولا بدّ للعبد من التنبه لها هي استشعار الفقر أمام الخالق الباري تعالى فهو الغني المطلق<sup>(٢)</sup>، ولا غنى إلا به، ولا فقر إلا بالنأي عنه، وأن الطاعة له لا تكون إلا باتّباع أوامره، واجتناب نواهيه، والاستفادة بما أنعم به سبحانه على عباده

(١) أن الحقيقة الكاملة المتجلية بانواع التجليات هي الحقيقة المحمدية. تفسير القرآن الكريم: ٤٣: ٣.

(٢) هو الغني عن لحوق نقص الإمكان به، وتطرق معنى الإفتقار إليه. شرح أصول الكافي: ٩٠: ٣.

في طاعته لا كما فعل قوم صالح عليه السلام من تسخير نعمه سبحانه عليهم في طريق معصيته .

**الرابعة:** الطغيان سبيل الخسران ، وقد يجزّ إلى إنكار آيات الله المتمثلة في تكذيب الأنبياء ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، وبهذا يكون قد استحق العقاب من الله تعالى بالهلاك له ومن اتبعه ، ويكون بذلك قد هلك وأهلك غيره كما فعل قوم صالح عليه السلام ذلك من قبل .

**الخامسة:** ما ورد في الكتاب العزيز من خبر ما جرى عليهم لا يختص بهم بل تلك سنة الله في خلقه ، قال تعالى : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾<sup>(٢)</sup> .

**السادسة:** النتيجة الحتمية للطغيان وإنكار النعم الإلهية الهلاك ، قال تعالى : ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ ، والدمدمة هي عذاب إهلاك واستئصال وليس بالضرورة أن يكون بالهدم أو الدمدمة ، بل ذلك أحد أفرادها ، والأمر بلحاظ النتيجة المفضية إلى الهلاك ، وعلينا الابتعاد عن كل أمر يسخط الله عز وجل ، ولا يكون ذلك إلا عن طريق اتباع الرسل حتى نحظى بالنور الإلهي المحمول بزادهم ، لا سيما زاد خير البشر ، وخير سلالة العدنانيين<sup>(٣)</sup> المضرّيين<sup>(٤)</sup> ، السيد القرشي ، الهادي المهدي ، الطاهر الطهر ، الممدوح من قبل الملك العلام

(١) الروم ٣٠ : ١٠ .

(٢) الفتح ٤٨ : ٢٣ .

(٣) عرب الشمال . موسوعة التاريخ الإسلامي : ١ : ١١٣ .

(٤) إن أولاد نزار بن معد أربعة : مضر وربيعة وإياد وأنمار ، وكان يكتنّى بإبنة ربيعة ، ومنازلهم

في مكة . معجم ما استعجم : ١ : ٥ .

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(١)</sup>، وبقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾<sup>(٢)</sup>،  
 محمّد المصطفى ﷺ، وهديه خير الهدي، وسنته خير السنن، وطريقه البرّ  
 والتقوى، والطريقة الوسطى، والنجاة مرهونٌ باتباعه، والسير على خطاه،  
 والسير من بعده على الأدلاء على الله، الذين هم في مقامه، والعارفين بسبله<sup>(٣)</sup>،  
 السائرين على نهجه، وهم أهل بيته الطيبين الطاهرين، بهم خير الدنيا والآخرة.

---

(١) القلم ٦٨ : ٤ .

(٢) النجم ٥٣ : ٩ .

(٣) السبيل هو الطريق .





# سورة العصر

## المقدّمة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### وَالْعَصْرِ ﴿١﴾

سورة العصر من غرر القرآن الكريم ، وهي في مضمونها تمثل منهجاً أخلاقياً وتربوياً متكاملًا ، يعنى بسلوك الفرد ، وينهض بمستوى المجتمع لكي يكون مجتمعاً متكاملًا ، بل مجتمعاً مثاليًا بين المجتمعات الأخرى ، فمن رام لنفسه ارتقاءً تربوياً ومتكاملًا في شخصيته عليه أن يتخذ هذه السورة المباركة منهجاً ونبراساً له في طريق تقويم تربوي أفضل ، وفي هذه السورة المباركة العديد من العبر التي لا غنى للمعتبر عنها والعظات الواقعية التي مرّت ولا تزال تلهج بها سنن التاريخ ، والتذكير المستمر عن المستقر الذي لا بدّ من أن يؤل إليه الإنسان بعد طيّ المراحل العمرية المقدّرة له من قبل الحكيم تعالى ، والسورة في مستهلّها تبدأ القسم بالعصر ، وهو في اللغة واقع على معانٍ متعدّدة :

**الأول** : بمعنى الزمن أو الحقبة الزمنية ، لذلك عبّر بعصرهم وعصرنا وهو

الزمن الذي قد عاشت فيه تلك الأقوام والزمن الذي نعيش فيه نحن<sup>(١)</sup>.

**الثاني:** بمعنى الضغط واللّي<sup>(٢)</sup>، ويستخدم بهذا المعنى في العبارات الفقهيّة -باب الطهارة- أي أنّ العصر هو إخراج الماء بطي الخرقه والضغط عليها<sup>(٣)</sup>.

**الثالث:** بمعنى النشر، العصر تبعاً لهذا المعنى هو نشر الثوب بعد إخراج الماء منه<sup>(٤)</sup>.

وله العديد من المعان الأخرى كالمدة المحددة، وهي القطعة من الزمن، وهذه إشارة إلى أهميّة هذه المدة كقولك: إنّ العصر الذهبي للأمم الإسلامية هو الصدر الأوّل<sup>(٥)</sup> المتمثل في زمن النبي ﷺ، وأنه هو الفترة الزمنية لصنع الإنسان الإلهي السائر على خطى الأنبياء، فكلمة العصر تلقي تارةً ويراد بها ذات القطعة الزمنية المعينة، وأخرى للإشارة لأهميّتها، وثالثة يقصد بها السمات العامّة والمميّزة لتلك الحقبة الزمنية<sup>(٦)</sup>، كإطلاق العصر على زمن النبي ﷺ ويراد به ذات النبي، أي عصره فقط، وكذلك الحال بالنسبة إلى عصور المعصومين عليهم السلام.

(١) الأمثل: ٢٠: ٤٣١.

(٢) ومعلوم أنّ طهارة المحلّ مع نجاسة القطرات العالقة لا ينفع في استعمال الثوب، ولذا لو قلنا: بعدم دخول العصر في مفهوم غسل الثياب ولم يدلّ دليل من الخارج على اعتباره لم نقل بوجوبه لإخراج ماء الغسالة، بل لو قلنا: بوجوب إخراجها، لكن الثوب بعد العصر لا يخلو عن قطرات عالقة على الثوب الملويّ تتجذب عند انحلاله من اللّي. كتاب الطهارة للشيخ الأنصاري: ١: ٣٤١.

اللّي: هو الفتل، من قولك: لويت يده: إذا فتلتها. التبيان: ٢: ٥٠٨.

(٣) الأمثل: ٢٠: ٤٣١.

(٤) المصدر المتقدّم.

(٥) هو زمن النبي ﷺ والصحابة. الشافي في الإمامة للسيد المرتضى: ٢: ١٩٢.

(٦) الحقبة: هي السنون. الصحاح: ١: ١١٤.

والمقصود به هنا هو الفترة الزمنية النهارية التي تميل فيها الشمس نحو قوس الغروب؛ ذلك أن الزمان له أهميته الخاصة في حياة الفرد؛ إذ به قوام حياته، وهو كذلك محيط بكل ما له أهمية عند الإنسان، بل يمكن القول بأن قوام عالم الخلق والخلقة على الوقت، ولأجل هذه الأهمية التي لا تعدلها أهمية أقسم الله تعالى بها، فالكائنات من مبدئها إلى رسمها<sup>(١)</sup> مرهونة بوقتها.

وقيل<sup>(٢)</sup>: إن الآية الكريمة كسائر الآيات القرآنية واردة مورد القسم بظاهرة تتجلى فيها عظمة الخالق تعالى، وبهذا تكون إرشاداً لذوي العقول إلى التفكير فيها للهداية إلى عظمة موجدها، وقد تكررت الأقسام في الكتاب العزيز بهذا القصد، كما هو الحال في سور: الفجر، الليل، الضحى، والسورة في معناها العام تشير إلى منهج إلهي هو منهج الابتلاء؛ لأن الإنسان مرهون بتوالي الأيام وصرورها، وتوالي عروض الحالات عليه وهو قائم بين حالتين، متردد بينهما: العسر واليسر، وهذا التردد بين هاتين الحالتين مع السير المستمر لزمه الذي هو جوهر عمره ببقية في حالات نفسية وعصبية متقلبة وغير مستقرة، وهذا نوع من أنواع الابتلاء الإلهي لعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) الرمس: تراب القبر. الصحاح: ٣: ٩٣٦.

(٢) أقسم سبحانه بالدهر لأن فيه عبرة لأولي الأبصار، أو بالعشي لما في ذلك من دلائل القدرة بإدبار النهار وذهاب سلطان الشمس. تفسير جوامع الجامع: ٣: ٧٣٠.

(٣) الجاثية ٤٥: ٢١.

(٤) العنكبوت ٢٩: ٢.

وقيل: إنَّ السَّلمَ الزمنيّ يحتوي على نقاطٍ تغيّر وتأثير في عالم الطبيعة<sup>(١)</sup> والإنسان والكون، ولهذا كان مورداً للقسم الإلهيّ كالقسم بعصر النبي ﷺ، وكذا عصور الأئمة من آل البيت ﷺ<sup>(٢)</sup>، فتلك العصور تمثّل نقاط تحوّل في المجتمعات الإسلاميّة من جميع نواحيها على الصعيدين النفسيّ والمادّيّ والفرديّ والإجتماعيّ، وبناءً على هذا يتحصّل أنّ العصر اسم عامّ يحتمل العديد من المعاني الصالحة للحمل عليها.

ثمّ انتقل السياق القرآنيّ إلى مقام آخر في قوله تعالى:

### إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾

الألف واللام الواردة في الآية المباركة لها معنيان محتملان في اللغة العربيّة؛ فإمّا أن تحمل على الجنس<sup>(٣)</sup>، ويراد بها جنس الإنسان، وإمّا أن تحمل على الاستغراق المستوعب لكلّ أفراد الإنسان، فحينئذٍ يكون كلّ فرد من أفرادها في خسر، والخسر لغة بمعنى الخسارة، فتحصّل أنّ الإنسان بأفراده في خسارة متحقّقة لا ريب فيها، والخسران الوارد في الآية المباركة عامّ يشمل المال والعمر من بلوغه إلى أرذله بتقادمه.

(١) عالم الطبيعة هو العالم الدنيويّ الذي نعيش فيه. تفسير الميزان: ١١: ٢٧١.

(٢) المراد عصر الرسول ﷺ ذلك لما تضمّنته الآيتان التاليتان من شمول الخسران للعالم الإنسانيّ، إلّا لمن اتّبع الحقّ وصبر عليه، وهم المؤمنون الصالحون عملاً، وهذا يؤكّد على أن يكون المراد من العصر عصر النبي ﷺ وهو عصر بزوغ نجم الإسلام في المجتمع البشريّ وظهور الحقّ على الباطل. الأقسام في القرآن الكريم: ٧٢.

(٣) يراد به التشابه والتماثل، وقوله عليّ: «يُرِيدُ بِهِ النَّوْعَ مِنَ الْجِنْسِ»، أي يريد القائل بالواحد هكذا الوحدة النوعيّة التي تتنوع من الأفراد المتجانسة المتمثلة كأفراد الإنسان. التوحيد: ٨٤.

نعم الله تعالى على عباده خارجه عن مقام الإدراك والإحصاء، أولها نعمة الوجود، وثانيها إعطاء عباده ما به يعرف ليكون العباد بواسطته محيطين بحقائق وجودهم، وعظيم إنعام المنعم عليهم، ألا وهو العقل، ثم أتبعه بما به قوام معاشهم وهو المال، وعلى ذلك تتوالى النعم حتى يحير العقل، ويجفّ القلم، ويقصر الوجود عن إدراكها أو الإحاطة بها، ولا يغيب عن بال الحصيف<sup>(١)</sup> أن ما أنعم على الإنسان من النعم كان بعد نعمة الوجود، بها تنزلت النعم وإليها تعود، والوجود لفظ كلي يقع على وجودين: وجود ماديّ ووجود معنويّ، وهما في حالة ترافق وتلازم لا انفكاك بينهما في عالم الطبيعة<sup>(٢)</sup> وفي مقام الإنسانيّة، والخسر في الآية المباركة شامل لكلا الوجودين، أمّا الخسران في عالم الوجود الماديّ فالانتقال من مرحلة الطفولة إلى الشباب، ثم إلى الكهولة<sup>(٣)</sup>، وأخيراً الشيخوخة لا تكون إلا مع تصرّم الأيام والسنين، وهذه الحالات الأربع تحوّلات مترافقة للزمن المكوّن للعمر، فكلّ يوم ينصرم لا يعود، بل يكون خسارة بنقصه، والعلم الحديث بتطوّره، وما أحرزه من تقدّم في البيولوجيا العامّة أو البشريّة، وكذلك علم الأنسجة والتشريح، أثبت أنّ الخلايا المكوّنة لجسم الإنسان تنقسم إلى قسمين:

١ - خلايا متبدّلة كخلايا البشرة، والخلايا العظميّة، وخلايا الأنسجة الداخليّة لجسم الإنسان.

٢ - خلايا دائمة كالخلايا الدماغيّة والقلبيّة، ونتيجة للتقادم في العمر نجد أنّ الخلايا الدماغيّة تضعف ويصاب بعضها بالعطب، خصوصاً في مرحلة الشيخوخة،

(١) الحصيف: محكم العقل. تاج العروس: ١٧: ١٣٤٤.

(٢) هو الوعاء الماديّ للجسمانيّات. تفسير القرآن الكريم: ٥: ٢٢٦.

(٣) الكهل من الرجال ما زاد على ثلاثين سنة إلى أربعين، وقيل: من ثلاثين إلى تمام الخمسين. مجمع البحرين: ٤: ٧٩.

وهذا نتيجة تراكم مادة القصدير في الخلايا الدماغية مما يسبب في نهاية الأمر الخلاف وقلة الضبط ، أما غيرها من الخلايا المتبدلة - كالبشرة - فهي تبدل إلى سنّ معينة ، بعد ذلك تقل نسبة الخلايا المولدة الموجودة تحت الأدمة فتصاب البشرة بالترهل ، وهي مرحلة شيخوخة البشرة ، أما الحواس الأخرى فهي رهينة للزمن - كالذوق - فقد أثبت العلم الحديث أنّ الحليمات الذوقية تقل تدريجياً نتيجة التقدم في العمر ، بالإضافة إلى ما عطب منها في مراحل العمر المختلفة ، فالمادة الحارة المتذوقة أو المواد الحريفة<sup>(١)</sup> تسبب في كثير من الأحيان تلف هذه الحليمات البالغة الحساسة ، كذلك حاسة السمع ، فإنّ الأذن الوسطى<sup>(٢)</sup> والداخلية<sup>(٣)</sup> قد تصاب بقلّة التأثير بالموجات الصوتية المتوسطة نتيجة التقدم في العمر ، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى النقص العامّ الشامل لجسم الإنسان بالعموم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .

أما بالنسبة للقدرات التي منحها الله تعالى لعباده فهي كذلك مرتبطة بالتقدم العمري بحيث يكون أشدها في مرحلة الطفولة ثمّ الشباب ، وهكذا ، كقدرة العقل

(١) الحارة .

(٢) تتكوّن من ثلاث عظام تتصل ببعضها البعض ، وتسمى حسب أشكالها وترتيبها من الخارج إلى الداخل : العظم المطرقيّ : وهو ما يتصل أحد طرفيه بالطبلة والآخر بالعظم السندانّي ، العظم السندانّي : في الوسط ، العظم الركابيّ : ويتصل من جهة بالعظم السندانّي بواسطة أربطة عضلية ومن الجهة الأخرى بفتحة بين الأذن الوسطى والداخلية تدعى بالكوة البيضية ، والأذن الوسطى تتصل بالبلعوم بواسطة مجرى خاص يدعى بقناة أو بوق أوستاكي ، وبواسطته يتصل الهواء الخارجيّ بهواء الأذن الوسطى ، فيتعادل الضغطان المؤثران على طرفي الطبلة . شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام : ١٧٤ .

(٣) وتتألف من مجارٍ في عظام القحف تشتمل على بعض أكياس غشائية وقنوات ذات أعوجاجات كثيرة جداً ، لذلك تدعى الأذن الداخلية بالتيه .

على التركيز والإدراك والقدرة على الاسترجاع المعلومات المختلفة، وضبط مستوى التفكير؛ إذ أنه في مرحلة الشيخوخة يكون مشوشاً<sup>(١)</sup>، إلا أن الأنبياء والأئمة من أهل البيت عليهم السلام لا تنال الأيَّام من قدراتهم شيئاً لما يترتب على ذلك من تبليغ الرسالة وسلامتها من النقص أو الزيادة، وأمَّا الأوصياء، فلمصلحة حماية الشريعة من التزييف<sup>(٢)</sup> والتحريف والتغيير ممَّا يذهب هذا الأمر بمجهود الأنبياء، وتضييع العباد وتضليلهم، ودخولهم في تيه لا لقاء فيه، أمَّا أجسامهم العنصريَّة أو الماديَّة، فتنال منها الأيَّام وصرورها كما تنال من بقيَّة العباد.

### إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

بعد تحقُّق وترتّب الخسران على العباد استثني سبحانه في قوله تعالى: **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا** عليهم السلام عموم الخسران الوارد في الآية السابقة شامل لكلِّ العباد، برَّهم وفاجرهم، أمَّا السبب في هذا الاستثناء ليس معناه خروج المؤمن من عموم الخسران، بل لا بدَّ من أن تنال الأيَّام من عالمه الماديِّ أو العنصريِّ<sup>(٣)</sup>، إلا أن الأعمال الصالحة التي عملوها تكون جابرة لما خسروه من مادة أبدانهم، بل بإضافة الجزيل من الثواب والعطاء يوم اللقاء على تلك الأعمال، والإيمان لفظ عام شامل للإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، بل بكلِّ ثابت من الثواب، أو أي قيمة من القيم والضوابط والقوانين العامَّة الاجتماعيَّة والشخصيَّة، وكلِّ هذا يمكن استجلاؤه من لفظ العموم الوارد في الآية المباركة، وعدم تخصيصها

(١) الغمر. تاج العروس: ٧: ٣١٩.

(٢) قائم على التمييز بين الرائج من الزائف. تاج العروس: ١٢: ٢٦١.

(٣) العالم العنصريُّ هو العالم الطبيعيُّ. الإمام عليُّ بن أبي طالب عليه السلام لأحمد الرحمانيّ

الهمدانيّ: ٤٣٨.

بالإيمان بالله .

وأما قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المراد منه كل عمل يصدق عليه أنه من الأعمال الصالحة من الأقوال والأفعال المزيكية للعبد، المرضية للرب، فالإطلاق القرآني يعطي المكلف مساحة أوسع وأرحب في الامتثال ومسايرة الأزمنة المتعددة، والأعمال المتسمة بالحسن والقبح متبدلة على مر الأزمنة والعصور، فكل ما هو متسم بالصلاح من العبادات والمعاملات والأخلاق، سواء كانت الفرديّة منها أو الاجتماعيّة، ومرضيّ الأقوال، داخل تحت عموم الآية المباركة، فتكون الأعمال سبباً كافٍ في الحصول على الأمن من العقاب الإلهي، ونيل رضى الربّ جلّ جلاله .

### ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

بعد هذا انتقل الاستثناء القرآني إلى صفات أخرى هي قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ الحق اسم واقع على معانٍ متعددة، منها كل ما طابق الواقع فهو حقّ صراح؛ إذ لا تكاذب بين ما هو قابع في عالم الذهن من التصوّر، وما هو مشخّص في عالم التجسّم، بل كلّ واحد منهما عين الآخر، فهذا حقّ لا مرء فيه، ولا باطل يعتريه، ومن المعاني المتكرّرة لهذه الكلمة القصيرة في نطقها، المحدودة في رسمها، الواسعة في معناها، ما يلي:

١ - كون المراد من الحقّ هو القرآن الكريم لما يحتويه من قوانين وأنظمة حياة لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

(١) المائدة ٥ : ٨٤ .



وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٢﴾ .

وقال تعالى : ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥﴾ .

٢ - كون المراد من الحق هو المنزل له ، وهو الملك الحق المبين ، قال تعالى :

﴿هَذَا الَّذِي كُنَّا نَسْتَدْعُوا بِالْحَقِّ قَوْلًا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٦﴾ .

وقال تعالى : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴿٧﴾ .

وقال تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴿٨﴾ .

وقال تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ

(١) الأنعام : ٦ : ٧٣ .

(٢) الأنعام : ٦ : ١١٤ .

(٣) الرعد : ١٣ : ١ .

(٤) المؤمنون : ٢٣ : ٦٢ .

(٥) القصص : ٢٨ : ٥٣ .

(٦) الكهف : ١٨ : ٤٤ .

(٧) الأنبياء : ٢١ : ١١٤ . المؤمنون : ٢٣ : ١١٦ .

(٨) الحج : ٢٢ : ٦ ، ٦٢ : لقمان : ٣١ : ٣٠ .

هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١﴾ .

وقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿٢﴾ .

٣- وقد يكون المراد من الحقّ هو القول الصادق الذي لا يعتريه ريب ولا يخالجه باطل، قال تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٣﴾ .

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ .

وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ .

وقال تعالى: ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ .

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٧﴾ .

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى ﴿٨﴾ .

(١) الحجّ ٢٢: ٦٢ .

(٢) المؤمنون ٢٣: ١١٦ .

(٣) سورة ص ٣٨: ٨٤ .

(٤) الجاثية ٤٥: ٦ .

(٥) الجاثية ٤٥: ٢٩ .

(٦) القصص ٢٨: ٣ .

(٧) يوسف ١٢: ٣ .

(٨) يوسف ١٢: ١٣ .

٤ - ومن معاني الحق ما جاءت به الرسل من الملائكة والنبیین والمرسلين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (١) .  
وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَامْنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٢) .  
وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتَّخِذُوا الْجَنَّةَ أُورْثَتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

أما السنّة النبويّة المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام فقد أعطت أبعاداً إضافية للحق ، منها :

١ - عن المفضل بن عمر ، قال : « سألت الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَالْعَصْرِ \* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، قال عليه السلام : ﴿ الْعَصْرُ \* عَصْرُ خُرُوجِ الْقَائِمِ عليه السلام \* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ \* يَعْنِي أَعْدَاءَنَا \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنّي بآياتنا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يعنّي بمواساة الإخوان ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ يعنّي بالإمامة ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ يعنّي في الفترة (٤) .

٢ - عن محمد بن عليّ ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : « اسْتَنْتَنِي أَهْلَ صَفْوَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ حَيْثُ قَالَ : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يَقُولُ : آمَنُوا بِوَلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام \* وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ \* ذُرِّيَّاتِهِمْ وَمَنْ خَلَفُوا بِالْوَلَايَةِ وَتَوَاصَوْا

(١) البقرة ٢ : ١١٩ .

(٢) النساء ٤ : ١٧٠ .

(٣) الأعراف ٧ : ٤٣ .

(٤) كمال الدين وتمام النعمة : ٦٥٦ .

بِهَا وَصَبَرُوا عَلَيْهَا»<sup>(١)</sup>.

ومن الملاحظ في جميع الدراسات السيكولوجية المعاصرة أنّ التعوّد السلوكي (الإدمان) على اتباع توجه معين من الصعب جداً تغييره حتى مع العلم بعدم صوابه وخطأ ما هو عليه مقيم، فلا يمكن التغلب على ذلك الأمر إلا بالصبر والمجاهدة على اتباع الحقّ والسير في سبيله، ومجانبة الباطل وأهله؛ إذ النفس لهذا ممنوع، وللقبائح من الفعال طموح، ومن الوعظ مستنفزة، وللعوّ مستعدة.

إنّ من صفات المؤمنين التواصل والتبادل والتناصح فيما بينهم، وتذكير بعضهم لبعض منعاً للغفلة؛ لأنّ من ركن إلى الدنيا استوجبت نفسه القسوة، وسلكت بذلك طريق الشقوة، ولا بدّ للمناصح من الصبر؛ إذ التذكير قد يرافقه النفور بسبب المداومة على الشيء، وقد وردت روايات تبين ما للصبر من فضيلة ومراتب متفاوتة، منها:

عن عمر بن شمر اليماني، رفعه إلى عليّ عليه السلام، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: الصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ: صَبْرٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، وَصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمُصِيبَةِ حَتَّى يَرُدَّهَا بِحُسْنِ عَزَائِهَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَلَاثِمِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ سِتِّمِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الْأَرْضِ إِلَى الْعَرْشِ، وَمَنْ صَبَرَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ تِسْعِمِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الْأَرْضِ إِلَى مُنْتَهَى الْعَرْشِ»<sup>(٢)</sup>.

فيسمو الصبر بسمو الغاية والهدف الذي ينشده صاحبه، ويقدر الإيمان يهب الله سبحانه وتعالى عباده من الصبر ورباطة الجأش، وكلّما كان العمل في مرضاة الله

(١) بحار الأنوار: ٢٤: ٢١٤ و ٢١٥.

(٢) الكافي: ٢: ٩١.

كان العزم أكبر، والجلد على تحمّل الصعاب أكثر، بلا فترة تنال الصابر، ولا سامة تتسرّب إلى نفسه، فما كان لله وفي جنبه فإنّ مآله إلى النجح ومأواه إلى الفلاح، وإذا كان قوم على ذلك فإنّ الحقّ يجمعهم والباطل لا يمزّقهم، أمرهم الثبات والصبر للحقّ، وفي الآية المباركة التفاتة لا بدّ من بيانها، وهي أنّ التواصي نوع من العمل الاجتماعيّ الجماعيّ، وعلى هذا فإنّ النجاح في الأعمال الاجتماعيّة مشروط بكون الأعمال جمعيّة لا فرديّة، ليكون نصيبها الخيبة والخسران، والدليل على هذا أنّ الجماعات التي قامت على أكتافها رسالات الأنبياء لم يكونوا يقومون بأعمالهم على نحو الانفراد، بل بالتخطيط الجماعيّ، وتبادل الخبرات، المشورة فيما بينهم، وهذه إحدى الصور التي يمكن استنطاق الآية القرآنيّة بها لاستجلاء الغامض من الحقائق التي أكسبت نبيّ الأُمّة محمّداً ﷺ هذا النجاح، وما اتّسم به من السؤدد والمنعة، فطوبى لمن اهتدى بهديه، واقتفى أثره، وجعل أهل بيته سبيل هدى ظاهرة، وعلائم تقى لائحة.

### معالم السورة

هذه السورة المباركة ترسم المنهاج العمليّ للصالحين، موضحة بأنّ أهمّ معالم ذلك المنهاج ركائز أربع:

**الأولى: الإيمان**، وهو الأساس؛ إذ أنّ العمل الذي لا يُبنى على إيمان قيمته ضئيلة وتأثيره باهت، من هنا تومئ السورة إلى أهميّة البناء العقديّ للشخصيّة.

**الثانية: العمل الصالح**؛ إذ أنّ الإيمان لا يكفي وحده، بل لا بدّ من تجسيد ذلك الإيمان في الواقع العمليّ مع النفس والغير، من هنا يخطئ من يكتفي بالإيمان وحده دون أن يجسّد إيمانه عملاً.

**الثالثة: الأهداف والغايات والتذكير بها**، أي أنّ المؤمن يعرف غاياته، ويعي الأهداف الموصلة إلى تلكم الغايات، من هنا يذكر بعض المؤمنين بعضهم الآخر

بذلك دوماً، لئلا يحصل فتور، أو تواني، أو ترك لتلكم الغايات الكبيرة .

**الرابعة: الكفاح والصمود حتى الوصول إلى الغاية**، ودون ذلك فإنّ الإنسان سيرجع القهقري أو يترك ما يرومه، لذا لا بدّ من الصبر لاجتياز عقبات الطريق، وتعدّي الإشكاليات، وإذا أدرك العاقل هذه الأمور وسار على وفق هذا المنهج الرباعيّ نال ما يبتغيه في دنياه وأخراه، بل وأسهم في رقيّ نفسه وتطوّر مجتمعه، ولهذا كان بعض الصحابة يختمون مجلسهم بقراءة هذه السورة إدراكاً منهم بأنّها المنهج العمليّ لمن يريد الله ورسوله والدار الآخرة .

والحمد لله ربّ العالمين

# مِصَادِرُ الْكِتَابِ



## ١ • الاحتجاج على أهل اللجاج

الطبرسيّ ، أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب ( - ٥٦٠هـ ): تحقيق : إبراهيم البهادريّ و محمد هادي به ، الناشر : دار أسوة - إيران ، الطبعة السادسة / ١٤٢٥هـ .

## ٢ • إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل

القاضي التستريّ ، نور الله بن شريف الدين الحسينيّ المرعشيّ ( ٩٥٦ - ١٠١٩ هـ ) : مكتبة السيّد المرعشيّ النجفيّ - قم المقدّسة / ١٤١٠هـ .

## ٣ • الأزريّة

الشيخ كاظم الأزريّ التميميّ ( ١٢١١ هـ ) : تخميس الشيخ جابر الكاظميّ ، دار الأضواء - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

## ٤ • الأصول الستّة عشر

عدّة محدّثين : دار الشبستريّ للمطبوعات - قم المقدّسة ، الطبعة الثانية / ١٤٠٥هـ .

## ٥ • أضواء البيان

الشنقيطيّ ( ١٣٩٣هـ ) : تحقيق : مكتب البحوث والدراسات ، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

## ٦ • أضواء على عقائد الشيعة الإماميّة

الشيخ جعفر السبحانيّ : الناشر : مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام - قم المقدّسة ،

الطبعة الأولى / ١٤٢١هـ.

### ٧ • الأعلام

الزركليّ = خير الدين بن محمود بن محمّد (- ١٤١٠هـ): دار العلم للملايين - بيروت ،  
الطبعة التاسعة / ١٩٩٠م.

### ٨ • أعلام الدين في صفات المؤمنين

الدلميّ ، أبو محمّد الحسن بن محمّد الواعظ ( - ٨٤١هـ): تحقيق ونشر: مؤسّسة  
آل البيت ﷺ لإحياء التراث ، الطبعة الأولى / ١٤٠٨هـ.

### ٩ • أعيان الشيعة

الأمين العاملي ، محسن (١٨٦٥ - ١٩٥٢م): دار التعارف للمطبوعات - بيروت / ٢٠٠٠م.

### ١٠ • إقبال الأعمال

السيد ابن طاووس = رضيّ الدين أبي القاسم عليّ بن بن سعد الدين إبراهيم بن  
موسى بن جعفر ( ٥٨٩ - ٦٤٤هـ): تقديم وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي ، الناشر:  
مؤسّسة الأعلمي - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

### ١١ • الأقسام في القرآن الكريم

الشيخ جعفر السبحانيّ: الناشر: مؤسّسة الإمام الصادق ﷺ - قم المقدّسة ، مطبعة  
الاعتماد ، الطبعة الأولى / ١٤٢٠هـ

### ١٢ • الإكمال في أسماء الرجال

الخطيب التبريزيّ (٧٤١هـ): تعليق: أبو أسد الله بن الحافظ محمّد بن عبدالله الأنصاريّ ،  
الناشر: مؤسّسة أهل البيت ﷺ.

### ١٣ • الإلهيات

الشيخ جعفر السبحانيّ: الناشر: دار الإسلاميّة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ،  
الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

### ١٤ • الإمام عليّ بن أبي طالب



أحمد الرحمانيّ الهمدانيّ: الناشر: المنير للطباعة والنشر - طهران ، الطبعة الأولى /  
١٤١٧هـ

### ١٥ • الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

الشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ: مؤسّسة البعثة - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ /  
١٩٩٢م.

### ١٦ • الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية

#### ١٧ • البرهان

الزركشيّ (٧٩٤هـ): تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم ، دار أحياء الكتب العربيّة  
عيسى البابي الحلبيّ وشركاؤه) ، الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

### ١٨ • البداية والنهاية في التاريخ = تاريخ ابن كثير

عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقيّ (٧٠٠ - ٧٧٤هـ): تحقيق: مكتب تحقيق  
التراث ، نشر دار إحياء التراث العربيّ - بيروت / ١٩٩٣م.

### ١٩ • تاج العروس من جواهر القاموس

الزبيديّ الحنفيّ ، محبّ الدين أبي فيض السيّد محمّد مرتضى الحسينيّ الواسطيّ  
(١١٤٥ - ١٢٠٥هـ): دراسة وتحقيق: علي شيري ، دار الفكر - بيروت ، الطبعة الأولى  
١٤١٤هـ / ١٩٩٤م (٢٠ مجلداً) .

### ٢٠ • تاريخ ابن عساكر = تاريخ مدينة دمشق

ابن عساكر ، أبو القاسم عليّ بن الحسين بن هبة الله الشافعيّ الدمشقيّ (٤٩٩ -  
٥٧١هـ): دار الفكر - دمشق / ١٤١٩هـ.

### ٢١ • التبيان

محمّد بن الحسن الطوسيّ (ت ٤٦٠هـ): تحقيق: الشيخ أحمد قصير ، منشورات مكتب  
الإعلام الإسلاميّ ، قم المقدّسة ، الطبعة الأولى / ١٤٠٩هـ.

### ٢٢ • تحف العقول عن آل الرسول

ابن شعبة الحرّانيّ ، أبو محمّد الحسن بن عليّ بن الحسين (من أعلام القرن الرابع الهجري) : دار الشريف الرضيّ - قم المقدّسة / ١٤٢١هـ .

### • ٢٣ • تذكرة أولي الألباب

الشيخ داود الأنطاكيّ (١٠٠٨هـ) : المكتبة الثقافيّة - بيروت .

### • ٢٤ • تسديد الأصول

الحاج الشيخ محمّد المؤمن القميّ : مؤسّسة النشر الإعلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين - قم المقدّسة ، الطبعة الأولى / ١٤١٩هـ

### • ٢٥ • التعليقات

الشيخ الرئيس = ابن سينا : مركز النشر التابع للمكتب الإسلاميّ - قسم التبليغ ، الطبعة الرابعة / ١٤٢١هـ

### • ٢٦ • تفسير ابن كثير = القرآن العظيم

عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ( ٧٠١ - ٧٧٤هـ ) : تحقيق : سامي بن محمّد سلامة ، الناشر : دار طيبة ، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

### • ٢٧ • تفسير الألوسيّ =

### (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني )

الألوسيّ البغداديّ ، أبو الفضل شهاب الدين السيّد محمود ( ١٢١٧ - ١٢٧٠هـ ) : الناشر : دار الفكر - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ( ٣٠ جزءاً في ١٦ مجلداً ) .

### • ٢٨ • تفسير البغويّ = معالم التنزيل

البغويّ = أبو محمّد الحسين بن مسعود بن محمّد الفراء ( ٤٣٨ - ٥١٦هـ ) : دار الكتاب العلميّة - بيروت / ١٣٢٤هـ .

### • ٢٩ • تفسير شبّر

السيّد عبدالله شبّر (١٤٢٢هـ) : مراجعة الدكتور حامد حنفي داود ، نشر وطبع : السيّد مرتضى الرضويّ ، الطبعة الثالثة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .

## ٣٠ • تفسير الصافي

الفيض الكاشاني ، المَلّا محسن بن مرتضى محمّد محسن (١٠٠٧ - ١٠٩١هـ): تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي ، مكتبة الصدر - طهران ، الطبعة الثانية / ١٤١٦هـ

## ٣١ • تفسير القرآن الكريم

السيد مصطفى الخميني: تحقيق ونشر: مؤسّسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ / ق / ١٣٧٦هـ ش.

## ٣٢ • تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن

أبو عبدالله محمّد بن أحمد القرطبي الأنصاري (- ٦٧١هـ): التحقيق: هشام سمير البخاري ، دار عالم الكتب - الرياض ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

## ٣٣ • تفسير الفخر الرازي = التفسير الكبير = مفاتيح الغيب

خطيب الريّ ، فخر الدين أبي عبدالله محمّد بن ضياء الدين عمر بن الحسن بن الحسين (٥٤٤ - ٦٠٦هـ): تقديم: الشيخ خليل محيي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م (٣٢ جزءاً في ١٦ مجلداً + مجلد الفهرس).

## ٣٤ • تفسير القميّ

القميّ ، أبو الحسن عليّ بن إبراهيم بن هاشم ( - ٣٢٩هـ): تحقيق: السيد طيّب الجزائري الموسوي ، الناشر دار السرور - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

## ٣٥ • تفسير مجاهد

أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكيّ المخزومي (- ١٠٤هـ): برواية ابن أبي نجيح ، قدّم له وحقّقه وعلّق حواشيه: عبدالرحمن الطاهر بن محمّد السورتي ، مجمع البحوث الإسلاميّة - إسلام آباد.

## ٣٦ • تفسير نور الثقلين

الحويزيّ ، الشيخ عبد عليّ بن جمعة العروسيّ ( - ١١١٢هـ): الناشر: مؤسّسة إسماعيليان - قم المقدّسة ، الرابعة / ١٤١٥هـ.

٣٧ • التوحيد

الشيخ الصدوق: نشر وتحقيق: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين - قم المقدّسة ، الطبعة الثامنة / ١٤٢٣هـ.

٣٨ • تهذيب الأحكام

شيخ الطائفة: مكتبة الصدوق - طهران / ١٤١٧هـ.

٣٩ • ثواب الأعمال وعقاب الأعمال

الشيخ الصدوق: تعليق: الشيخ حسين الأعلمي ، الشريف الرضي / ١٤١٨هـ.

٤٠ • جامع الأخبار = معارج اليقين في أصول الدين

السبزواري ، محمّد بن محمّد: (من أعلام القرن السابع الهجري): مؤسّسة آل البيت للإحياء التراث - قم المقدّسة ، الطبعة الأولى / ١٤١٤هـ.

٤١ • تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن

أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري ( - ٣١٠هـ): تحقيق: الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م ، (٢٤ مجلداً + مجلداً الفهارس).

٤٢ • جوامع الجامع (تفسير)

الطبرسي = الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن (٤٦٨ - ٥٤٨هـ): تحقيق ونشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين - قم المقدّسة ، الطبعة الأولى / ١٤١٨هـ.

٤٣ • جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام

الشيخ النجفي ، محمّد حسن ابن الشيخ باقر ابن الشيخ عبدالرحيم (١٢٠٠ - ١٢٦٦): حقّقه وعلّق عليه وأشرف على طبعه: الشيخ عبّاس القوجاني ، دار إحياء التراث العربي - بيروت / ١٤٠٠هـ.

٤٤ • الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة

صدر الدين الشيرازي ، محمّد ( - ١٠٥٠هـ): نشر: دار إحياء التراث العربي -

بيروت ، الطبعة الثالثة / ١٩٨١م .

#### ٤٥ • الخصال

الشيخ الصدوق: نشر وتحقيق: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين /  
١٤٢٤هـ.

#### ٤٦ • دراسات في نهج البلاغة

الشيخ محمّد مهدي شمس الدين ، دار الزهراء عليها السلام للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ،  
الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

#### ٤٧ • الدرّ المثنور في التفسير بالمأثور = تفسير السيوطي

جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ): تصحيح وتخريج  
الأحاديث: الشيخ نجات نجيب ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ /  
٢٠٠١م (٨ مجلّات).

#### ٤٨ • ديوان الأزرّي الكبير

الشيخ كاظم الأزرّي التميمي (١٢١١هـ): تحقيق وتقديم وتكملة: شاكر هادي شكر ، دار  
التوجيه الإسلامي - بيروت - الكويت ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

#### ٤٩ • ذخيرة المعاد

الملا محمّد باقر السبزواري (١٠٩٠هـ): مؤسّسة آل البيت عليهم السلام - قم المقدّسة.

#### ٥٠ • الذريعة إلى تصانيف الشيعة

الشيخ آقا بزرك طهراني رحمته الله : دار الأضواء - بيروت ، الثالثة / ١٤٠٣هـ •

#### ٥١ • رجال الطوسي

شيخ الطائفة (٤٦٠هـ) : تحقيق : جواد القيومي الأصفهاني ، الناشر : مؤسّسة النشر  
الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين - قم المقدّسة ، الطبعة الأولى / ١٤١٥هـ .

#### ٥٢ • روائع نهج البلاغة

جور جرداق: مركز الغدير للدراسات الإسلامية - قم المقدّسة ، مطبعة باقري ، الطبعة

الثانية ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

٥٣ • روضة الواعظين وبصيرة المتعلمين

الفتال النيشابوري ، محمد بن أحمد ( - ٥٠٨هـ ): دار الشريف الرضي - قم المقدسة ،  
الطبعة الأولى / ١٣٨٦ ش .

٥٤ • سيرة ابن إسحاق

محمد بن إسحاق بن يسار (١٥١هـ): تحقيق: محمد حميد الله ، نشر وطبع: معهد  
الدراسات والأبحاث للتعريف .

٥٥ • السيرة النبوية

ابن هشام الحميري (٢١٨هـ): تحقيق وضبط وتعليق: محمد محي الدين عبدالحميد ،  
الناشر: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده - مصر ، المطبعة المدني - القاهرة ١٣٨٣هـ /  
١٩٦٣م .

٥٦ • الشافي في الإمامة

السيد المرتضى ، علي بن الحسين الموسوي ( ٣٥٥ - ٤٣٦هـ ): مؤسسه الصادق  
للطباعة والنشر - طهران / ١٤٢٦هـ .

٥٧ • شرائع الإسلام

المحقق الحلبي ( ٦٧٦هـ ): انتشارات استقلال - طهران ، الطبعة الثانية / ١٤٠٩هـ .

٥٨ • شرح إحقاق الحق وإزهاق الباطل

القاضي التستري ، نور الله بن شريف الدين الحسيني المرعشي النجاشيري ( ٩٥٦ -  
١٠١٩هـ ): علّق عليه: السيد شهاب الدين المرعشي النجاشيري ، مكتبة المرعشي النجاشيري - قم  
المقدسة / ١٤١٠هـ .

٥٩ • شرح الأسماء الحسنى

السبزواري ، الملا هادي ( - ١٣٠٠هـ ): مكتبة بصيرتي - قم المقدسة .

٦٠ • شرح أصول الكافي

الشيخ محمد صالح المازندراني رحمته الله: دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الأولى / ١٤٢١هـ.

### ٦١ • شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام

شرح حسن السيّد عليّ القبانجي: نشر وطبع مؤسّسة إسماعيليان للطباعة والنشر - قم المقدّسة.

### ٦٢ • شرح مسلم

محيي الدين النوويّ ، أبو زكريّا يحيى بن شرف ( ٦٣١ - ٦٧٦هـ ): نشر: دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

### ٦٣ • شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد = عزّ الدين أبي حامد عبدالحميد بن هبة الله بن محمّد بن محمّد بن الحسين المدائنيّ المعتزليّ ( ٥٨٦ - ٦٥٥هـ ) ، قدّم له وعلّق عليه: الشيخ حسين الأعلميّ ، نشر: مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات - بيروت ، الطبعة الأولى / ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

### ٦٤ • الصحاح = تاج اللغة وصحاح العربيّة

الجوهريّ ، إسماعيل بن حمّاد ( قيل : ٣٣٢ - ٣٩٢هـ ): تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين - بيروت ، الطبعة الرابعة / ١٩٩٠م .

### ٦٥ • صحيح البخاريّ

البخاريّ ، أبو عبدالله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفيّ ( ١٩٤ - ٢٥٦هـ ): ضبطه ورقّمه: الدكتور مصطفى ديب البُغا ، دار ابن كثير ودار اليمامة - دمشق. الطبعة الخامسة ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م (٦ مجلّدات + مجلّد الفهارس).

### ٦٦ • الصحيح من سيرة النبيّ الأعمم

السيد جعفر مرتضى العامليّ: نشر: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ودار السيرة - بيروت ، الطبعة الرابعة / ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

### ٦٧ • صحيفة الأهرام المصريّة

٦٨ • الصحيفة السجّادية (أدعية الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين عليهما السلام): تحقيق ونشر: مدرسة ومؤسسة الإمام المهدي عليه السلام - قم المقدّسة ، الطبعة الخامسة / ١٤٢٣هـ

### ٦٩ • طرائف المقال في معرفة طبقات الرجال

السيد علي البروجردي: تقديم: المرجع الكبير السيد المرعشي النجفي ١ ، تحقيق: السيد مهدي الرجائي ، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة - قم المقدّسة ، الأولى / ١٤١٠هـ

### ٧٠ • علم نفس النّموّ

### ٧١ • عمدة القارئ

بدرالدين العيني ، أبو محمّد محمود بن أحمد (٧٦٣ - ٨٥٥هـ): مصطفى الحلبي - القاهرة / ١٩٧٣م.

### ٧٢ • عوائد الأيام

الزرقاني ( - ١٢٤٤هـ): تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلاميّة ، نشر: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلاميّ ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٣٧٥هـ. ش .

### ٧٣ • العوائد والفوائد

ضمن ثلاث رسائل (ولاية الفقيه والعوائد والفوائد ودروس الأعلام ونقدها) السيد مصطفى الخميني (١٣٠٥ - ١٣٩٨هـ): تحقيق ونشر: مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني - قم المقدّسة / ١٤١٨هـ

### ٧٤ • عوالي اللثالي العزيزية في الأحاديث الدينية

ابن أبي جمهور الأحسائي = محمّد بن عليّ بن إبراهيم ( - ٨٨٠هـ): دار سيّد الشهداء عليه السلام - قم المقدّسة ، الطبعة الأولى / ١٤٠٥هـ.

### ٧٥ • كتاب العين

الخليل بن أحمد الفراهيدي: تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، هجرت ، الثانية / ١٤١٠هـ.



٧٦ • عيون أخبار الرضا عليه السلام

الشيخ الصدوق: تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي - بيروت، الطبعة الأولى / ١٤٠٤هـ.

## ٧٧ • عيون الحكم والمواعظ

الليثي الواسطي، أبو الحسن علي بن محمد (القرن ٦ الهجري)، دار الحديث - قم المقدسة / ١٤١٨هـ.

## ٧٨ • الغدير في الكتاب والسنة والأدب

العلامة الأميني، عبدالحسين (١٢٨١ - ١٣٤٩ هـ): دار إحياء التراث العربي - بيروت / ١٩٩٠م.

## ٧٩ • غرر الحكم ودرر الكلم

الآمدي، القاضي ناصح الدين أبي الفتح عبدالواحد بن محمد التميمي ( - ٥٥٠هـ):  
نشر: دار الهادي للطباعة والنشر - بيروت، الطبعة الثانية / ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

## ٨٠ • الفروق اللغوية

أبو هلال العسكري: تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم المقدسة، الطبعة الأولى / ١٤١٢هـ.

## ٨١ • الفصول المختارة

الشريف المرتضى = علم الهدى علي بن الحسين بن موسى الموسوي (٣٥٥ - ٤٣٦هـ): تحقيق: السيد نور الدين جعفریان الأصبهاني والشيخ يعقوب الجعفري والشيخ محسن الأحمد، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الثانية / ١٤١٤هـ.

## ٨٢ • فيض القدير شرح الجامع الصغير

عبدالرؤف المناوي، محمد الشافعي (٩٥٢ - ١٠٣١هـ): تحقيق: أحمد عبدالسلام، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى / ١٤١٥هـ.

## ٨٣ • القاموس الفقهي

الدكتور سعدي أو حبيب: دار الفكر - دمشق ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

#### ٨٤ • القاموس المحيط

الفيروزآبادي = أبو طاهر مجدالدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم (٧٢٩ - ٨١٧هـ): تقديم وتعليق: الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

#### ٨٥ • قرب الإسناد

الحميري ، أبو العباس عبدالله بن جعفر ( - ٣١٠هـ): مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

#### ٨٦ • القضاء في الفقه الإسلامي

آية الله الحائري ، كاظم بن علي الحسيني : مجمع الفكر الإسلامي .

#### ٨٧ • الكافي

ثقة الإسلام الكليني ، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي ( ٣٢٨ - ٣٢٩هـ): مؤسّسة الأعلمي - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

#### ٨٨ • الكافي في الفقه

الكليني ، أبو صلاح ( ٤٤٦هـ): تحقيق: رضا أستاذي ، مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامة - أصفهان .

#### ٨٩ • كامل الزيارات

ابن قولويه ، الشيخ أبو القاسم جعفر بن محمد القمي ( - ٣٦٨هـ): دار السرور - بيروت ، الطبعة الأولى / ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

#### ٩٠ • الكامل في التاريخ

ابن الأثير ، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن أبي الكرم الشيباني ( ٥٥٥ - ٦٣٠هـ): دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٩م.

#### ٩١ • كتاب الطهارة

الشيخ الأنصاري، مرتضى بن محمد أمين (١٢٨١هـ) المؤتمر العالمي للشيخ  
الأنصاري، الطبعة الأولى / ١٤١٥هـ

### ٩٢ • كشف الغمّة في معرفة الأئمّة

الإربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح (٤٦٧ - ٥٣٨هـ): دار الأضواء - بيروت  
/ ١٩٨٥م.

### ٩٣ • كمال الدين وتمام النعمة

الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (٣١١ -  
٣٨١هـ): تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة  
لجماعة المدرّسين - قم المقدّسة ١٤٠٥هـ / ١٣٦٣هـ ش.

### ٩٤ • كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال

المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (٨٨٨ - ٩٧٥هـ): مؤسّسة الرسالة -  
بيروت ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

### ٩٥ • الكنز اللغوي

ابن السكّيت الأهوازي (٢٤٤هـ): المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين - بيروت.

### ٩٦ • لسان العرب

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأفريقي المصري  
(٦٣٠ - ٧١١هـ): تنسيق وتعليق: علي شيري، دار صادر - بيروت / ١٩٩٥م.

### ٩٧ • لمحات الأصول (تقارير السيد البروجردي)

السيد الإمام الخميني: تحقيق: ١٣٨٣هـ، الناشر: مؤسّسة تنظيم ونشر آثار الإمام  
الخميني - قم المقدّسة، مطبعة مؤسّسة العروج، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ق / ١٣٧٩هـ ش.

### ٩٨ • المبسوط

الشيخ الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (٤٦٠هـ): المكتبة المرتضوية لإحياء  
الآثار الجعفرية - طهران / ١٣٨٧هـ.

## ٩٩ • مجلّة تراثنا

مؤسسة أهل البيت عليهم السلام ، المطبعة ستاره - قم المقدّسة / ١٤١٩هـ

## ١٠٠ • مجمع البحرين

فخر الدين بن محمّد عليّ بن أحمد بن عليّ الطريحيّ (١٠٨٥هـ): مكتب نشر الثقافة الإسلاميّة - قم المقدّسة ، الطبعة الثانية / ١٤٠٨هـ.

## ١٠١ • تفسير الطبرسي = مجمع البيان

أمين الإسلام ، أبو عليّ الفضل بن الحسن بن الفضل الطوسيّ الطبرسيّ (٤٦٨ - ٥٤٨هـ): تحقيق: السيّد هاشم الموسويّ المحلّاتي والسيّد فضل الله اليزديّ الطباطبائيّ ، دار المعرفة - بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٩٨م.

## ١٠٢ • تفسير النسفيّ = مدارك التنزيل وحقائق التأويل

النسفيّ ، أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود (٧١٠هـ): تحقيق: يوسف عليّ بدوي ، دار ابن كثير - دمشق وبيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

## ١٠٣ • محاسبة النفس

العلامة الشيخ الكفعميّ ، تقي الدين إبراهيم بن عليّ (من أعلام القرن التاسع الهجري): تحقيق: الشيخ فارس الحسون ، المطبعة نمونه ، الناشر: مؤسسة قائم آل محمّد عليهم السلام.

## ١٠٤ • المحبّر

ابن حبيب الهاشمي البغدادي ، محمّد: دار الغد العربي - القاهرة / ٢٠٠٠م.

## ١٠٥ • المحبّة البيضاء في تهذيب الأحياء

الفيض الكاشاني ، الملامحسن بن مرتضى محمّد محسن (١٠٠٧ - ١٠٩١هـ): نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت / ١٤٠٣هـ.

## ١٠٦ • مختار الصحاح

محمّد عبدالقادر (٧٢١هـ): ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلميّة - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

## ١٠٧ • المزار

الشهيد الأول ، محمد بن مكّي العاملي الجزيني (٧٣٤ - ٧٨٦هـ): تحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام - قم المقدّسة / ١٤١٠هـ

## ١٠٨ • المزار الكبير

ابن المشهدي ، الشيخ أبو عبدالله محمد بن جعفر بن عليّ الحائريّ ( - ٦١٠هـ): تحقيق : جواد القيومي الأصفهانيّ ، نشر دار القيوم ، الطبعة الأولى / ١٤١٩هـ.

## ١٠٩ • مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل

المحدّث النوريّ ، الحاج الميرزا حسين بن محمد تقي بن تقيّ الطبرسيّ ( ١٢٥٤ - ١٣٢٠هـ): مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم المقدّسة ، الطبعة الأولى / ١٤٠٨هـ.

## ١١٠ • مستدرك سفينة البحار

الشيخ عليّ النمازي الشاهرودي ١: تحقيق: الشيخ حسن النمازي ، مؤسّسة النشر الإسلامي - قم المقدّسة / ١٤١٨هـ

## ١١١ • مسند أحمد بن حنبل

ابن حنبل ، أحمد ( - ٢٤١هـ): مؤسّسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

## ١١٢ • مشكاة الأنوار في غرر الأخبار

الطبرسيّ ، عليّ بن حسن (من أعلام القرن السابع الهجري): مؤسّسة آل البيت عليهم السلام - قم المقدّسة / ١٤٢٣م.

## ١١٣ • مصباح الأنس بين المعقول والمشهود

محمد بن حمزة الفناريّ (٨٣٤هـ): تصحيح وتقديم: محمد خواجهوي ، الناشر: انتشارات مولى - طهران ، مطبعة ايران مصوّر ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ق / ١٣٧٤هـ ش.

## ١١٤ • معاني الأخبار

الشيخ الصدوق: قدّم له: الشيخ حسين الأعلميّ ، تعليق: عليّ أكبر الغفّاريّ ،

نشر مؤسسة الأعلميّ - بيروت ، الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

١١٥ • المعجم العلميّ البريطانيّ

١١٦ • المعجم العلميّ المصوّر

١١٧ • معجم لغة الفقهاء

محّم قلّعيّ: نشر دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، الطبعة الثانية

١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

١١٨ • معجم ما استعجم

البكريّ الأندلسي ، عبدالله بن عبدالعزيز (٤٣٢ - ٤٨٧هـ): مكتبة الخانجي - القاهرة /

١٩٩٦م .

١١٩ • معجم المصطلحات الطبيّة والعلميّة الحديث

١٢٠ • معجم مقاييس اللغة

أحمد بن فارس بن زكريّا: تحقيق: عبدالسلام هارون ، مكتب الإعلام الإسلاميّ -

قم المقدّسة / ١٤٠٤هـ .

١٢١ • المفردات في غريب القرآن

الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمّد (٥٠٢هـ): الناشر: دار المعرفة - بيروت ،

الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

١٢٢ • مكارم الأخلاق

أمّين الإسلام الطبرسي: دار الفقه - قم المقدّسة / ١٤٢٥هـ .

١٢٣ • مناقب آل أبي طالب

ابن شهرآشوب ، أبو جعفر رشيد الدين محمّد بن عليّ السرويّ المازندرانيّ (٤٨٨ -

٥٨٨هـ): نشر: دار الأضواء - بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

١٢٤ • منتهى المطلب في تحقيق المذهب

العلامة الحلّي = أبو منصور الحسن بن يوسف المطهر الأسدي (٦٤٨ - ٧٢٦هـ): مجمع

البحوث الإسلامية - مشهد المقدّسة ، الطبعة الأولى / ١٤١٥هـ

١٢٥ • من لا يحضره الفقيه

الشيخ الصدوق: (٣١١ - ٣٨١هـ): تصحيح وتحقيق: علي أكبر الغفّاري ، الطبعة الثانية.

١٢٦ • موسوعة التاريخ الإسلامي

محمّد هادي اليوسفي: الناشر: مجمع الفكر الإسلامي ، المطبعة: مؤسّسة الهادي - قم المقدّسة ، الطبعة الأولى / ١٤١٧هـ

١٢٧ • الميزان في تفسير القرآن (تفسير)

الطباطبائي ، محمّد حسين (١٢٨١ - ١٣٦٠هـ): تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي ، الناشر مؤسّسة الأعلمي - بيروت ، الطبعة الأولى المحقّقة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

١٢٨ • نور البراهين

السيدّ نعمة الله الجزائريّ الموسويّ (١١١٢هـ): مؤسّسة النشر الإسلامي - قم المقدّسة ، الطبعة الأولى / ١٤١٧هـ .

١٢٩ • النهاية في غريب الحديث والأثر

ابن الأثير الجزريّ ، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمّد (٥٤٤ - ٦٠٦هـ): دار الفكر - بيروت / ١٩٩٠م .

١٣٠ • نهج البلاغة

(مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام)  
نشر: دار التعارف للمطبوعات - بيروت ، الطبعة الأولى / ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

١٣١ • نهج البلاغة

(مجموع ما اختاره الشريف الرضيّ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام)  
تصحيح: صبحي الصالح ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، الطبعة الأولى / ١٣٨٧هـ

١٣٢ • نيل الأوطار من أحاديث سيّد الأخيار

الشوكانيّ ، محمّد بن عليّ بن محمّد (١٢٥٠هـ): دار الجيل - بيروت / ١٩٧٣م .

١٣٣ • وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة

الحرّ العامليّ ، محمّد بن الحسن بن عليّ بن محمّد بن الحسين (١٠٣٣ - ١١٠٤هـ):  
مؤسّسة آل البيت عليهم السلام - قم المقدّسة ، الطبعة الثانية / ١٤١٦هـ.

١٣٤ • ينابيع المودّة لذوي القربى

القندوزيّ ، سليمان بن إبراهيم الحنفيّ ( - ١٢٩٤هـ): تحقيق: السيّد عليّ جمال أشرف  
الحسينيّ ، نشر: دار الأسوة للطباعة والنشر - قم المقدّسة ، الطبعة الأولى / ١٤١٦هـ.



# مُجْتَوِيَاتُ الْكِتَابِ

## سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

٥ - ١٤٥

- ٥ ..... المقدمة
- ٥ ..... حقيقة القرآن الكريم
- ٦ ..... ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ
- ٦ ..... معنى المدثر
- ٧ ..... الآراء في معنى المدثر
- ٩ ..... وقفة مع التدثر المادي
- ١١ ..... ﴿٢﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ
- ١١ ..... حقيقة القيام مع الإنذار
- ١٢ ..... دور الإنذار في توجيهات الأنبياء
- ١٢ ..... الترغيب والترهيب أسلوب تربوي
- ١٣ ..... القيام بالإنذار والتبشير
- ١٤ ..... شمولية الإنذار
- ١٥ ..... مسؤولية النبي ﷺ تجاه الرسالة

- ١٦ ..... التجسيد العمليّ للرسالة
- ١٧ ..... حقيقة الموت لدى المعصوم

١٨ ..... ﴿٣﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ

- ١٨ ..... مضامين معرفيّة في الآية
- ١٨ ..... الالتجاء في الآية
- ١٩ ..... حقيقة التكبير

٢٠ ..... ﴿٤﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ

- ٢٠ ..... معاني طهارة الثياب
- ٢٠ ..... أهميّة النظافة في الشرائع السماويّة
- ٢١ ..... حثّ الرسول على العمل
- ٢٢ ..... علاقة الآية بالعمل
- ٢٢ ..... المسؤوليّة تجاه العمل في الآية
- ٢٤ ..... حقيقة تقصير الثياب
- ٢٦ ..... التطهير العمليّ

٢٦ ..... ﴿٥﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ

- ٢٦ ..... معاني الرجز
- ٢٦ ..... الرجز في المدلول اللغويّ
- ٢٨ ..... الرجز خطاب تكليفيّ للنبيّ
- ٢٩ ..... علاقة التأثير مع الالتزام العمليّ
- ٣٠ ..... التوقيت الصحيح للدعوة

٣٢ ..... خلاصة الآراء في الرجز

٣٣ ..... وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾

٣٣ ..... المعنى اللغوي للمنّ والاستكثار

٣٣ ..... المعاني التفسيرية للآية

٣٣ ..... الأول: ترك المنّ بالنعم الإلهية

٣٣ ..... الثاني: ترك المنّ بالرسالة

٣٤ ..... الثالث: ترك طلب الزيادة

٣٥ ..... المبدأ الأخلاقي في القيادة

٣٥ ..... النبي يتواضع للأمة بإنجازاته

٣٧ ..... المبدأ العرفاني في القيادة

٣٧ ..... الرسول مصداق المبدأ العرفاني

٣٨ ..... المنّة من الله على الخلق

٣٨ ..... تعدد الآراء حول الشخصية الواحدة

٣٩ ..... دور الناس في الوصول للكمال

٤٤ ..... وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

٤٤ ..... حقيقة الصبر

٤٥ ..... دور الصبر في الوصول للكمال

٤٥ ..... الفارق بين النجاح والفشل

٤٥ ..... العلامة الطبائبي العالم الصابر

٤٦ ..... النبي وتحمل المشاق

٤٧ ..... طلاب العلم والصبر

- ٤٧ ..... إكمال التعليم للشباب
- ٤٨ ..... أقسام الصبر في الآية
- ٤٩ ..... طريق الوصول للصبر

٥٠ ..... ﴿٨﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ

- ٥٠ ..... معنى النقر والناقور

٥٠ ..... ﴿٩﴾ فُذِّلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ

- ٥٠ ..... أوصاف يوم القيامة

٥١ ..... ﴿١٠﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ

- ٥١ ..... أسباب الشك في وجود الله
- ٥٢ ..... الأول: انحراف الفطرة
- ٥٢ ..... الثاني: شدة ظهور الله
- ٥٢ ..... سبب تعذيب الجاحد
- ٥٣ ..... الكافر وجحود النعم
- ٥٤ ..... النعم الإلهية يعرفها من يفقدها
- ٥٤ ..... علاقة الكافر بالنعم الإلهية

٥٥ ..... ﴿١١﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا

- ٥٥ ..... شخصية الوليد بن المغيرة
- ٥٦ ..... موقف الوليد من دعوة النبي
- ٥٨ ..... الوليد يمنع الناس من قبول الدعوة

٥٨ ..... معنى الوحيد في الآية

٥٩ ..... حقيقة معنى الوحيد

٥٩ ..... ﴿١٢﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا

٥٩ ..... المال الممدود

٥٩ ..... ﴿١٣﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا

٥٩ ..... ماهية البنين الشهود

٦٠ ..... قصة مؤثرة في برّ الوالدين

٦٠ ..... ﴿١٤﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا

٦٠ ..... تيسير الأمور لطف إلهي

٦١ ..... ﴿١٥﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ

٦١ ..... الطمع في ذات الإنسان

٦٢ ..... سبب صدور الطمع

٦٣ ..... ﴿١٦﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا

٦٣ ..... مزالق العناد واللجاج

٦٤ ..... النبيّ تجسيد للرفق

٦٤ ..... المرء يحجب عن الحقّ

٦٥ ..... النبيّ مصداق التواضع

٦٥ ..... التعامل قائم على القيم والأخلاق

- ١٧ ﴿سَأَرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ ١٨ ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ ..... ٦٧
- ٦٧ ..... التفكير السلبي
- ٦٧ ..... التفكير الإيجابي
- ٦٨ ..... الخطر الفكري للوليد
- ١٩ ﴿فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ..... ٦٩
- ٦٩ ..... نهاية تخطيط الوليد
- ٢٠ ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ..... ٦٩
- ٧٠ ..... الوليد وآلية التفكير
- ٢١ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ..... ٧٠
- ٢٢ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ..... ٧١
- ٧١ ..... معنى العبوس
- ٧١ ..... معاني البسر
- ٢٣ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ ..... ٧٢
- ٧٢ ..... معنى الإدبار والاستكبار
- ٧٢ ..... توجيه أخلاقي في الآية
- ٧٣ ..... الطريق المضاد والتواضع
- ٧٣ ..... استعلاء الوليد
- ٧٤ ..... الاختلاف في القضايا الاجتماعية

- ٧٤ ..... ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ  
 ٧٥ ..... معنى يُؤْتَرُ  
 ٧٥ ..... محاولة الوليد ذم القرآن
- ٧٦ ..... ﴿٢٥﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ  
 ٧٦ ..... الوليد وبشرية القرآن  
 ٧٦ ..... ضعف كلام الوليد  
 ٧٦ ..... دليل بطلان بشرية القرآن  
 ٧٧ ..... الفارق بين القرآن وغيره  
 ٧٧ ..... عذاب الوليد
- ٧٨ ..... ﴿٢٦﴾ سَأُضْلِيهِ سَقَرٌ  
 ٧٨ ..... حقيقة الذوبان في سقر
- ٧٩ ..... ﴿٢٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٨﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ  
 ٧٩ ..... عظمة نار سقر  
 ٨٠ ..... بيان معنى عدم بقاء الروح  
 ٨٠ ..... الوضوح والبروز في نار سقر  
 ٨١ ..... سقر نار المعصية
- ٨١ ..... ﴿٢٩﴾ لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣٠﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ  
 ٨١ ..... تعدد خزنة النار  
 ٨٢ ..... حكمة العدد

- ٨٣ ..... وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴿٣١﴾
- ٨٣ ..... الامتحان في عدد خزنة النار
- ٨٤ ..... القدرات الهائلة للملائكة
- ٨٥ ..... قدرات ممنوحة للخلق
- ٨٦ ..... وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا
- ٨٦ ..... موقف الكفار من عدد الخزنة
- ٨٦ ..... أهل الكتاب وعدد الخزنة
- ٨٦ ..... لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا
- ٨٦ ..... تأثير ذكر عدد الخزنة
- وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ  
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا
- ٨٧ ..... المنافقون وذكر عدد الخزنة
- ٨٨ ..... كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ
- ٨٨ ..... الهداية التكوينية والتشريعية
- ٨٨ ..... تعلق المشيئة الإلهية بالهداية والضلال
- ٨٩ ..... وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ
- ٨٩ ..... تعداد جنود الله تعالى
- ٩١ ..... تأثير جنود الله تعالى
- ٩٢ ..... عظة قرآنية في قصة
- ٩٣ ..... وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾
- ٩٣ ..... التذكير في آيات القرآن
- ٩٥ ..... أثر تذكير آيات القرآن



- ٩٥ ..... ٣٢ كَلَّا وَالْقَمَرَ ٣٣ وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ .....  
 ٩٥ ..... أهَمِّيَّة القمر وارتباطه بالموجودات
- ٩٦ ..... ٣٤ وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ .....  
 ٩٦ ..... تأثير الصبح  
 ٩٦ ..... المنهج الأخلاقي في القرآن  
 ٩٧ ..... المظاهر الكونية تذكرة  
 ٩٨ ..... المظاهر الكونية وطغيان الإنسان
- ٩٨ ..... ٣٥ إِنَّهَا لِأَحْدَى الْكُبَرِ .....  
 ٩٨ ..... الملائكة والمظاهر الكونية
- ٩٩ ..... ٣٦ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ .....  
 ٩٩ ..... أثر الإنذار على البشر
- ١٠٠ ..... ٣٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ .....  
 ١٠٠ ..... حركة الإنسان مع الإنذار
- ١٠١ ..... ٣٨ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ .....  
 ١٠١ ..... الإنسان مرهون بعمله  
 ١٠١ ..... معنى الرهن  
 ١٠٣ ..... الميزان في القرآن  
 ١٠٣ ..... الإمام عليّ ميزان حقّ

١٠٤ ..... حقيقة الميزان

١٠٦ ..... ﴿٣٩﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ

١٠٦ ..... معنى أصحاب اليمين

١٠٧ ..... أقسام العصمة

١٠٨ ..... ﴿٤٠﴾ فِي جَنّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤١﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ

١٠٨ ..... البعد الأخلاقي لمفهوم اليمين

١٠٨ ..... الصلة بين أهل النعيم وأهل الجحيم

١٠٩ ..... حقيقة المجرمين

١١٠ ..... ﴿٤٢﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ

١١٠ ..... خصال أهل سقر

١١١ ..... ﴿٤٣﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ

١١١ ..... السمة الأولى: ترك الصلاة

١١١ ..... حقيقة الصلاة

١١٢ ..... الآثار المعنوية للصلاة

١١٣ ..... ﴿٤٤﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ

١١٣ ..... الثانية: ترك إطعام المسكين

١١٤ ..... الآثار الاجتماعية للإنفاق

- ١١٦ ..... ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ
- ١١٦ ..... السمة الثالثة: الخوض مع الخائضين
- ١١٨ ..... الاشتغال بالباطل ونسيان الإيمان
- ١١٩ ..... كبح جماح النفس
- ١٢٠ ..... نتيجة موقظة
- ١٢١ ..... ﴿٤٦﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ
- ١٢١ ..... السمة الرابعة: التكذيب بيوم الدين
- ١٢٢ ..... ﴿٤٧﴾ حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ
- ١٢٢ ..... نتيجة السمات الأربع
- ١٢٣ ..... ﴿٤٨﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ
- ١٢٣ ..... معنى الشفاعة
- ١٢٤ ..... ﴿٤٩﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ
- ١٢٤ ..... الشفاعة بين الخالق المخلوق
- ١٢٥ ..... الشفاعة وترك الواجبات
- ١٢٦ ..... سبب ترك الشفاعة
- ١٢٦ ..... المستفيد من التذكرة
- ١٢٧ ..... ﴿٥٠﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥١﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ
- ١٢٧ ..... تشبيه المعرضين عن التذكرة

أبعاد تشبيه المعرضين بالحمر ..... ١٢٨

١٢٨ ..... ﴿٥٢﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً

احتجاجات واهية ..... ١٢٨

إنزال الكتب اختيار إلهي ..... ١٢٩

١٣١ ..... ﴿٥٣﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ

خصائص من ينزل عليهم الكتب ..... ١٣١

الإنسان والخوف من الآخرة ..... ١٣٢

الأمور التي تذكر بالآخرة ..... ١٣٣

الآخرة تُذكر الإنسان ..... ١٣٥

١٣٥ ..... ﴿٥٤﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٥٥﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ

وسائل تذكر عالم الآخرة ..... ١٣٥

التذكر العملي ..... ١٣٧

المشيئة بين الله والإنسان ..... ١٣٨

١٣٩ ..... ﴿٥٦﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ

مشيئة الله متعلقة بالموجودات ..... ١٣٩

الإرادة التشريعية والتكوينية ..... ١٣٩

حقيقة المشيئة الإلهية ..... ١٤١

مشيئة الله رحمة إلهية ..... ١٤٢

ارتباط التذكر بمشيئة الله ..... ١٤٣

الله تعالى أهل التقوى والمغفرة ..... ١٤٤

## سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

١٤٧ - ٢٠٦

١٤٧ ..... إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾

١٤٧ ..... أحداث السورة

١٤٧ ..... معاني الانفطار

١٤٩ ..... وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ ﴿٢﴾

١٤٩ ..... نهاية الرتبة الكونية

١٤٩ ..... موت الكواكب

١٥٠ ..... انهيار الانسجام الكوني للنجوم

١٥١ ..... انتشار الكواكب

١٥١ ..... انعدام قوّة الجذب الكونية

١٥٢ ..... وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾

١٥٢ ..... طغيان البحار

١٥٣ ..... كيفية زيادة المنسوب المائي

١٥٤ ..... سبب ازدياد حرارة الأرض

١٥٦ ..... وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾

١٥٦ ..... بعث الأموات

- ١٥٧ ..... كيفية البعث  
١٥٩ ..... البعث في القرآن

١٦١ ..... ﴿٥﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ

- ١٦١ ..... الإدراك الذاتي للنفس بعد التخلص من البدن  
١٦١ ..... مرتبة الإدراك الذاتي للنفس  
١٦٢ ..... إدراكات النفس قبل الموت  
١٦٣ ..... الماديات وتعذر الإحاطة العلمية للنفس  
١٦٤ ..... الوصول لمرتبة النفس المطمئنة

١٦٥ ..... ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ

- ١٦٥ ..... التحذير من الغرور  
١٦٥ ..... الاغترار بكرم الله  
١٦٦ ..... لا تغترّ بكرم الله في الدنيا  
١٦٧ ..... التحذير من عواقب الأعمال غير الصالحة

١٦٨ ..... ﴿٧﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ

- ١٦٨ ..... نعم الله على الإنسان في خلقه

١٧١ ..... ﴿٨﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ

- ١٧١ ..... نعم الله على الإنسان بعد خلقه  
١٧٢ ..... الإتيان في خلق الصورة الإنسانية الظاهرية  
١٧٢ ..... الإتيان في خلق الصورة الإنسانية الباطنية

- ١٧٣ ..... نعمة الاختلاف في صورة البشر
- ١٧٤ ..... الاختلاف الروحي بين المخلوقات
- ١٧٥ ..... اهتمام الشارع المقدس بالاختلاف

### ٩ ﴿ كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴾

- ١٧٥ ..... آثار الانخداع بكرم الله تعالى
- ١٧٦ ..... الغرور بالله ضد الإيمان بالمعيبات
- ١٧٨ ..... سبب تكذيب الأقسام السابقة
- ١٨٢ ..... معنيان في التكذيب بيوم الدين
- ١٨٢ ..... خصائص الملائكة الذين يكتبون أعمال الإنسان

### ١٠ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾

- ١٨٤ ..... الخاصية الأولى : ملائكة كرام حافظين

### ١١ ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ ١٢ ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

- ١٨٨ ..... الخاصية الثانية : ملائكة كتاب

### ١٣ ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾

- ١٩٦ ..... الأبرار

### ١٤ ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ ١٥ ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾

- ١٩٧ ..... الفجار

- ١٩٨ ..... صفات الجحيم

- ١٩٨ ..... أسباب الورود في الجحيم
- ١٩٩ ..... أحوال الجحيم وأهلها
- ٢٠٠ ..... ﴿١٦﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ
- ٢٠١ ..... الاستشكال في الخلود الأخروي
- ٢٠٣ ..... ﴿١٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ
- ٢٠٣ ..... أهوال أحداث القيامة
- ٢٠٤ ..... ﴿١٩﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ
- ٢٠٤ ..... الملكية بين الدنيا والآخرة
- ٢٠٧ ..... الآيات القرآنية في المعاد
- ٢٠٨ ..... تساؤلات فطرية
- ٢٠٨ ..... أهميّة المعاد
- ٢٠٩ ..... منزلة سورتي الانشقاق والانفطار
- ٢٠٩ ..... الموت حقيقة غائبة
- ٢١٠ ..... أثر تذكّر الموت
- ٢١٠ ..... المشاهد القرآنية قبل القيامة

## سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

٢٠٧ - ٢٦٨

﴿١﴾ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿٢﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ٢١٤



٢١٤ ..... كثرة الخلائق والحساب

٢١٥ ..... ﴿٤﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ

٢١٥ ..... النظريات حول مصير الأرض بعد امتدادها

٢١٦ ..... الفائدة من إخراج الأرض لما في باطنها

٢١٧ ..... ﴿٥﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ

٢١٧ ..... سبب تكرار الآية

٢١٨ ..... ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ

٢١٨ ..... عقبات في مسيرة الإنسان

٢١٩ ..... البعد المعنوي في شخصية الإنسان

٢٢١ ..... ﴿٧﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٨﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا

٢٢١ ..... حال الإنسان في ملاقاته الله تعالى

٢٢٢ ..... ملاقاته الله على أحسن حال

٢٢٢ ..... دلائل الوصول إلى الرضا الإلهي

٢٢٣ ..... حقيقة عمل وسعي الإنسان

٢٢٣ ..... ضوابط القانون الإلهي

٢٢٤ ..... اتجاهات السائر في طريق الله

٢٢٥ ..... نتيجة أخذ الكتاب باليمين

٢٢٨ ..... ﴿٩﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٠﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ

أخذ الكتاب وراء الظهر ..... ٢٢٨

نتيجة أخذ الكتاب من وراء الظهر ..... ٢٢٩

٢٢٩ ..... ﴿١١﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا

٢٣٠ ..... ﴿١٢﴾ وَيَصْلِي سَعِيرًا

٢٣١ ..... ﴿١٣﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا

٢٣١ ..... حقيقة السرور والفرح

٢٣٢ ..... ﴿١٤﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ

٢٣٢ ..... إنكار الرجوع إلى الله

٢٣٣ ..... لا عمل حقيقي لمنكر المعاد

٢٣٤ ..... ﴿١٥﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا

٢٣٤ ..... الرد على منكري المعاد

٢٣٦ ..... استشعار الرقابة الإلهية

٢٣٧ ..... ﴿١٦﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٧﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٨﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ

٢٣٧ ..... الاستدلال على الربوبية بالمظاهر الكونية

٢٣٧ ..... الهدف من القسم بغير الله في القرآن

٢٣٨ ..... القسم بغير الله والشرك

٢٣٩ ..... القسم بغير الله ليس من الشرك

٢٤٠ ..... معنى الشفق

٢٤٢ ..... مظاهر الجمع في الليل

٢٤٣ ..... فوائد اجتماع القمر بعد تفرقه

٢٤٤ ..... مظاهر كونية مترابطة

٢٤٥ ..... المظاهر الكونية والإنسان

٢٤٥ ..... ﴿١٩﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ

٢٤٥ ..... معاني الطبق في الآية

٢٤٧ ..... انحراف مسار الأمم

٢٤٨ ..... ﴿٢٠﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

٢٤٨ ..... تأثير النظام الكوني في إيمان الإنسان

٢٥٠ ..... ﴿٢١﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ

٢٥٠ ..... طريق سلوك الإنسان في سيره التكاملي

٢٥٠ ..... آثار التفقه في معاني القرآن

٢٥٣ ..... معنى السجود في الآية

٢٥٣ ..... ﴿٢٢﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ

٢٥٣ ..... طريقة تعامل الكفار مع الحقائق

٢٥٥ ..... الموقف الصحيح تجاه الحقائق

٢٥٥ ..... موازين التمييز بين الصدق والكذب

٢٥٦ ..... العاقبة للحق والصدق

٢٥٦ ..... ﴿٢٣﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ

- ٢٥٦ ..... علم الله بحقيقة الإنسان  
 ٢٥٨ ..... استشعار اطلاع الله يوصل للكمال  
 ٢٥٨ ..... المعصية وحضور الله  
 ٢٥٩ ..... أعمال الإنسان مكتوبة في عالم وجوده

٢٦٠ ..... ﴿٢٤﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

- ٢٦٠ ..... جزاء الكافرين والجاحدين  
 ٢٦١ ..... الاستهزاء بالجاحدين

٢٦٢ ..... ﴿٢٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ

- ٢٦٢ ..... المؤمنون الصالحون لا يُعذبون  
 ٢٦٣ ..... نوعية الاستثناء في الآية  
 ٢٦٣ ..... ارتباط الإيمان والعمل مع الأجر  
 ٢٦٥ ..... معنى ﴿مَمْنُونٍ﴾ في الآية  
 ٢٦٦ ..... النعم الإلهية في سلسلة من العلل  
 ٢٦٦ ..... الفرق بين عطاء الدنيا والآخرة  
 ٢٦٦ ..... خصال النعم الدنيوية والأخروية  
 ٢٦٩ ..... الهدف من القسم:  
 ٢٧٠ ..... العلاقة بين القسم والفلاح  
 ٢٧٠ ..... أقسام الناس عند الإمام علي ٧  
 ٢٧٣ ..... طريق الفلاح  
 ٢٧٤ ..... نتائج هامة للقسم في السورة  
 ٢٧٥ ..... أهمية الشمس للموجودات

- ٢٧٥ ..... هدف القَسَمِ بالشمس
- ٢٧٥ ..... أهميّة الضحى في القرآن
- ٢٧٦ ..... أهميّة الضحى في العلم الحديث

## سُورَةُ الشَّمْسِ

٢٦٩ - ٣١٩

- ٢٧٧ ..... ① وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا
- ٢٧٧ ..... ارتباط الشمس بتزكية النفس
- ٢٧٨ ..... تفسير الشمس بالنبي ﷺ
- ٢٧٩ ..... الأبحاث العلمية في الآية
- ٢٨٠ ..... الأول: القَسَمُ بغير الله عقدياً
- ٢٨٠ ..... الثاني: القسم بغير الله فقهيّاً
- ٢٨٢ ..... الدليل على القَسَمِ بغير الله
- ٢٨٢ ..... الجانب الأخلاقي في القَسَمِ
- ٢٨٣ ..... ② وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ③ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَاهَا
- ٢٨٣ ..... معنى كون القمر تالياً للشمس
- ٢٨٤ ..... فوائد القمر
- ٢٨٥ ..... تفسير القمر في الروايات
- ٢٨٦ ..... ④ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا
- ٢٨٦ ..... فوائد الليل

- الأولى: إضفاء التوازن بين الكائنات ..... ٢٨٦
- الثانية: الليل عروج معنوي إلى الله ..... ٢٨٧
- سبب ذكر الليل للعروج المعنوي ..... ٢٨٨
- الليل في شهر رمضان ..... ٢٨٨
- ظاهرة تعاقب الليل والنهار ..... ٢٨٩
- ولوج الليل في النهار ..... ٢٨٩
- الأثر الشرعي لتعاقب الليل والنهار ..... ٢٩٠
- حقيقة القسم الإلهي بالليل ..... ٢٩١

### ٥ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ..... ٢٩١

- معنى السماء ..... ٢٩١
- تكرّر لفظ السماء في القرآن ..... ٢٩٢
- عظمة خلق السماء ..... ٢٩٣
- حقيقة الاسم الموصول في الآية ..... ٢٩٣
- استعمال القرآن ( ما ) الموصولة للعاقل ..... ٢٩٤
- سبب استعمال ( ما ) الموصولة للعاقل ..... ٢٩٤

### ٦ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ..... ٢٩٥

- معنى الأرض في الآية ..... ٢٩٥
- معاني الطحو في الآية ..... ٢٩٥
- أنواع القسم في الآية ..... ٢٩٦
- الغاية من الأقسام الثلاثة ..... ٢٩٧
- علاقة وجود الإنسان المادي بالأرض ..... ٢٩٧

- ٢٩٨ ..... علاقة وجود الإنسان المعنوي بالأرض  
 ٢٩٨ ..... الوجود المادّي والمعنوي للإنسان

- ٢٩٩ ..... ﴿٧﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا .....  
 ٢٩٩ ..... معنى النفس الإنسانيّة  
 ٣٠٣ ..... حقيقة الوجود المادّي والمعنوي  
 ٣٠٤ ..... التكامل الإنسانيّ شمولي  
 ٣٠٤ ..... معنى (ما) في الآية

- ٣٠٤ ..... ﴿٨﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا .....  
 ٣٠٤ ..... الفرق بين الإلهام والوحي  
 ٣٠٤ ..... حقيقة الإلهام  
 ٣٠٥ ..... الإلهام وتأييب الضمير  
 ٣٠٦ ..... شذوذ في تفسير الإلهام  
 ٣٠٦ ..... التفريط والإفراط في فهم الإلهام  
 ٣٠٧ ..... حقيقة الفجور في الآية  
 ٣٠٨ ..... إلهام الله التقوى  
 ٣٠٨ ..... الإلهام للفجور والتقوى  
 ٣٠٨ ..... الآية تنفي الجبر في الأفعال

- ٣٠٩ ..... ﴿٩﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿١٠﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا .....  
 ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١٢﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٣﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٤﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها ﴿١٥﴾

٣١٠	..... وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا
٣١٠	..... القصة التاريخية لثمود
٣١١	..... نهاية قوم ثمود
٣١٢	..... العبرة في قصة قوم ثمود
٣١٣	..... عذاب أمة بسبب فرد
٣١٤	..... السنة الإلهية تتحقق مع قوم ثمود
٣١٥	..... طريقة العذاب الواقع بقوم ثمود
٣١٥	..... معنى التسوية
٣١٦	..... الله عادل حتى في عقابه
٣١٦	..... دروس مستفادة من السورة

## سورة العنكبوت

٣٢١ - ٣٣٤

٣٢١	..... وَالْعَنْكَبُوتِ
٣٢٤	..... إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ
٣٢٨	..... إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ
٣٣٣	..... معالم السورة

## مصادر الكتاب

٣٥٢ - ٣٥٥

## محتويات الكتاب

٣٧٦ - ٣٥٣



